ريتشارد فلاناغان



الرغبة



ترجمة

حنان المسعودي

منشورات الجمل

رواية

ريتشارد فلاناغان

الرغبة

تليجرام مكتبة غواص في بحر الكتب

ترجمة
حنان المسعودي

منشورات الجمل



ريتشارد فلاناغان، الرغبة

وُلدَ ريتشارد فلاناغان في لونغ فورد ـ تاسمانيا عام ١٩٦١، رواياته موتُ مرشِد النهر، صوتُ يدٍ واحدةٍ تُصفق، كتاب جولد للاسماك، الإرهابي المجهول والرغبة كانت قد تَسلَّمت كثيراً من شهاداتِ التكريم ونُشرت في ستٍ وعشرين دولة. قام بإخراج فيلم عن صوت يدٍ واحدةٍ تُصفق وساعد في كتابة استراليا باز لورمان، نُشرت مجموعةٌ من مقالاته في كتاب اسمه وما الذي تفعلهُ سيد غايبل. فازت رواية: الدرب الضيق إلى مجاهل الشمال (صدرت ترجمتها العربية عام ٢٠١٦) بجائزة البوكر العالمية ٢٠١٤.

ريتشارد فلاناغان: الرغبة، ترجمة: حنان المسعودي
الطبعة الاولى ٢٠١٨

تلفون وفاكس: ٣٥٢٣٠٤ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١
ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

Richard Flanagan: Wanting

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany
www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com


أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الأزبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

أنتُم تعلمونَ أيها السادة أنَّ العقلَ هو أمرٌ رفيعٌ وهو غير قابلٍ للشكِ، ولكن العقلَ هو عقلٌ فقط ويُرضي فقط القدراتِ المنطقيةِ للفرد بينما الرغبة تجسدُ الحياةَ برمَّتِها.

«فايدور دستوفيسكي»

ولهذا فإن الرغبةَ لا يُمكنُ أن تُحصَى.

«اغليسيتيس»



١

انتهتِ الحربُ كما تفعلُ الحروبُ أحياناً بشكلٍ غير متوقع. رجلٌ لم يهتَم بهِ أحدٌ، خوريٌ مرهقٌ وضئيلٌ، نجارٌ وواعظٌ كذلك، ارتحلَ أعزل بصحبةِ عددٍ من السودِ المُروضين عبرَ القِفار الشاسعةِ من الجزيرةِ وقفلَ عائداً مع جمعٍ متنوعٍ من البرابرةِ. كان يُطلَق عليهم لقبُ «السودِ البربين». والذين بالرغمِ من همجيتِهم لم يكونوا متوحشينَ بالتأكيدِ، لكنهم يعانون من الجربِ، حَزانى غالباً ومصابونَ بالسُل. كانوا كما قالَ ـ وكما يبدو الآن ـ كلَ المتبقين من قبائلِ «الفانديمون» المخيفةِ سابقاً، والتي خاضت ولمدةٍ طويلةٍ حرباً قاسيةً ومروعةً.

كلُ من رآهم قالَ إنهُ من الصعبِ التصديق بأنَّ مجموعةً صغيرةً وبائسةً كهذهِ كانت قد تحدَّت جبروتَ الإمبراطوريةِ لفترةٍ طويلةٍ، حتى إنهم تمكنوا من التغلبِ على عملياتِ الإبادةِ الوحشيةِ وكانوا أدوات ذلك الخوف والترويع. لم يكن واضحاً ما الذي قالهُ الواعظُ لهؤلاءِ السود أو ما الذي تصوروا أنهُ سيفعلهُ بِهم، لكنَهم بدوا سَهلي الانقياد وحَزانى إلى درجةٍ ما، فريقٌ منسحقٌ يتلوهُ آخر، امتطى قارباً بعد قاربٍ وأُخِذ إلى جزيرةٍ نائيةٍ على بعد مئاتِ الأميال من المياه التي تفصلُ أرضَ فانديمون عن برّ أستراليا.

هُنا حصلَ الواعظُ على اللقبِ الرسمي كوصي بمرتبٍ قدره خمسمائة باونٍ في السنةِ مع حامية جندٍ صغيرةٍ ومعلّمٍ للدِّين المسيحي،

وقد تمكن من أن يرفعَ تكلفةَ قفطانِه (سموره) بما يتناسبُ ومستوى التمدّنِ الإنكليزي.

لقد لاقى بعضَ النجاحاتِ، لكنهُ وبالرغمِ من ضآلتِها كان يرغبُ في التركيزِ عليها... هل كانت عديمة الجدوى حقاً؟ هل كان قومُه يفتقرونَ إلى معرفةِ الرب والمسيح؟ ألم يكونوا واسعي الاطّلاع على الرّب والمسيح كما دلّت على ذلكَ أجوبتُهم المتحمسة والجاهزة على أسئلةِ المُعلم وانعكست بوضوحٍ على إنشادِهم المتعصبِ للترانيم؟ ألم يذهبوا بحماسٍ إلى السوقِ الأسبوعي حيث يُقايضون الجلودَ وقلائدَ الصَّدَف مقابل الخبز والتبغ وأشياء من هذا القبيل، وبعكسِ هذا فإنَ إخوته السود كانوا سيموتون بشكلٍ يومي تقريباً، توجبَ عليه الإعتراف بأنَ المستوطنةَ كانت مُرضيةً على جميعِ الأصعدة.

على أيةِ حال بعضُ الأشياءِ كانت تبدو مربكةً، فعلى الرّغم من أنهُ منعهم من غذائهم المحليّ المكوّن من التوتِ، المزروعاتِ، المحارِ والطّرائدِ وأطعمهُم الطحينَ والسكّرَ والشايَ فإن صحتهم أمست لا تُقارن بما كانت عليه سابقاً. وكُلما اعتادوا على البطانياتِ الإنكليزيةِ والملابسِ الإنكليزية وتخلّوا عن عريِهم المُخجل سَعلوا أكثرَ وبَصقوا وماتوا. وكُلّما ماتوا أكثر رغِبوا في التحرّرِ من ملابسِهم الإنكليزية والتوقف عن تناول طعامهم الإنكليزي والانتقالِ من مساكنِهم الإنكليزية التي قالوا إنها مسكونة بالشيطان والعودة إلى لذّةِ القنصِ في النهارِ والنار في العراءِ ليلاً.

كان عام ١٨٣٩ حين التُقطت أولُ صورةٍ فوتغرافيةٍ للإنسان وأعلنَ عبد القادر الجِهاد ضدَ الفرنسيين وقد تزايدَت شُهرة تشارلز ديكنز مع روايته أوليفر تويست... «إنهُ غيرُ مبرر» فكّرَ الوصي وهو يُغلق سجلَه بعدَ تحريرِ شهادةِ وفاةٍ أُخرى ويعودُ لتدوينِ ملاحظاتِه لأجلِ محاضرته القادمة حولَ ديناميكيةِ الهواءِ.

٢

بعدَ أن سمِعَ بخبرِ موتِ الطفلة من الخادمِ الذي هرُع من منزل تشارلز ديكنز لم يتردد جون فورستر ـ التردد هو علامةُ فشلِ الشّخصيةِ وشخصيّته الخاصّة لم تكُن تسمحُ بالفشل. فورستر وبوجهٍ شبيهٍ بكلبِ الدرواس وجسدٍ ممتلئ وبطنٍ كبطن الأوزّة... ثقيلٌ في كل شيء، الرّأي، العاطفةُ، الأخلاق والحديث، كان بالنّسبةِ إلى ديكنز كالجاذبيّةِ بالنّسبة لراكبِ المنطاد، بالرغم من كونهِ لم يتورّع عن السخريةِ مِنه سراً كان ديكنز مولعاً بشكلٍ مذهلٍ بسكرتيرهِ غير الرّسميّ الذي يَعتمد عليه في كل صنوفِ العملِ والنّصيحة.

وفورستر بدورِه كان فخوراً بشكلٍ استثنائيّ بكونه يُعوّل عليه كثيراً، قرر أن ينتظر حتى ينتهي ديكنز من خطابِه، بالرغمِ من الجدالِ الدائر في نفس فورستر بأن الأحداثَ الراهنة تعفي ديكنز من ضرورةِ توجيه ذلك الخطاب أمامَ المجمع المسرحيّ العامّ، كان متأكّداً بأنهُ سينتظر. لماذا، في ذلك الصّباحِ بالذّات التقى فورستر بديكنز عند جادةِ ديفونشاير وحثّهُ للمرةِ الأخيرة على إلغاءِ ذلكَ الالتزامَ.

«ولكنني وَعدت» قال ديكنز الذي وجدَه فورستر في الحديقة يلعبُ مع أطفالهِ الصّغار، كان ممسكاً بطفلتهِ التاسعة «دورا الصّغيرة» يقوم برفعِها فوق رأسه، يبتسمُ لها وينفخُ الهواء من شفتَيه وهي تُحرك ذِراعيها

صعوداً ونزولاً بقوةٍ واتزانٍ كعازف طبولٍ محترف. «لا لا لن أتمكن من خِذلاننا بتلكَ الطريقة».

تميز فورستر غيظاً لكنهُ لم يقُل شيئاً، «خِذلاننا»؟ لطالما اعتبر ديكنز نفسهُ ممثلاً أكثر من كونه كاتباً، كان ذلك غيرَ منطقيٍ بالتأكيد ولكن هكذا هو ديكنز، أحَبَ ديكنز المسرحَ، أحَبَّ كل ما يتعلقُ بذلك العالم المتخيّل حيث بالإمكانِ أن يُستدعى القمر للنزولِ بإشارةٍ من الإصبع. كان فورستر يعرفُ أن ديكنز يشعرُ بتضامنٍ غريبٍ مع الممثلين في الفرقةِ المسرحية الخيرية الذين سيُخاطبُهم هذه الليلة، هذا الانجذابُ إلى أشخاصٍ سيئي السمعة أقلق فورستر وأخافهُ في نفسِ الوقت.

«إنها تبدو بخير ألا تظُنُّ هذا»؟ قال ديكنز وهو يُنزل الرضيعةَ إلى مستوى صدره. «كان لديها حُمّى طفيفة اليوم، أليس كذلك دورا»؟ وقبّل جبهتها «لكني أعتقدُ أنها قد تعافت».

الآن وبعدَ بضع ساعاتٍ قصيرةٍ، «يا للروعةِ التي سيجري بها خطاب ديكنز» فكرَ فورستر. كان الحشدُ هائلاً، مستغرقاً في الانتباهِ، ابتدأ ديكنز بشكلٍ رائعٍ وواصل بعدها...

«في مجمَعِنا» قال ديكنز لمجموعةِ الممثلين المحتشدين في القاعة «لا نعرِف كلمةَ انتقاءٍ، نحن نشمَل كل ممثلٍ سواء أكانَ هاملت أم بينيدكت، هذا الشبح أم قاطع الطريقِ ذاك أو حتى جيش الملك الكامل بنفسهِ، كي يؤدّوا أدوارَهم أمامنا انبثقَ هؤلاء الممثلون من رحمِ المرض، المعاناة وحتى الموت نفسه ومع هذا...».

كانت هناك همهمةٌ من الهُتاف في القاعة توقفت قبلَ أن تبدأ، لأنهم شعروا رُبما بأنهُ من الذوقِ السيئ إثارةُ الانتباهِ لوجود ديكنز هناك بعد

مرور أسبوعينِ فقط على وفاةِ والدِه، عمليةٌ فاشلةٌ لحصى المرارة تركت الرجل العجوز مستلقياً على مذبحٍ من الدِماء.

«ومع هذا، كم اضطررنا غالباً» أكملَ ديكنز «أن نكبحَ مشاعِرنا بعنفٍ ونُخفي قلوبَنا لنَخوضَ معركةَ الحياة ونتمكن من إتمامِ واجباتنا ومسؤولياتِنا بشجاعةٍ».

فيما بعد انتحى فورستر بديكنز جانباً...

«أنا أخشى» ابتدأ فورستر «بكلمةٍ واحدةٍ» قال فورستر الذي يستخدمُ غالباً كثيراً من الكلماتِ لكنهُ أدركَ الآن أن هنالك كلمةً واحدةً لا يرغبُ في ذكرها.

«نعم» قال ديكنز وهو يتفحصُ شيئاً أو شخصاً ما خلفَ كتفي فورستر ثُم نظرَ إلى الوراءِ وعيناهُ تطرفان.

«نعم عزيزي الماموث».

استخدامهُ العرضيُ لكُنيةِ فورستر الخاصة، افتراضهُ بأنَ كل هذا هو محضُ مُزاح، سرورهُ كممثلٍ أتقنَ دوره، لا شيء من هذا ساعدَ فورستر المسكين في جعلِ مهمتهِ أسهل.

«دورا الصغيرة» قال فورستر وقد ارتعشت شفتاه وهو يُحاول أن يُتمَ جملتَه.

«دورا»؟؟

«أنا» غمغمَ فورستر وهو يتمنى في تلك اللحظة قولَ أشياء كثيرة لكنه لا يستطيعِ قولَ أيٍ منها «أنا آسفٌ جداً.. آسفٌ جداً تشارلز» اندفع فورستر قائلاً وهو يندمُ على كلِ كلمةٍ، راغباً في قولِ شيءٍ أفضل، ارتفعت يدُه لدعمِ تكلُفِه المُعتاد ولكنها فشِلت في ذلك فتراجَعت إلى

جانب جسده، جسده الضخم المنتفخ، عديمِ الفائدة... «لقد رحلت نتيجةَ لاختلاجاتٍ متعدّدةٍ» قالها أخيراً.

لم يَظهر على وجهِ ديكنز أيُ انفعالٍ، فكرَ فورستر «يا له من رجلٍ مذهلٍ».

«متى» قال ديكنز.

«قبل ثلاث ساعاتٍ» قال فورستر «بعدَ مغادرتِنا مباشرةً».

كان عام ١٨٥١ حيث يحتِفل معرض لندن الكبير بالإنجازاتِ العلميّةِ المتطوّرة في صيوانٍ زجاجيٍّ استهزأ به الكاتبُ «دوغلاس جيرولد» وسمّاهُ بالقصرِ البلوريّ، حيثُ فشِلت في نيويورك رواية عن إيجادِ حوتٍ خرافيٍّ أبيض، بينما كانت السيّدةُ جين فرانكلين في ميناءِ سترومنز الرماديّ في أوركني تودِع نحو العدم الحملة الثّانية من مجموعة حملاتٍ فاشلةٍ كانت تبحث عن خُرافةٍ أخرى عُرفت ذاتَ يومٍ بزوجِها.

٣

اندفعت فتاةٌ ضئيلةٌ راكضةً خلالَ العُشب الذي يماثلها طولاً، كم أحبّت الإحساسَ الذي ولّدته خيوطُ العُشب الرّفيعةِ وهي تنثرُ حباتِ الماء على رَبْلَتَيها، إحساسها بالأرض تحتَ قدميها العاريتين طريّةً ورطبةً في الشتاء، جافّةً ومتربةً في الصّيفِ، كانت في السّابعةِ من العمرِ، ما تزالُ الأرضُ جديدةً واستثنائيّةً في بهجتِها، ما تزالُ الأرضُ تتصاعدُ خلالَ قدميها إلى رأسها ونحو الشّمس كانت متحمّسةً لركضِها وكذلك مرتعبةً للسّببِ الذي تركض لأجلهِ ولا تتوقّف. كانت تعرف قصصاً عن الأرواحِ التي تطيرُ وتحومُ في الفضاءِ، لو ركضت أسرع قليلاً لربما تمكّنت من التّحليقِ ووصلت وِجهتها بشكلٍ أسرعٍ ثم تذكّرتْ أنّ الموتى فقط هم من يتمكّنون من الطّيرانِ فدفعت كلَّ أفكارِ التّحليق خارج ذهنها.

ركضت عبر المنازلِ التي عاشَ فيها السودُ، خلالَ بيوت الدّجاج المتصدّعة، عبر نباحِ الكِلاب، عبر الكنيسةِ واستمرّت بالرّكضِ أعلى المنحدر إلى أهمّ بنايةٍ في مستوطنةِ «وايبالينا». تسلّقت درجاتِها الثّلاث وكما شوهِدت مراتٍ عدّة من قبل ضربت الباب كفتاةٍ بيضاء بلكمةِ يد.

رفع الوصيُّ رأسَه عن ملاحظاتِهِ حولَ محاضرته عن ديناميكيةِ الهواء ليرى فتاةً محليةً صغيرةً تدلِف إلى المنزلِ. كانت حافيةَ القدمين، ترتدي

متزراً قذراً وقبعةً صوفيّةً قديمة وقطرةً من المخاطِ تتحرّكُ كالشمعِ المـذابِ داخـلاً وخارجاً من مِنخرِها الأيمن لتبدو كشيءٍ على قيدِ الحياة. نظرت نحو الأعلى إلى السقفِ، أدارَت بصرَها حول الجُدران وتطلعت غالباً إلى الأرضِ.

«نعم» قالَ الوصيّ. وبعينِ الطّريقةِ المُنفرة لقومها، نظرت في كلِ الاتّجاهاتِ ما عدا في عينيهِ. كان اسمُها الحقيقيّ هو «ليدا»، وهو الاسم ذاته الذي عمّدها به، لكن ولسببٍ ما كانَ الجميعُ ينادونها باسمِ محليٍ آخر وقد انزعجَ الوصيُّ عندما وجد نفسه يفعلُ المِثل «نعم ماثينا».

نظرت ماثينا إلى قدمَيها، حكت تحتَ إبطِها لكنها لم تقُل شيئاً.

«حسناً ماذا هناك أيتُها الصغيرة»؟

وفجأةً أدركت سبب وجودها في ذلكَ المكان، قالت ماثينا «روورا» استخدمت الاسمَ المحلي للشيطانِ ثم بسرعةٍ «روورا» ثم «رووورا».

قفزَ الوصيُّ من على كرسيّه، التقطَ سكيناً قابلةً للطيّ من دُرجٍ مفتوحٍ وركضَ خارجاً تتقدمُه الصّغيرة مسرعةً، ركضا نحو صفٍّ من المنازلِ المبنيّةِ بالقرميدِ التي أنشأها هو للسكّانِ المحليّين كي يعوّدهم على الحياةِ المنزليّة الإنكليزيّة ويبعدَهم عن سقائفِهم الخشنةِ. لطالما شعرَ الوصيُّ والذي كان نجّاراً قبل أن يصبح مخلصاً بالغبطةِ كيف أنهُ لو تَناسى أي شخصٍ الشاطئ الأبيض الواقعَ خلفه والمحاط بالجلاميدِ الحمرِ والمُغطى بطبقةٍ جلديّةٍ من الأشناتِ أو الغاباتِ الغريبة المتشابكةِ التي تَليه، لو كان بإمكانِ أي شخصٍ أن يتجاهلَ هذه الجزيرة البائسةِ المقفرة التي يقطنونها على حافةِ العالمِ ويركز بدلاً عنها على تلك المباني، كان سيتمكّن من رؤية صفيّن من المنازلِ الصّغيرةِ التي ستبدو لكلِ العالم وكأنّها شارعٌ حديثٌ في مدينةٍ عصريّةٍ عظيمةٍ مثلَ مانشستر.

عندما اقتربا من المنزلِ ١٧ توقفت ماثينا لدقيقةٍ وهي تُحدّق في السّماءِ فوقها، بدت وكأنّها قد شُلّت برعبٍ مجهولٍ، همّ الوصيُّ بأن يسبِقها عندما رأى بدورِه نذيرَ الشّؤم الذي يخشاهُ المحليّون أكثرَ من أي شيء آخر، الطّائر الذي يختلس الأرواحَ، البجعة السّوداءِ وهي تُرفرِف نزولاً نحو السّياجِ القرميديّ.

قبلَ أن يَدلِف داخلاً تضايقَ الوصيُّ من رائحةٍ قويةٍ، مزيجٌ من شحمِ الضّأنِ وأجسادٍ غير مغسولةٍ، ومن خوفٍ ـ غير مبرّرٍ، غير معرّفٍ ـ بأنَ تلك الرّائحة النّتنة وبشكلٍ ما كانت تعود لهُ، لتصرّفاتِهِ ومبادئهِ، كانت هذه الفكرةُ تردُ ذهنهُ أحياناً، هؤلاء النّاس الذين يحبّهم كثيراً ويحميهم من غزوِ المستعمرين البيض عديمي الرّحمة الذين يقومون بمطاردتِهم وإطلاقِ النار عليهم بالمرح ذاته الذي يصطادون به الكنغرَ وباهتمام أقلّ أيضاً، هؤلاء النّاس الذين قادَهم إلى نورِ الربّ كانوا يموتون بطَريقةٍ غريبةٍ بسببهِ، أدرك أنّها فكرة لا عقلانيّةٌ ومستحيلةٌ وأن مردُها هو الإرهاق لكنّه لم يتمكّن من إيقافِ عودتها مراراً وتكراراً. في أوقاتٍ كهذه كان يشعر بقدومِ الصُّداع، ألمٌ مبرحٌ في مقدّمةِ رأسِه يضطرّه للذّهابِ إلى فراشِه.

في التّشريحِ الذي أجراهُ كان يتفحّصُ مريئهم الممزّق، بطونهم المليئةَ بالغائطِ، أمعائهم المهترئة من الصّديدِ ورئاتهم الواهنة، باحثاً عن دليلٍ يدينهُ أو يبرّئهُ ولكنه لم يجد شيئاً، حاول أن يتقبل ككفارةٍ النّصفَ لترٍ من القيحِ الذي كان يبدو العلامةَ الوحيدةَ على الحياةِ في أحشائِهم السّقيمة، حاولَ أن يفهمَ معاناتَهم كأنها معاناتهُ هو، وفي اليومِ الذي تَقيّأ فيه لرؤيةِ عطنٍ بسُمك إنشٍ واحدٍ ينتأ من قرحةٍ تبدو كفوهةِ بركانٍ في إبطِ أحد المحاربين السّود وتمتدُّ حتى وِركه، حاولَ أن يرى الأمرَ وكأنهُ نوعٌ من التّطهير الروحي لسجلهِ، لكن التقيّؤ لا يمثلُ تطهيراً، في أعماقِ

قلبه خشيَ الوصيُّ أنّ لا شيء من التطهيرِ كان في عذابِه ذاك. في أعماقِ قلبه خشيَ أن تكون تلكَ المعاناةُ البالغة القسوةِ وتلك الميتاتُ الشنيعةُ كُلّها بسببِه.

فعل كُلَّ ما يستطيعهُ لإنقاذِهم في ظروفٍ كهذه ـ الربُّ يعلم أنه ما كان بإمكانِه أن يفعلَ المزيد ـ كان يعمدُ إلى تشريحِ كل جسدٍ لمعرفةِ سبب الوفاة، يستيقظ في وسط اللّيل كي يقوم بالحجامةِ، الفصادةِ، فَقْء الدماملَ وكما سيفعل الآن لوالد ماثينا، الاستِدماء.

فتحَ الوصيُّ سكّينهُ، بلَّلَ سبّابتَه وإبهامَه ومررهما على طولِ النّصلِ كي ينظّفَه من الدّمِ المتخثّرِ العالق به، وهو كُل ما تبقّى من «ويزي توم» على هذه الأرض. بدقةٍ وبشكلٍ علمي قامَ بشقِ رسغِ الرجل المرتعد بصورةٍ سطحيّةٍ إلى النقطةِ التي يسمحُ فيها بتدفق أكبر كمّيةٍ من الدّمِ مع أقل ضررٍ ممكن.

على ضوءِ الشّموعِ كل ليلةٍ قبل النّومِ، وهو ينتقي كلماتَه التي يدوّنها في يوميّاته، كان الوصيُّ يبحثُ عن الكلماتِ المناسبة وكأنه في حياةٍ أخرى كان قد صنع هيكلاً خشبياً ويقوم اليوم بتغطيتِه بما يلائمه من الكلماتِ، كان يبحثُ عن كلماتٍ مطولةٍ يستخدمها كغطاءٍ يسترُ بها بعض هفواتِه المحرجة وغير المبررة. ولكن الكلمات ضاعفت تلك العتمة التي يشعر بها، كانت تُغطّي ولكن لا تُفسّر، تحجُب ولكن لا تُوضِح، في أوقاتٍ كهذه كان يلجأُ إلى الصّلاةِ، التّرانيم، التسابيحِ المألوفة والنغماتِ المطمئنة، كانت تلك العباراتُ المبجّلةُ تسيطر على الموقف أحياناً، علِم وقتها لماذا كان ممتناً للربِّ ولماذا يخشاهُ أيضاً.

تدفق الدمُ كينبوعٍ حارٍ صغيرٍ وأصابَ الوصيُّ في عينِه ثم سالَ على وجهه، وضعَ سِكينه جانباً وتراجعَ خطوةً إلى الخلفِ، مسحَ عينه ونظرَ

نحو الأسفل، كان الرجلُ الأسودُ الهزيلُ يأنُّ بشكلٍ متقطعٍ الآن، أعجِب الوصيُّ بثباتِه، لقد تحمّل النزف كرجلٍ أبيضٍ.

ذلك هو «الملك روميو»، رجلٌ كان ودوداً ومفعماً بالحيويّة ذاتَ يوم، رجلٌ ـ الرّجل ـ الذي سبحَ في «نهر فوري» وأنقذهُ هو، الوصيّ، عندما زلّت قدمُه عُرضةً وهو يهُمّ بخوضِ المياه المتصاعدةِ، خلالَ ملامح البؤس المرتسمةِ على تينك العينينِ الغائرتين، الواسعتينِ بشكلٍ غير اعتياديٍّ، في شعره الباهت، لم يتمكن من تمييز أيّ شيءٍ مما كان عليه ذلكَ الرّجل.

ترك الدّمَ يتدفقُ لمدة دقيقةٍ جيدةٍ وتلقاهُ هو قدرَ استطاعتِه في كوبٍ معدنيٍّ صغيرٍ، عندما ازدادَ تدفُّق الدّم ناحَ الملك روميو متأوهاً بشكلٍ خفيضٍ، أصدرت النّسوةُ السوداوات المتحلّقات حول سريره بشكلِ هلال نواحاً مماثلاً من خلفِ حنجراتهنّ، علم الوصيّ بأنهنّ أكثر منه تأثراً.

عندما ربط جُرح الملك روميو كي يوقفَ سيلان الدّم أحسَ الوصيّ بحتميّةِ الوفاةِ وبلا جدوى علاجه فتملّكهُ الهلعُ، أدرك بأنَ الملك روميو يتنفّسُ بتثاقلٍ وبأن النّزف كان غير ذي فائدةٍ، وبأنه رغِب في قرارةِ نفسه في أن يؤذي الرّجلَ الأسود عقاباً له على مرضه العضال، عقاباً لهُ على كلِ أمراضِهم غير القابلة للعلاج، لفشلِهم في السّماحِ له بشفائِهم أو تهذيبهم وإعطائهم الفرصةَ التي لم يحفل أحدٌ غيره بإعطائها لهم.

غمغمَ شيئاً بخصوصِ ضرورةِ موازنة ديناميكيةِ الهواء الداخل والخارج ـ كي يطمأن نفسَه وكذلك ليقنِع جمهورَه بأن أعماله كانت كما هي دائماً موجّهةً بمزيجٍ صائبٍ من العلم العقلانيّ والعطف المسيحيّ ـ

قبضَ الوصيّ على ذراعِ الملك روميو، صرخ الرّجل الأسودُ من الألم هذه المرّة لأنه كان يقوم بطعنِه أكثر من كونِه يشُقّ ذِراعه.

ترك الملك روميو لينزف حتى تنَدّت بشرتُه بالعرقِ واستعادَ الوصيّ سكونه مرةً أخرى، ثم أوقف تدفُق الدّم وأعطى الكوبَ المملوء إلى إحدى نسوةِ الهلال مشيراً إليها بضرورةِ التخلّص منه خارجاً.

انتصبَ الوصيّ واقفاً، أحنى رأسهُ وابتدأ بالغناءِ

قُدني أيّها الضوءُ الرحيمُ وسط العتمةِ المحيطة بنا قُدني نحوَ الأمامِ.

كان صوتُه متهدّجاً وحاذاً، ابتلعَ ريقه وأكمل بنبرةٍ جهوريّةٍ أكثر عمقاً وأشدّ إصراراً.

اللّيل معتمٌ وأنا بعيدٌ عن المنزلِ قُدني إلى الأمامِ.

بدت النّسوة السّوداواتِ وكأنّهن قد انضممنَ إليه ـ بشكلٍ سيّئ، كان هذا صحيحاً ـ ثم أدرك أنّهن بالكادِ غيرنَ نواحَهُنّ الشّبيه بالعويلِ كي يتماشينَ مع ترانيمه.

لا تتذكّر السنواتِ الفائتة غنّى هو الآن وبأعلى صوتٍ لديه، لكنّه هو نفسه كان لا يتمكنُ أحياناً من محو الأعوامِ الماضيةِ، توقف في وسط الآية ـ لكنهُنّ لم يفعلن ـ أنزل كُمّيْه إلى الأسفل واستدار، فوجئ برؤيةِ مائينا تنظر إليه بعزم وكأنها قد آمنت للتوّ بأن لديه قدراتٍ سحرية كانت ترغب في أن تتكهنّ ماهيّتِها وفي عينِ الوقت ابتدأت تُشكّك في قابليّته على الشعوذة. وهو مشوّشٌ بحثَ عن نسقٍ جديدٍ من الكلمات كي يُهدّئ روعَه.

«الآن هو الوقت الذي سيجدُ فيه نظامُ الملك روميو الرئويّ توازنَه» بدأ الوصيّ «الذي سيترتبُ عليه الشِفاء... ذلك الدّمُ...».

نظرت ماثينا إلى قدميها العاريتين وكذلك فعلَ الوصيّ لثوانٍ معدودةٍ، شعرَ بالحرجِ ثم بخزيٍ لا يتمكن من تفسيره، نظر بعيداً ثم غادر الكوخَ نحو الراحةِ إلى هواءِ البحر البارد.

شعر بالغضبِ وغضبه ذاكَ أثارَ ارتباكه، كان هذا هو عملُ الجرّاح ولكن الجرّاح توفي بصورةٍ تعسةٍ قبل شهرٍ وقد يستغرق استبداله أشهراً عدة. وبقدر غضبه على الجرّاح نتيجة استسلامهِ للزُّحار كان يتميّزُ غيظاً من المحافظ بسبب عدم استبدالِه بسرعةٍ، كان فخوراً بقدراته كرجل طبٍّ، رجل يعرف كيف يقوم بالفصادةِ، بكشطِ الجروح، يتمكّنُ من إعداد الحقن الشرجيّةِ، يُشرّح الجُثث ويكتب تقارير وافيةً عنها، هو كشخصٍ عاديّ، كنجّارٍ، كشخصٍ معتمدٍ على نفسه، صنعَ نفسه بنفسِه وعلّم نفسه بنفسه كان يُجسّد الانتصارَ الحقيقيَّ للذات.

في فترة ما بعد الظّهيرة قضى الوصيُّ وقتهُ في إنجازِ ما ظنّه مشروعاً جيّداً، أعدَّ الخُطط لأجلِ مقبرةٍ جديدةٍ أوسع كي تتماشى مع نسبةِ الوفيات في المستوطنة، ذهبَ عِند الغسق إلى أرضِ المدفنِ القديم مع بعض السّكان المحليّين، طلب إليهم أن يخبروه بأسماءِ المدفونين، لكنهم أُصيبوا بالهلعِ لتسميةِ أيٍ من الموتى فاستاءَ من جحودِهم وقامَ بصرفهم.

عقدَ العزم على إنهاءِ أرضِ المدفن الجديد في وقتِ الزّيارة المُرتقبة لمحافظ «فانديمون» السيّد «جون فرانكلين» وزوجته السيّدة «جين» المتوقّعة خلال أسبوعٍ من الآن. كانت الرّياحُ تهُب من الجنوبِ ومع مناخٍ ملائمٍ كهذا سيكونُ من الممكنِ أن ينتهوا بوقتٍ أسرعٍ، كانَ السيّد جون رجلَ علمٍ، أحد مستكشفي العصر، رجلاً ذا مشاريعَ متعدّدةٍ سواءً

أكانت تتعلّقُ باستكشافِ البرّ الترانزسلفانيّ الشّاسع الواقع غربَ الجزيرةِ أم إنشاء مجتمعاتٍ مبنيّةٍ على أسسٍ علميّةٍ أم جمع القواقعِ والأزهار لأجلِ حدائق «كيو».

«نعم» فكّر الوصيّ وهو يقومُ بقياسِ أبعادِ المدفنِ «مقبرةٌ جديدةٌ، رفع مستوى غناءِ المحليّين للترانيمِ، كانت أهدافاً منطقيّةً» وسيتمكّنُ من إنجازها قبل زيارةِ ممثّل الملك، والأهمّ من كلّ هذا شعر الوصيّ بالزّهوِ لواقعيّته.

في ذلك المساء ألقى الوصيُّ محاضرته عن ديناميكيّةِ الهواءِ لجمهوره المتكوّن من الضبّاطِ وعوائلهم والسّكان المحليّين، بلغَ طولُ نصّه النهائيّ مائة وأربعاً وأربعين صفحة، شعر بأنهُ أبلى حسناً عندما قام بتعزيز حججه بالبراهينِ المنطقية وبعض التجارِب العملية أحياناً، كما فعل عندما قام بتسخين قنينةٍ على البخار المتصاعد من قدرٍ معلّقٍ فوق النّار وبإمساك القنينة فوق بيضة مسلوقة ومقشرة تم سحب البيضة إلى داخل القنينة.

ضحِك «ترويلس» عند هذه النقطة وقال بصوتٍ مرتفعٍ «قنينةُ وايباليناوبيضةُ الزّنجي»، أعطى ترويلس انطباعاً خاطئاً عن الغرض الحقيقيّ من ذلك الشّرح.

فيما بعد تشارك الوصيُّ قدحاً من النّبيذِ وبعض شطائر اللّحم مع الضبّاطِ، وكي يبرهن على أنهُ لا يتقبّل أي تمييزٍ بين البيض والسّود فقد تقاسم والسّكان المحليّين كوباً من الشّاي الذي قُدّم إليهم وشعر بأنّهُم قد استمتعوا به.

في الصّباحِ التّالي وُجِد الملك روميو ميّتاً، في الحقيقة لم يكن موته

غير متوقّعٍ أو غير مألوفٍ وعندما ذهب الوصيّ كي يتفحّص جثته شعر بالسّوءِ لاستحواذه عليهِ بتلك الطريقة المثيرة للشفقة. كانت المرأةُ التي عاش معها الملك روميو بعد وفاةِ زوجته قبلَ بضعةِ أعوامٍ في حالةٍ من الاهتياج المحلّي المعتاد، كانت تنوحُ كناقوسٍ يُقرع من قبلِ أحدِ المجانين، وعلى وجهها بدت خطوطٌ متعددةٌ من الدماءِ بسبب تعمدها جرح نفسها بجزءٍ من قنينةٍ مكسورةٍ.

مع ذلك، فقد بَدَت ابنةُ الملك روميو وكأنها تمتلكُ حسّاً مسيحيّاً أعمق، كان أساها الرّصينُ قد أعطى الوصيّ بعضَ الأملِ بأن عمله كان أكثرَ من مجردِ تبجح متزايد. كانت الطّفلة هادئةً جداً، تساءلَ هو هل من الممكنِ أن تكون استجابتها لفيضِ التمدّن أكثر مما تصوّرَه مُسبقاً.

بسبب انشغالهِ بتفحصِ جُثمان الملك روميو فقد تأخّرَ عن المدرسةِ التي يترأسُها، هذا التّقصيرُ في الانضباطِ جعله غاضباً من الرّجلِ الميّت، فعلى الرغم من كل ذلك كان المثالُ الجيّدُ هو كلّ شيء، لو كان هو، كقدوةٍ للآخرين مقصّراً في أيّ شكلٍ من الأشكال فكيف سيتوقّعُ من المحليّين أن يغيّروا تصرّفاتهم؟

فُسّر تأخيره من قِبل الحضورِ بشكلٍ خاطئٍ كقلّةِ التزام، استمروا بالكلامِ والضّحك حتى وهو يُخاطبهم، وجدَ نفسه حانقاً عليهم وبدلاً من استهلالِ الدّرسَ بالتلقينِ المسيحيّ ابتدأهُ بتوبيخِ صَفّه، هل سبق لهُ أن خدعهم؟ ألم يهبهم مأوى جيّداً، دافئاً مبنيّاً بطابوقٍ جديدٍ نوعاً ما؟ ملابس جديدة، طعامٌ وفير، ألم يعقد العزم على إعادة تنظيم موتاهُم ووضع الشّواهد فوقَ كُل ضريحٍ كي يعلموا أين دُفن كل شخصٍ؟

بعد غداءٍ خفيفٍ من لحمِ الطيور والخبز ذهبَ الوصيُّ إلى الكوخِ

المخصّص للجراحةِ والتّشريح، على مائدةٍ طويلةٍ من خشبِ الصّنوبر سُجّيَ جسد الملك رومبو. لاحقاً دوّن نتائج عمله كالتّالي:

«توفيَ من ضمورٍ شاملٍ في البنيةِ، الرّئتانِ ملتصقتانِ بالصّدر بشكلٍ مُحكمٍ وقد تطلّب الأمرُ قوّةً كي يتّم فصلهما، يحتوي تجويف الصّدر على كَمّيةٍ من السّائل، تم استخراج الرّئة المصابة، الطحال، الإحليل وكل المتعلّقاتِ الأخرى، وسوف تُنقل إلى مدينةِ «هوبارت» لتُفحص من قبل د. أرثر، كان رجلاً مثيراً للاهتمامِ».

بعد انتهاءِ التّشريح، أخرج الوصيّ من صندوقٍ خشبيٍّ منشاراً للّحم احتفظ به مشحوذاً خصيصاً لغرضٍ واحدٍ فقط. لقد فضّله لأن مِقبضه الأبنوس كان محززاً بغزارةٍ بشكلٍ مستعرضٍ ما يسمح له بإحكام قبضته عليه حتى عندما تكون يداه رطبتين ولهذا فهو يضمن عملاً أكثر إتقاناً.

كان على وشك البدء عندما طرق باب الكوخ، فتحه ليرى إحدى النّسوةِ المحليات «أفروديت» تتوسّلُ إليه أن يأتي إلى منزلِها، زوجها «ترويلس» تعرض إلى نوباتٍ متكررةٍ، خاطبها الوصيّ بألطفِ صوتٍ لديه، بصوتِ الرّحمة هكذا شعر، أخبرها أن تعود إلى زوجِها وبأنهُ سيأتي قريباً لإسعافه، أغلقَ البابَ وعادَ إلى الجُثمان، وضع حافةَ المِنشار بشكلٍ محددٍ على مؤخرةِ عُنقه.

هل أصبح إلهاً؟ لم يعد يعرِف، إنهم يستمرّونَ بالموت، كان محاطاً بالجثث، الجماجم، التّشريح، الإحصاءات وخُطط الكنيسةِ والمقبرةِ. كانت أحلامُه زاخرةً برقصاتِهم وغنائهم، جمال قُراهِم، خرير أنهارِهم، ذكريات رقّتهم ولكنّهم استمرّوا بالموت ولا شيء يفعلُه يُمكنه من تغيير هذا، استمرّوا بالموتِ والموتِ، وهو الذي عاشَ في عالمِهم القديم

وواصل العمل ليجعل هذا العالم الجديد مثالياً في تمدُّنه، في مسيحيته، في إنكليزيته، لقد كان حاميهم ولكنَّهم استمرّوا بالموت، لو كان هو إلهاً فأيّ إلهٍ سيكون؟

سحب المنشارَ باحتراسٍ على الجلدِ كي يحصلَ على خطٍّ أحمر يُستدلّ به وبعدها، يا لهُ من حرفيٍّ ماهرٍ، أكمل العمل بضرباتٍ عدّة طويلةٍ ثابتةٍ، أحصاها وهو يواصل، تطلب الأمرُ ستّ ضرباتٍ كي يفصل رأسَ الملك روميو. دقيقٌ كما هو دائماً، انزعجَ الوصيّ من إحساسِه بكون يديهِ لزجتينِ من الدِّماء.

٤

كما حدث، فقد قيلَ بأنّهُ أصبح أقل أهميّةً، أخبرها اللّورد «ماكاولاي» بأن روايته الأخيرة لم تكُن بأكثر من مأساةٍ اجتماعيّةٍ كئيبةٍ، كانت حبكتها غيرَ قابلةٍ للتصديق وقد خُرِبت كليّاً بطباعتِها الرخيصة، لم تكن قد قرأتها فهيَ تفضلُ الأدبَ الكلاسيكيّ على التّسليةِ، لم يكن هنالك من شخصٍ خالدٍ مثل «تاكيري».

تفحّصتهُ السّيدة جين فرانكلين وهي تتناولُ إبريقَ الشّاي فشاهدت رجلاً ضئيلاً يبدو مرهقاً أكثر من عمره المتوسّط لكنهُ ما يزالُ مرتدياً شعره المستعار وبقصّةٍ طويلةٍ متأنّقةٍ، كان شعرُه خفيفاً وأشيب، نحيل الجسدِ وذا وجهٍ مُجعّدٍ. كان السّؤالُ الحقيقيُّ هو، هل ستعيشُ كُتبه أكثر منه أم أنهُ سيعيشُ أكثرَ مِنها، وبالرّغمِ من هذا فما لبث حيّاً فهو سيبقى أكثر الكُتّاب شُهرةً في البلادِ. وطالما عاش فإن بإمكانِ رأيه أن يُغيّر حكوماتٍ بأسرِها وطالما يقوم بأخذ أنفاسه فسيكون أفضل حليفٍ قد تتمكّن من الحصول عليه.

«المزيدَ منَ الشاي؟» تساءلت.

وافق هو مع ابتسامةٍ. تجاهَلت أصابعَه القصيرةَ والبدينةَ وهي تلتقِط الكوب ـ وتبدو أكثر ملاءمة كما أحست لرجلٍ في البحرية أكثر من روائي ـ كذلك تجاهلت الملابس الفائقةَ البهرجةِ، المجوهرات الزّائدة

والطّريقة التي كان يبدو فيها وكأنه يفترسُها كما يفعلُ مع الكعكعةِ في عجالةٍ نهمةٍ تاركاً على شفتيهِ زبداً من الفُتات الأصفرِ والبذورِ السوداء. بدا لها كسلطعونٍ مُجعّدٍ ينظر إليها من صدفتهِ الملوّنةِ. كان كُل هذا غير ملائمٍ ولكن بسبب كونه من يكون فلم تتمكن من تجاهله.

«حليب سَيِّد ديكنز؟»

وهُنا في ذلك الصّباح الشتائيّ في لندن أخبرتهُ بحكايتِها وهي تصقلها بشكلٍ لامعٍ وتشحذها بدقةٍ. بحديثٍ لا ينتهي عن البعثةِ وهي مهمّةٌ يتجرّأ الإنكليز فقط بعظمتِهم على التّفكير فيها: يذهبون إلى حيث لم يذهب أحد للاكتشافِ على حافةِ العالم القاصية، الطّريقُ الذي حلِم به الرّجالُ لقرون عدّة، المعبرُ الشّمالي الغربيّ الإسطوريّ خلال الجليدِ القطبيّ.

على الرّغم من أن ديكنز كان يعرفُ كثيراً عن الأمر ـ ومن لم يكُن؟ ـ فقد أصغى بصبرٍ. تحدّثت السيّدةُ جين عن السفينتين الهائلتين «التيرور والأيرباس» وهما تعودان من رحلتهما البطوليّة للقطب الجنوبيّ مزودةً بأحدثِ الأعاجيب الهندسيّة: محركاتٌ بخاريةٌ، مراوح مثبّتةٌ بالبراغي، أغلفةٌ نحاسية، تدفئةٌ بالبخار وحتى أورغن أوتوماتيكي يعمل بالبخار يعزف ألحاناً معروفةً، ويعود الفضل في كل هذا للابتكاراتِ العصرية المتميزةِ، حملوا معهم كثيراً من الطّعام المُعبّأ في علب القصدير وقد تحدّثت عن كلّ تلكَ التّفاصيل للبعثةِ الأكثر تكلفةً وتميّزاً وقوّةً، والتي تمّ إرسالها من قبلِ البحريّةِ الملكيّة.

ولكنها ركّزت على معاييرِ اختيارِ الضبّاط والطّاقم فقد كانوا من أكثر الرّجال الإنكليز رفعةً في البعثة الجنوبيّة القطبيّة الاستكشافيّة ومن ضمنهم كابتن «كروزر» وقائده زوجها السيّد «جون فرانكلين»: بشخصيّتهِ

المُحنَّكة وإرادته النّبيلةِ الصّلبة، وقابليّته المتميّزة على القيادةِ ومساهمته البطوليّة والاستثنائيّة في استكشافِ القطب، وتجسيده كلَّ الفضائلِ في الحضارة الإنكليزيّة، ولكن لم يُسمع عنه شيءٌ وعن رجاله المائة والتّسعة والعشرين الذين أبحروا إلى منطقةِ القطب الشماليّ قبل تسعة أعوام.

«لذلك لم يكن غريباً أن يستحوذ هذا اللغزُ على مخيلةِ العالم المُتمدّن» قالت السيّدة جين وهي تحاولُ ألا تشتّت انتباهها بصوتِ امتصاص ديكنز للسانه بتركيزٍ غريبٍ «كيف بالإمكانِ أن يختفي هذا العددُ من الرّجالِ المتميّزين من على وجهِ الأرض كُل هذه المدّة من دون أثرٍ؟».

وهو جالسٌ هناك سيطرت عليهِ رؤيا لا مفرّ منها كطلسم، كلغزٍ، كتوضيحٍ أو حجر ممغنط ـ السّفينة المتجمّدة تستلقي بزاويةٍ غير طبيعيّةٍ ترتفع نحو الأعلى وجانباً بواسطة الجليد، جدرانٌ بيضاءُ هائلةٌ تنتصبُ خلف الصّواري الغاطسة.

لمعانُ ضوءِ القمر فوقَ الثّلوجِ اللاّمتناهيةِ، الصّوت البائسُ للرّجالِ وهم ينتحبونَ ويترددُ صدى موتهم عبر المدى اللاّنهائيّ من البياضِ المتطايرِ، في تخيّلاته المهلوسةِ الغريبةِ تلك كان لدى ديكنز شعورٌ غريبٌ فقد رأى نفسه كجليدٍ عائمٍ، ثلج متساقط، كأنّه هو كان عالماً متجمّداً بلا نهايةٍ ينتظرُ الخلاص المستحيل.

«العظماءُ أمثال السيّد جون يأتونَ مرةً واحدةً في الحياة» قال وهو يرغب في انتزاعِ هذه الرؤى المريعة من ذهنهِ الخصب. «ماجيلان، كولومبس وفرانكلين إنهم لا يتلاشون لا من الأرضِ ولا من التّاريخِ».

بالإضافة إلى امتلاكِها رائحةَ فمٍ كريهةً، كانت السيّدة جين فرانكلين تمتلكُ معارفَ نافذين كانوا يخشَونَ سطوتها.

لم يكن ثمّة حدودٌ لانتصاراتِها، قيلَ إنّها كانت امرأةً ذاتَ جاذبيّةٍ آسرةٍ، ولكن بالنّظرِ إليها الآن في ذلكَ الصّباحِ تمكّن ديكنز من رؤية القليلِ فقط من كل ذلك. عِوضاً عن رداءِ الأرملةِ الحزين كانت ترتدي فستاناً أخضر وأرجوانيّاً، تتدلّى على مقدّمته قلادةٌ لامعةٌ تظهر السيّد جون على رقعةٍ من الخشب الأبيض ـ لمسةٌ غريبةٌ أشعرت ديكنز بأنّ السيّد جون كان فعلاً رجلاً جليديّاً.

«ما كل هذه البهرجة، لقد كانت أشبه بمحطةِ إشاراتٍ ملوّنةٍ أكثر من كونها سيّدةً من المملكة»، لاحقاً أخبر ديكنز صديقه ويلكي كولينز «إنها تخبر لورداتِ البحريّة وسيداتِ المجتمع شيئاً واحداً، واحداً فقط: زوجي ليس ميّتاً. هل هذه طريقة يائسة أم ورعة للإعلان عن الولاء الزّوجيّ؟» أضاف ديكينز.

على الرّغم من هذا لم يكُن هناك من أحدٍ عَصِيٍّ عن رسالتِها تلك، كيف بإمكانهِ أن يُنكر ذلك؟ وهي تتحدثُ عن علاقاتِها الشخصيّةِ مع السّلطات العليا ليس في إنكلترا فقط ولكن حولَ العالم. كُل شخصٍ من موسكو وحتى مليونيرات السّكك الحديديّةِ في أمريكا قاموا بإرسالِ بعثاتِ إنقاذٍ وكل بعثةٍ عادت بلا شيء.

حافظت السيدة جين إلى حدّ الآن على حُبها الحازم ورفضها لتقبُّل ذلك اللّغز كمأساةٍ. لا شيء يرفعُ المرأةَ عالياً في عيون المجتمعِ الإنكليزيّ أكثر من رفضِها الغرقَ في الحزن، وعلى الرّغم من أن زوجَها كان قد غادر قبلَ تِسعة أعوامٍ ـ ثلاثة أعوام من الطّعام والاهتمامِ الواسعِ ـ فإن المجتمع الإنكليزيّ سُرّ بإمكانيّةِ وجود مصادفةٍ كهذه، ثم وافقوا على كونها حقيقة.

كان المجتمعُ الإنكليزيّ متأكداً أنه لم يكُن هنالِك من سببٍ «نهائيّ» يُثبت أن السيد جون ـ كرجلٍ إنكليزيٍّ عظيم في البعثة الجنوبيّة ـ لم يتمكن من تحمُل الظُروفِ التي يعيشُ فيها معظمُ البرابرةِ.

«والآن هذا» قالت السيّدة جين فجأةً وقد أصبحَ صوتُها بارداً كجليدِ القطب وهي تلتقطُ من على حافةِ الطّاولة صحيفةً مطويّةً وتُسلمها إلى ديكنز «أنا أكيدةٌ أنك قد قرأتها».

لم يكن قد قرأها لكنهُ بالتأكيدِ كان قد سمِع بها، كانت صحيفة «الألوستراد لندن نيوز» وهي تحتوي على مقالةٍ تحمل كثيراً من الإشاراتِ بالحبر الأخضرِ، كانت عبارة عن تقريرٍ من قِبل المستكشف القطبيّ الدكتور جون راي تتحدثُ عن الاكتشافاتِ المميزةِ والمروّعة التي توصلَ إليها في أقاصي القُطب. انتشرت الأنباءُ المريعةُ حول لندن، أدهَشت أوروبا وأذهَلت الإمبراطوريّة.

«إنها تبدو كاحتماليةٍ شنيعةٍ» واصلت السيّدة جين «من الدّلائلِ التي قدمها الدكتور راي والمزاعم المؤكّدة المتحصّلة من الرّفاتِ التي أُعيدت إلى الوطن، ساعاتٌ مكسورةٌ، بوصلاتٌ، تيلوسكوباتٌ وسكاكين جراحية، كثير من الشوكاتِ والملاعقِ الفضيّة التي تحمِل شارةَ فرانكلين وصحنٌ فضيّ صغير حُفرت عليهِ الأحرُف الأولى من اسم السيّد جون فرانكلين بدا أن كل مَن في البعثةِ قد هلَك بشكلٍ ماسأويٍّ ـ لم تُنكر السيّدة جين هذا ـ ولكنها تبقى فرضيّةً فقط حتى يبرز دليلٌ قاطعٌ عليها».

كرجل صحافةٍ محنّكٍ وجد ديكنز أن الجرائد ليست بمرضيةٍ أكثر من الخيال. قرأ الافتتاحيّةَ بسرعةٍ. لقد ذُكر أنّه بعد كثير من المغامرات قابل الدكتور راي سُكان الإسكيمو الذين يمتلكون معلومات مؤكدة عن بعثة

فرانكلين وبعد العديدِ من المقابلاتِ الدّقيقة توصّل راي إلى نتيجةٍ مرعبةٍ التقطت عينا ديكنز عبارةً كانت مؤشرةً بالخطِ الأخضر، كانت تلك العبارةُ هي ما قرأها بسرعةٍ وتمعّنٍ، «ولكن هذا؟» قالت السيّدة جين أخيراً «إنه لا يُحتمل» لقد كان أمراً مروّعاً.

«من الحالةِ التي وُجِدت عليها الجثثُ والمكوّنات التي عُثر عليها في القدور». قرأ ديكنز مرةً ثانيةً وهو مُعجب بالتّفاصيلِ الدّقيقةِ عن القدور «لقد أصبح واضحاً أن رجالنا الأشقياء قد انساقوا في النّهايةِ إلى البديل المريع ـ التهام لحوم البشر ـ كوسيلةٍ للبقاء».

«إنها كِذبة» قالت السيّدة جين «محضُ هراءٍ وكل الغرضِ من ذلك الترويجِ المريع هو تشويه ذِكرى هؤلاءِ الأبطال الإنكليز».

وهو يعيد الصّحيفة إليها تأملّ ديكنز وجهَها برويّةٍ.

«لو هلَك زوجي فهو لا يمتلكُ أحداً سِواي لإنقاذِ شرفه من هذا الافتراء ولو كان على قيدِ الحياة فكيف سيكون بإمكانِنا أن نسأل أصحاب النّفوذ من أجلِ مساعدةٍ إضافيةٍ للبحث عنه لو أُذيعت كلماتُ الدكتور راي؟».

وللمرةِ الأولى أدرك ديكنز الآن أن غرضَها الرئيسي من طلبِها مساعدَته هو الانتقاصُ من الدكتور راي وتقريرِهِ ذاك.

أرادتهُ السيدةُ جين أن يضعَ حداً لتلك الإشاعاتِ الرّهيبة عن السيّد جون وهو يلتهِمُ أتباعه. «حسناً» فكّر ديكنز وهو مستمرّ في الإصغاءِ «لا بدّ له من أكلِ شيءٍ ما، كي يُحافظ على جسدِه الضّخم».

«أنت تتفهّم سيد ديكنز السؤال الذي يطرحُ نفسه».

«أنا أتفهّمُ سيدة جين».

وهو قد فعل هذا حقيقةً، تِلك المرأةُ الشّهيرةُ أرادت مساعدتهُ هو،

الذي عرف هذا العار قبلاً بكونهِ ابنُ شخصٍ سُجِن بسببِ ديونه، هو المؤلّفُ الهاوي، المجازفُ الذي حالفه الحظ. لقد صنع من نفسهِ شيئاً ما، بل كل شيء وبكلماتِ السيّدة جين تحديداً امتلك الإثبات الذي لا يقبلُ الإنكار، سيّدةٌ شهيرةٌ من المملكةِ تلتمِس منه ما لا يمتلكه المتنفذون، هو ابنُ المدينِ سيُصبح الدائن.

«هل يُعتبر الجُرذ الخبيثُ شاهداً صادقاً؟»

«بالتّأكيد» قالت السيدة جين بعد توقفٍ قصيرٍ «هذا هو الأمرُ بالتحديد» ثم توقفت وتاهت بعيداً، تحدثت وكأنها تروي فكرةً خياليةً خبرتها بطريقةٍ مؤلمةٍ.

«الجرذان كما تعلم تمتلِك المَكر» قالت ببطءٍ «لكننا لا نعتقدُ أن مكراً كهذا يتفقُ مع الإنسانيّةِ أو التمدُّن. بينما تتمّ مكافأتهم فإنهم يدّعون شيئاً واحداً فقط وهو مقدرتهم على الخداعِ الجسيم للـ...».

انساقت السيّدة جين نحو شعورٍ عميقٍ غير متوقعٍ والذي جعلها تتلعثمُ لدقيقةٍ، ظنَّ ديكنز أن مردَّ هذا هو الحزنُ على زوجِها، تأثر ديكنز بما بدا له بأنهُ أكثر المشاعرِ صدقاً التي أظهرتها السيدة جين حتى الآن.

شاهد شيئاً سماويّاً أو ربما تافهاً، عرضها لأمجادِ زوجها، جزءٌ منه ازدرى تلك الحماقة ولكن جزءاً آخر منه رغِب في الاشتراكِ بها، رتق الثقوبِ المسرّبة، دعم وصقلُ تلك القصة غير الممكنةِ عن العظمة الإنكليزيّة والعطف الإنكليزيّ.

«أنا فعلتُ ما...» ابتدأت ثم توقفت للحظةٍ تصوّرت أن أحداً ما أو شيئاً ما كان يجذِب تنّورتها، استدارت في مقعدِها وهي تتوقّعُ أن ترى فتاةً صغيرةً بفستانٍ أحمرٍ ولكن لم يكن هنالك مِن أحد.

كتبت لها صديقةٌ قبل أعوامٍ عدة من أرض فانديمون تخبرها بما انتهت إليهِ ماثينا.

تمنت السيّدةُ جين أن تقف، تاقت إلى أحدٍ، أي أحدٍ يهدّأ روعها، يُسكّنها ويواسيها. كانت تتمنّى أن يُمسك بها أحد، رغِبت في أن تشعر بثوبِها وهو يُسحب. شاهدت رداءاً أحمر، ببّغاء طليقاً، أبوسوماً وأفاعي. عندما كانت طفلة كانت ترغبُ في أن تُعرف بلطفِها، هي لم تكُن لطيفة لقد تعثرت خلال ذلكَ الطريقِ الطويل، تذكرت رقة تلكَ العينين الداكنتينِ، المنظر الذي كان يُغضبها ذات مرةٍ يحثُّها الآن إلى الأمام، منظرُ القدمينِ الحافيتين.

«قدرُهم» استكملت حديثَها «يُمكن أن يُعترض بالشّفقةِ ولكنه أبداً لن يتغيّر».

«أنا وحيدةٌ جداً» فكرت «تلك الأقدامُ السوداءُ العاريةُ» لقد أحرقت تلك الرّسالة ثم فعلت شيئاً ليس من عادتِها فعله، لقد بَكَت.

نظرت نحو الأعلى، كبَح رأسُها قلبَها الطّائش الذي ذاتَ مرّةٍ وقبل فترةٍ طويلةٍ سبَّبَ لها تلك المشكلة، لكنها خَشِيت أن يراها الروائيُّ العظيم كعجوزٍ حمقاء، أرادت أن تتماشى كلماتُها مع المنطق السّليم «أنا أمتلك خبرةً مع هؤلاءِ القوم» قالت السيّدة جين أخيراً وقد اخشوشن صوتُها فجأةً «ليس الإسكيمو ولكن برابرةً مماثلين قبائل الفانديمون».

ـ «أكلةُ لحومِ البشر» قاطعها ديكنز.

تذكرت السيّدةُ جين رؤيتها تلك الطّفلة القذرة للمرةِ الأخيرةِ وهي وحيدةٌ في الباحة الموحلة. شعرت بأنّها تُعتصر ألماً ولكأنها أسيرةُ عقابٍ مروّعٍ أو انتقامٍ سيستنفدُها كما فعل الجليدُ مع زوجِها، أجبرت نفسها على الابتسامِ مرة أخرى.

«زوجك» قال ديكنز «لن أتمكنَ من استيعابِ معاناتكِ الرهيبة...».

«كلا» قالت «ليس الأمرُ كذلك» ثم توقّفت، تخيّلت أنّها تشُمّ رائحة حجارةٍ رطبةٍ «إنّه صعبٌ» لكن ما الذي كانت تقوله؟ وبالرّغم من هذا فقد واصلت وهي تُحاول أن تُسبغ على كلماتها التي بدت هشّة نوعاً من التّأكيدِ والمصداقيّة «من المستحيل أن نصل إلى استنتاجٍ بناءً على كلام شخص ينحدر من البرابرة بالطّريقةِ التي يختلفون فيها عنِ الرّجل الأبيضِ الحازم».

«أنا ألتمسُ القول» قال ديكنز باسماً «أنا أقلُّ الأشخاصِ إيماناً بنُبلِ هؤلاء البرابرة».

«بالطّبع هذه الأشياءُ ليست مجهولةً حتى للرجالِ البيض، فبعد كل شيء كانت هنالك حالاتٌ من التملصِ من الإدانة بجرائمِ التهام أحدهم للآخر في أرض فانديمون، لكنهم كانوا رجالاً مجرّدينَ من الإيمانِ، أسوأ مائةَ مرةٍ من البرابرة الوثنيين لأنهم ارتدّوا عن الطريقِ، أنت تفهمُ، سيد ديكنز، أنَّ المسافةَ الفاصلةَ بين التمدنِ والوحشية هي...».

ولكن ألم تقُل هي تلك الأشياء من قبل؟ شيءٌ ما بدا غير صائبٍ ـ حسب استنتاجها أو ذكرياتها أو كيف تصرفت ذاتَ مرّةٍ عندما شعرت على غير العادة بأنها باهتةٌ وتائهةٌ... أنقذها ديكنز.

«المسافةُ هي، سيّدتي، الطّريق الذي قطعناهُ بين الرّغبةِ والعقل» لم يقُم بإخبارِها بأن حياتَه كلّها كانت درساً موضوعيّاً للسيطرةِ على رغبةٍ واحدةٍ وهي ما قادتهُ إلى الجلوسِ هنا في ذلك اليوم.

«أنا أختلفُ كُلياً مع هؤلاء الذين يقولون بأنها مسألةٌ علميّةٌ» قالت السيّدة جين «وليس شيئاً مرتبطاً بالرّوح»، انتصبت واقفة وتوجهت نحو الخزانةِ وأخرجت منها صندوقاً خشبيّاً ثم وضعتهُ على الطاولةِ

الماهاغوني التي تحولُ بينَها وبين ديكنز، أزاحت غطاءه، كان مغلّفاً بلبادٍ أحمر وقد استقرّت بداخله بضع رسائل مطوية وجمجمةٌ مصفرةٌ.

«لقد كان ملِك الفانديمونيين البرابرة، سيد ديكنز لقد أريتُها لكثير من الأساتذة وعلماء الدّماغ، وجدَ بعضهم في شكل الجمجمة علامات لا تقبلُ الشك على الانحدارِ وأخرى تدُلّ على النّبلِ، إنها تبدو الاثنين معاً».

«المُدانون، الإسكيمو، البرابرة كانوا مُستعبَدين كُلّهم ليس بالعِظامِ التي تُحيط بدماغِهم» قال ديكنز وهو ينحني لإعادةِ الغطاء «بل بغرائزهم»، رفع يده بزهوٍ كما كان يفعل وهو يُمثل «رجلٌ مثل السيد جون كان منعتقاً من شيءٍ كهذا بروحهِ المسيحيّةِ المتمدّنة».

«بالضّبط» قالت السيّدة جين.

«بالنّسبة إلى البربريّ النّبيل فأنا أعتبرُه مصدراً للأذى الكبير ولا أحفلُ ماذا يظنُّ بي هو، إن الأمرَ سواسية بالنسبةِ إليّ، سواءَ أكان يطهو أخاه في قدرٍ أم يرتدي زي فُقمة، بإمكانهِ الرُّكون إلى أي شغفٍ يرغب فيه ولكن لذلك السبب بالذّات فهو بربريّ ـ حيوانٌ متعطشٌ للدِماء والذي تنبع متعته الرئيسة من الحكايات المُستندة إلى الخرافاتِ والأكاذيب».

«تقول أكاذيبَ سيد ديكنز».

«أقولُ إنها أكاذيب مريعةٌ بائسةٌ ومقرفةٌ سيّدة جين، لدينا هنا سلالة من اللّصوص والقتلة وآكلي لحومِ البشر وهي تزعُم بأنَ أكثر الرّجال الإنكليز رفعةً قد استحالوا إلى لصوصٍ وقتلةٍ وآكلي لحومِ البشر، إنها حقاً لمصادفة متميّزة».

«إن لديهمّ أدلةً سيد ديكنز» قالت السيّدة جين.

«محضُ لصوص وقتلة يقدّمون براهينَهم اللعينة عن القتلِ والنّهبِ، وما الذي يُمكننا فِعله؟»، قال ديكنز وهو يتناول صحيفة «الالوستراد

لندن نيوز» ويلوّحُ بها كما يفعلُ البرلمانيّون بينما حسمت ابتسامتهُ المنتصرة الأمر بامتيازٍ «ننشر قصة براءتهم، هذا هو الأمر».

فيما بعد وهو يهُم بتقبيل يدِها المبقّعة ببقعٍ أُرجوانيّةٍ سألَتْهُ السيدة جين «هل يمتلك المقدرةَ على التشكيكِ بتلك الحكاية؟».

«كل ما أعرفهُ أنني في خدمتكِ» أجابَ ديكنز بذكاء، ولكن حالما أُغلق دونَه باب منزل السيّدةِ وواجه ذلكَ الصّباح الكئيب حيث كانت ذرات من السّخام تدور حوله كثلوجٍ سوداء، لا شيء يبدو واعداً.

أكمل طرَيقَه من ساحةِ بول بمركبةٍ أنيقةٍ عِبر الوحلِ والطّبقاتِ المتراكمة لغائطِ الكلاب والخيولِ. كان النّاسُ يتلاشون جيئةً وذهاباً من الضّبابِ القذر كوحوشِ المستنقع، كالأشباحِ، خرقٌ قذرةٌ تُغطي وجوهَهم كي تُبعد عنهم وباءَ الكوليرا الذي حصدَ أرواح ستمائة شخصٍ خلال شهرٍ واحدٍ فقط. بدت لندن نتنةً وقاتمةً، سوادٌ في الهواء وسوادٌ في عينيه، سوادٌ في روحه وهو يتمنى أن يرى البياضَ لمرةٍ واحدةٍ فقط، وهو يشقُّ طريقهَ إلى منزله.

في صباح ذلك اليوم من عام ١٨٥٤ كانت العائلةُ هي كل شيء ـ عائلات متشابهةً ومختلفةً، عائلات سعيدةً وأخرى تعيسةً ـ من فئاتٍ ومقاطعاتٍ مختلفة انطلقت قُدماً كقطارٍ بخاريٍّ بصورةٍ غير متوقّعةٍ ولا يُمكن إنكارها. توجّب على كل شخصٍ أن يكون ضمنَ عائلةٍ ما وكُلهم احتفلوا بعائلاتهم تلك، سواءَ أكانت الملكةُ وشريكها أم عُمّال المصانع الأشدُّ فقراً. كل شخصٍ يجب أن ينتمي إلى عائلة ولهذا وكأيّ مرحلةِ ازدهارٍ فقد ظهر سماسرةُ العائلات أسوةً بسماسرةِ السّكك الحديد. بعضهم قامرَ على هذا الأمرِ بجرأةٍ وتكسّب بشكلٍ أنيقٍ كالسيّدةِ جين مثالُ الزّوجةِ المتفانيةِ أو ديكنز الشّاعر الأُسري، لكن الاحتفال بالعائلة شيء والعيش فيها كان شيئاً آخر تماماً كما أدركَ ديكنز.

كانت تمطرُ بشدةٍ وقد أصبحَ اليومُ أكثر كآبةً، ربما لأنه شعرَ على الأغلبِ بوجود شيءٍ أشبه بالفشلِ يُطارده كظلّهِ ولأنّهُ رغِب بالضوء واحتاجَ إلى معرفةِ أنهُ ما يزالُ يتقدّمُ نحو الأمام في كل شيءٍ، شعر بالبردِ وكان البرد يتنامى بداخلهِ. في ذلك المساء اقترحَ على زوجته «كاثرين» بأن يذهبوا في إجازةٍ إلى إيطاليا الشهر المقبل لكنها لم تكُن ترغبُ في هذا، كان لدى الأطفال التزاماتٌ من نوعٍ أو آخر بالإضافةِ إلى وضعها الشخصيّ، فبعد عشرة أطفالٍ لم يعد السّفر اقتراحاً مُحبّذاً.

توقّفت كاثرين وغادرت مُغضبة بعدما أبدى ديكنز تعليقاً بريئاً حول وزنِها والذي كما يقول هو أصبحَ حقيقةً لا مفرّ منها. وِفقاً لما قالته ابنتهما «كايتي» التي اندفعت إلى الدّاخلِ بعدها بقليل، وهي مستاءةٌ منه ومن كلّ المنزلِ البائسِ الذي كان عليهم أن يتشاركوه مع الأطفالِ، الخدم، الكلابِ والطيور، فقد ذهبت أمّها إلى فراشِها الآن.

«فِراشُها» فكّر ديكنز وهو يستديرُ نحو كايتي مراراً وتِكراراً، إنها تعودُ إلى فراشِها بعد كل جدالٍ بينهما، حيث تستلقي هناك ككومةٍ عاليةٍ مغطاةٍ بلحاف الرّيش، بعينين لزجتين ونحيبٍ صامتٍ. في آخر مرةٍ تجادلا فيها كان ديكنز قد احتجّ على أمرٍ ما ثم اعتذر، وعندما امتلك الجرأةَ الكافيةَ، قام بلمسِ جبهتها ووجنتيها وشفتيها ـ لكنها انتفضت ولكأنّها عُضّت من قبل كلبٍ مسعورٍ، هذه المرّة لم يفعل شيئاً وهو يقوم بموازنةِ خياراته ويكتشفُ بأنه لا يمتلكُ أياً منها، بأنهُ وبطريقةٍ ما كان شيءٌ قد كُسر ولن يتمكّن كلامٌ أو تصرّفٌ من إصلاحه.

ذلك الأمرُ الذي أدركه ديكنز كان قد شعر بهِ كلُ من في المنزل بأسى، المنزل الذي تتناسلُ فيهِ النِزاعات ـ بين الأب والابنة، بين الكبير والصغير، بين الخادم والمخدوم ـ المنزل بأكملِه كان مسكوناً بروحٍ

شقيةٍ، حتى الأثاثُ بدا وكأنه يحمل ضغينةً ضد الجُدران. لا يبدو أن ثمة نهايةً لهذا البؤس، وبشكل مستحيلٍ فقد استمرّ كل شيءٍ واستمرّ. في تلك اللّيلة وبدلاً من العِراك مع زوجته كان ديكنز منكسراً لأنهُ أدرك بأنهُ يفتقرُ حتى إلى الشّغفِ لمواصلةِ الجِدال.

عوضاً عن الذّهابِ لرؤيتها فقد ارتدى مِعطفه، كان قد غادرَ نفسه قبلَ فترةٍ طويلةٍ إلى كاثرين، لكنهُ الآن يهربُ من كاثرين إلى ذاتهِ. في ذلك الوقتِ كان يحتاجُ إليها، غمرَ كيانَه بها ليحمي نفسه من كلِ ما كان يجولُ في رأسهِ من أفكار، لقد تخلّى الآن عن كل تلك الأفكار ودفنها في نشاطاتهِ الخارجيّةِ المتواصلة. قيلَ بأنه كان قد تزوجها رغماً عنه، لكن أي انتقادٍ قد كان صحيحاً بالفعل، لقد كان يُحبّها. لكن وجودها حولَه الآن يستحثُ فيه غضباً غير مبررٍ. هو يُفضّل الآن أن يمشي إلى نهايةِ الأرض ثم يقفلُ راجعاً عوضاً عن قضاءِ ليلةٍ واحدةٍ في الفِراش مع زوجته.

لم يكن يطيق بؤسَها ولا فتورَها، لم يتمكّن من مُسامحتها على الطّريقةِ التي تراجعت فيها عن واجباتها المقدّسة كزوجةٍ وكأمٍّ وخضعت لذلك الكسل الذي يبدو أنّه يصبحُ أسوأ فأسوأ بعد كلِ ولادةٍ ـ والتي من المُفترض أن تكون مدعاة للبهجةِ وليس للقنوطِ، كيفَ أنها أصبحت أكثر بدانةً وأشد غباءً كل يومٍ. لماذا استسلمت للحياةِ المنزلية، ولماذا كان ردُّ فعله هو الاستخفافُ والغضبُ ومزيدٌ من الغيابِ. أسوأ ما في الأمر أنهُ كلما ازدادَ هو استيعاباً للوضعِ ازدادت هي انحداراً، وكلما خنعت أكثر تعاظَمت إدانتهُ لها، لقد كانَ هذا كلّه هو خطأها هي. هل بالإمكان أن توجد روحان أقل ملاءمة لبعضهما البعض منهما معاً؟

شرعت خيالاتهُ في إعادةِ تشكيل «الأيرباس والتيرور» وقد ألقاها

الجليدُ جانباً بينما رسمت صواريها خطوطاً مائلةً فوق الأعماقِ المنجمّدة، كانت الرّيحُ تعزف ألحاناً جنائزيّةً على الحِبال المتجمّدة، الجليد، البرد والرّيح العاتية: كل هذا كان هو، وكان في عينِ الوقت أسيراً بداخله طِوال عشرين عاماً، ألم يكُن زواجه شبيهاً بذلكَ المعبر الشماليّ الغربيّ الخرافيّ؟ مجهولٌ لم يتُم اكتشافه بعد، مسوّرٌ بالجليد ومفضٍ إلى الحبّ، كان قُبالةَ عينيهِ دوماً وبالرّغم من هذا لم يكن المرور خِلالهُ ممكناً.

قرر أن يذهب إلى الخارجِ، كما يفعل دائماً، يقضي اللّيلَ بالتّجوالِ. كان المشي بالنّسبة إليه صماماً للضغطِ وكان هو الماكنةُ البخاريّةُ التي ستنفجرُ من دونِه. ينظر، يفكر، يرتجلُ المشاهدَ التمثيليّة، يتدرّبُ على الحوار المنفرد، المناجاة الفرديّةِ والحوارات الثنائيّةِ، ويبتكرُ الحبكات، كان يمشي لأميالٍ وأميالٍ، عميقاً نحو المتاهات الغامضةِ لأعظم مدينةٍ في العالم. الزحامُ، الأكواخُ، الزعيقُ والنتانةُ ملأت كيانَه، كان يستمرُ بالمشي خلال رغوةِ المعادن القذرةِ اليوميّة والتي تدورُ في رأسهِ ثم تستحيلُ إلى ذهبٍ خالصٍ في مُخيلته، كان يُحب أن يُراقب، يحاكي، يتذكّر ويجمعُ ذلك كله في مزيج واحدٍ، عظيم وموحل كالشوارعِ التي يتجوّل فيها الآن، وهو يعلم أن لا شيء يحدثُ مصادفةً وكل شيءٍ يحدث لسببٍ ما، ولكن الآن كانت ثمة عزلةٌ تلفه.

كانت تلكَ البراعمُ - كما يُسمي ويلكي كولينز نساءَ اللّيل - تتفتحُ عندما كان يتجوّل مع صديقهِ في المسارحِ والشوارع، لكن هل سيكون هذا كافياً، بطريقةٍ يجهلها ولسببٍ ما، لم يتمكن من العثورِ على كلماتٍ لم تعد موجودةً أصلاً.

على الرّغمِ من مُحاولاته الكثيرةِ لكبحِ تلك الفكرة الخطرة، غير

المهذبة لكنه كان يرغبُ في شيءٍ أكثر، ما الذي كان يُريده لم يتمكن من قولِ ذلك.

شعر بوجودِ ستارة تفصله عن عالم آخر، عالم كان قد زاره في شبابه لعدةَ أعوامٍ: عالم من المِهرجانَات، مع كل تلك الحلقات المستديرةِ اللامعة في خيمةِ السيرك التي سُمح له بدخولها لمدةٍ قصيرةٍ فقط، كما أصبح سيداً لحلبتها لمدةٍ أقصر قبل أن يُطرد مرةً أخرى إلى عتمةِ الليل. كان مذعوراً وهو خائفٌ من تلاشي نورٍ ما لا يمكنه وصفه كان قد أنارَ عالمه ذاتَ مرّة.

عند نقطةٍ معيّنةٍ أدرك أنه سيعودُ إلى منزله وإلى شخيرِ كاثرين، كان يستسلم لغفوةٍ غريبةٍ تتماشى مع تجواله وهو نِصفُ نائم، وتستحوذ عليه أكثر الأحلام غرابةً. سوف يشعرُ بالتّحسن بشكل تدريجيٍّ عندما ستخاطبه شخوصه، عندما سيتمكّن من إدراكِ الشيء الآخر عدا الهواء الذين يرغبون في تنفّسِه.

بعد ساعاتٍ قصيرةٍ من النّوم، كان سيستيقظُ قُبيل الفجر على صوتِ العربات المحملة بالبضائعِ وهي تتوجهُ نحو السوق، وأصواتُ الشوارع تحت غرفته كانت تجلِبُ لهُ السّكينة، بأعجوبةٍ ما لم تتوقف الحياة، وعندما كان يعودُ ببطءٍ إلى رُشده كان يشعر مرةً أخرى بتدفقٍ هائلٍ من الرّاحة حتى في السّاعات القصيرةِ التي غفا فيها، استمرّ العالمُ المدهشُ بالدّورانِ وهو بصُحبته.

«إنهُ ليسَ خطأها» سمع كايتي تقولُ من خلفهِ حالما همّ بفتحِ الباب الأماميّ.

مندهشٌ من مُخيّلته، استدارَ ونظر إليها، كانت في الخامسةَ عشرةَ ذات جمالٍ أسمر ومثلُه أيضاً قويّة ومتهوّرة. كان يُحبّ كل أبنائه ولكن

مع كايتي، فقد كان هناك تفاهمٌ مشتركٌ بينهما، كانت تتحدّث إليه بطريقةٍ لا يجرؤ عليها أحدٌ آخر.

«موت دورا ذاك، لقد كانت رضيعةً، لقد فعلت أمي كل ما في وِسعها».

«بالتأكيد» قال هو وبأرقّ نبرةٍ استطاعَ عليها «بالتأكيدِ لم يكُن خطأ والدتك».

«سيّدي، إن شعلةَ النبوغِ الخالدِ تشتعلُ في صدره».

كان «ويلكي كولينز» يقول «لجون فورستر» في «الكاريك» عندما وصل ديكنز من دون أن يراهُ الرجلان، كانا يتناقشانِ حولَ فضيحةٍ تخُصّ رسّاماً معروفاً وامرأتين، كان «ويلكي كولينز» يمتلك رأساً ضخماً يتأرجحُ على جسدِه الضئيل، وقد تزايدت غرابةُ مظهرِه بامتلاكهِ صدغاً أيسر منتفخاً وآخر أيمن منخسفاً، وعندما كان يُشاهَد من الجانبِ كان يبدو مختلفاً من جهةٍ عمّا يبدو عليه من الأُخرى. بعيداً عن تكوينه التشريحيّ فقد كان هو أكثر الأشياءِ غرابةً التي رآها فورستر في حياته. كانت الطّريقةُ التي يمتدحُ فيها ديكنز ذلك الرّجل الشاب الغريب تثير استياءَ فورستر الذي شعرَ بأنه يغتصبُ موقعه كنديمٍ لديكنز.

«النّبوغ» أكملَ ويلكي «الإنكليزيّ».

«لا تهتمّ» قال فورستر «بالنّسبة لنبوغهِ سيد كولينز» وقد ذكر اسمهُ وكأنه مرضٌ مُزمنٌ «نحن لا نمتلك نوابغَ في هذا البلد إلا إذا كان النّبوغُ مرافقاً للاحترام. وعندها وعلى وجه الدقّة فسوف نقولُ إننا سعداء جداً به - سعداء بالتّأكيدِ».

«عزيزي الماموث» قال ديكنز وهو يصِل من خلفِ الرّجلين ويضع إحدى يديهِ على كتِف فورستر الضّخم قبل أن يجلسَ على الأريكةِ

بجوارِ ويلكي «كم هو رائعٌ أن أرى صديقيَّ الرّائعين معاً، هل نتشاركُ بعض الشّرابِ الإمبراطوري؟».

لكن فورستر لم يكُن يتناولُ الشّراب الإمبراطوريّ ولا أي نوعٍ آخرٍ فانتصب واقفاً وقدم بعض الأعذارِ ثم غادر.

بدا ديكنز غير مكترثٍ برحيلِ رفيقه المفاجئ، كان الأمرُ كما أوضح فيما بعد «بعضٌ من إرث الماموث الجليديّ» واصلَ ديكنز إخبارَ ويلكي عن اجتماعهِ مع السيّدةِ جين فرانكلين.

«أنا متحفظٌ نوعاً ما تُجاه تلك الرّحلاتِ البحرّية وتجاه أكلِ لحومِ البشر» وقال مستكملاً حكايته.

«والجليد؟» تساءل ويلكي.

«شديدٌ جدّاً تجاه الجليد» قال ديكنز وهو يرفع يدهُ في إشارةٍ للنّادل «بعض الأحيان أشعرُ بأنني قد غرقت مع السّفينة هناك بنفسي».

كانت أعصابُ «ويلكي كولينز» ما تزالُ بحالةٍ جيّدةٍ، ولم يكن قد ابتكر بعد سلسلةَ رواياتِ المحقّق التي ستصبح شهيرةً جداً في عصره وتُصنفه كأحدِ أشهر الروائيّين ثم ستُنسى بعد ذلك، عندها ستتراجعُ عافيته وسيتناول مزيداً من الأفيون للتغلبِ على ألمه، لإحساسهِ بوجود قرينٍ يرافقه، الشبح ويلكي، كان العالم واعداً بالنّسبة إلى ويلكي ثمّ تحطّمَ إلى سرابٍ، سوف تستحيل عيناه إلى كيسين من الدِماء بينما سيكونُ ديكنز العظيم صديقهُ ومرشدُه، سوف يقضي عطلاته معه، يلهو مع ديكنز، وحتّى يعملُ مع ديكنز في المجلّة الروائيّة «هاوسهولد ووردز». سوف تصهرهُ الحياةُ بينما يستمرّ هو بالاعتقادِ بأنهُ يُشكّلها بنفسه، كان شابّاً سريعَ البديهةِ ويتّفقُ غالباً مع نزواتِ ديكنز المختلفة، وعندما تكون تلك النّزواتُ هي «البراعم» فقد كان ويلكي يعرف طريقَ

بعض القاعاتِ والمنازل الرّفيعة كي يتردّدوا إليها، لكنّهُ في تلك اللّحظةِ كان تائهاً بين أن يُوافق ديكنز أو عمّا يوافقُه؟

«كلُ تلك الجثث المُتحلّلة الشّهيرةِ تحت جبالِ الجليد لرجالِ عُظماء واجهوا الموت النبيل ـ هل تعتقد أنها نوعُك من القصصِ تماماً؟».

«والقدور» قال ديكنز «لا تنسى القدور».

«لكنك قلت قبل أسبوعِ واحدِ فقط إنّك ستباشر بكتابةِ روايةٍ جديدةٍ وإنّك لا ترغبُ في أن يحولَ بينك وبينها أي عملٍ كتابيٍ آخر».

«حسناً» قال ديكنز «أنا لم ادّعِ الحزم بالإضافةِ إلى أنّه... أنا مرهقٌ عزيزي ويلكي، لقد كنت ثلاثة أرباع مجنونٍ وربع مهلوسٍ وأنا أندفعُ في كتابة الأوقاتِ العصيبة».

«لقد أعطيت هاوسهولد ووردز أوقاتاً جيّدةً» قال ويلكي

«لقد تركتني مُستنفد القِوى».

لقد كان ويلكي يُدرك أن مجلةَ ديكنز الأدبيّة والتي تظهر فيها رواياته كحلقاتٍ متسلسلةٍ كانت أكثرَ من مجرّد مصدر للرّزقِ لهذا الروائيّ، لقد كانت مهمّةً مثل أي شيء آخر يلمسه ديكنز؛ لم تكُن محضَ نجاحٍ بل نجاحاً متعاظماً.

«أنا في غِنى عن الرّواية حاليّاً» كان ديكنز يقول «لكنّني بحاجةٍ إلى حكايةٍ ما كي أدعم مبيعاتِ طبعة أعياد الميلادِ للمجلّة»، وعند رؤيته شخصاً محنياً عند الزّاوية البعيدة أشبه بالخنفساء فقد أشرقَ وجهه «إنه «دوغلاس جيرولد»، سوف يُعطينا شيئاً ما».

لوّحوا له، «جيرولد» وبعينين أكثرَ زرقةً من أي وقتٍ آخر تحت حاجبين كثيفين يستقرّان على وجهٍ صغيرٍ مدبّبٍ كفراشاتٍ حارسةٍ، كان فرحاً لرؤيةِ ديكنز ولكنه رفض أن يشربَ معهُما لأنه كان مُتوعكاً في

الأشهرِ الأخيرة، عوضاً عن هذا فقد أخبرهُما قصةً قصيرةً مضحكةً عن الشّرابِ الإمبراطوريّ وشقيقِ جين أوستن الذي كان قد خدم معهُ في البحريّة.

«لقد قرأتُ إحدى رواياتِ أوستن ذاتَ مرة، أعتقدُ هذا» تفكّر ديكنز «ما الذي تقرأهُ هذهِ الأيّام؟»

«ماكاولاي» قال جيرولد.

«بالتّأكيد» قال ديكنز «على عكسكَ إنها لا تُدرك أن ما يعتملُ في دواخلنا بقوةٍ وسرعةٍ يجب أن يتجسّدَ في كل جملةٍ ولهذا فمنذ موتها أصبحت طيّ النّسيان، عِوضاً عن أن تتزايد شعبيّتها ـ ولهذا تحديداً أنا أحتاجُ أن تكتب لنا شيئاً في طبعة العام الجديد».

«سأفعل لو كنت أتمكنُ من ذلك تشارلي ولكنني مشغولٌ بكتابةِ مسرحيّةٍ جديدةٍ ولا أتمكّنُ من رؤيةِ شيءٍ آخر في طريقي حتى الرّبيعِ المقبل».

بعد مغادرة جيرولد عبث ديكنز بخاتمِ زِفافه الضخم، كان يخلعه ثم يُديره حول إظفرهِ على الرّغم من أنه لم يقُل ذلك ولكن شيئاً ما في لقائه مع السيّدة «جين فرانكلين» قد تردد صداهُ بشكلٍ غامضٍ وغير متوقعٍ في داخله فلم يتمكن من نِسيانه، أعادَ خاتمه إلى مكانهِ.

«ما رأيك ويلكي لو قمتُ بكتابةِ مقالةٍ قصيرةٍ عن تقرير الدّكتور راي ذاك وأديرُ دقّةَ النّقاش ضدّ فرضيّاتهِ تلك؟».

في منزلهِ «تافي ستوك هاوس» درس ديكنز بدقّةٍ صحيفةَ «الالوستراد لندن نيوز»، بينما كان صباحُ لندن في الخارج قاتماً داكناً كما ليلها، أشعرهُ هسيس المصابيح الغازيّةِ في الداخلِ بالسّكينة وهو يقرأ مقالة

الدكتور راي ثمّ تنفّس الصُعداء من محتوى ذلك المقال فالرجل لا يمتلكُ أيّةَ موهبةٍ للكتابة.

وضع ديكنز الورقة جانباً ثم حرّك التمثال البرونزيّ لضفدعينِ يتبارزان إلى وسط طاولتهِ وجلس ليعمل.

ابتدأ ببعضِ الإشاراتِ السرديّة ثم انتقلَ إلى الإطراءِ على دكتور راي لدقيقةٍ بشكلٍ حاذقٍ، وبهذا فقد نفى احتماليّةَ اعتبار مقالته تلك هجوماً شخصيّاً.

عندها وعندها فقط وعلى نهجِ المرافعات التي طالما كتبها ديكنز في صِباه فقد شرعَ في زرعِ الشكِّ في كلِّ تفصيلٍ في تقرير الدّكتور راي - إن ترجمة لهجة الإسكيمو المحليّة بصورةٍ صحيحةٍ تُعد ضرباً من المُحال والاحتمالُ الحقيقي هو وجود تفسيراتٍ مختلفةٍ بل ومتناقضةٍ للأدلّةِ التي أتى بها البرابرة.

ثم تساءل عن إمكانية ذبحِ ثم طهوِ إنسانٍ ما «هل إن شُعلة المصباح الكحولي الذي امتلكهُ المسافرون كانت ستكون كافيةً لهذا الغرض؟». كتب ديكنز.

شعر بالانسجامِ مع تلك العبارات، مع نفسهِ ومع الحياة، توقف وقرأ جملتَه الأخيرةَ ثانيةً ثم وضع خطاً تحت عبارة «رُبّما امتلك».

كانت القضيّة تُبنى بشكلٍ تدريجيٍّ وهو يشعر الآن بالكلماتِ وهي تتدفّقُ خلال ريشته تاركةً خلفَها على الورقِ أثراً طويلاً مُزرقاً من الحبر، كالجليد سيقودُه وقراءه نحو ذلك العالمِ الغريب المروّع.

ثم عاد إلى الموضوع الذي لا مفرّ منه وهو الأجسادُ المشوّهة «ألا توجد هناك دببة كي تُشوّه تلك الأجساد، لا ذئابَ لا ثعالبَ؟»، لم

يُجب عن تساؤلاته البلاغيّةِ تلك تاركاً فعل ذلك للقارئ، ثم انطلقَ بسرعةٍ نحو ضربةٍ سردية أخرى.

«أما كان الرّجالُ» تساءل الآن «لو كانوا يتضورون جوعاً فسيقعون فريسةً لمرضِ الإسقربوط؟ ألن يقضي هذا المرضُ على شهيتِهم وفي عين الوقتِ يستنفد قِواهم؟»، كان يُعدّ القارئ ويستفزُّه بهذه الحكاية عن الأدلّة الخاطئةِ والاحتمالاتِ المثيرة، جهّز ديكنز فخهُ وصرّح بما كان يعتقدُه الحقيقةَ المؤكّدةَ حول ذلك اللُّغز «وأخيراً، ألن يتمكّن أي رجلٍ من الأخذِ باحتماليّةِ كون تلك البقايا الحزينة لطاقم بعثةِ فرانكلين قد تمّ ذبحهم من الإسكيمو بأنفسِهم؟».

توقف وتشتت انتباههُ للحظاتٍ بفكرةٍ غريبةٍ راودته «نحن نُدرك أن كل بربرية ستكون جشعةً خائنةً وقاسيةً؟».

ثم أدرك خطأه وشطب ما كتب وكتب فوقَه «بربريٌ سيكون جشعاً وخائناً وقاسياً»، ولكن ألم تكُن تلك الكلمات تُجسد حماقتهُ الشخصيّة قبل أعوامٍ عدة؟ تجسّدت تلك الفكرةُ بشكلٍ واسْمِ امرأةٍ ما، ثم تمتم ديكنز بكلمتين «ماريا بيدنيل».

كم أزعجه ذلك الاسمُ، أغضبه، أثار سخطه، ذكّره بأصلِهِ البائس وبالإهاناتِ العديدةِ التي تعرّضَ لها وعقد العزم على ألا تتكرّر.

قبل أن يُصبح هو تشارلز ديكنز اللاّمعَ والثريّ، نابغةَ الكلمات، كان هو تشارلز ديكنز الهادئ بالغَ الصدقِ والأحمق في بعض الأحيان في شبابه قبل أن يتزوّج.

«ماريا بيدنيل» كان قد قدّم نفسه لوالدها كشخصٍ أدنى منزلةً منه، لن يكرّر هذا الخطأ مرةً أخرى، نزعتُه نحو الكبرياء تلك هي ما جعلتُه

متفرّداً، لقد قام برفض دعوةٍ من الملكةِ بنفسها، لقد دخل إلى المُجتمع الآن وفقاً لشروطهِ ومفرداتهِ الخاصّة.

«ماريا بيدنيل» حُبّه الأول، النّبضُ الخاطئ لقلبهِ غير المُهذّب، تلك الكلمات، القلبُ غير المُهذّب، عادت إليهِ راسخةً ـ كتحذيرٍ، خوفٍ أو ذُعر مما قد يكون حقيقةً، هو شاهدها في أحلامِه مكتوبةً على جُدران منازل مجهولة ووجدها تظهر جليّة في كتاباته.

«ماريا بيدنيل» وعائلتها الرفيعة الذين تعاملوا معه بكونهِ ليسَ بأفضل من جُثّة يعبثونَ بها، يحتفلونَ حولها لمتعتِهم الخاصّة، إلى الوراءِ الآن، فقد أدرك أنّ ذلك كانَ هو العِقاب المُلائم جزاءً له على انصِياعه لعواطِفه عِوضاً عن إبقائها تحت السيطرة بحزم، وبعد كل شيء ألم يكن ذلك الحزمُ هو ما يميّزُ الإنكليز عن الأنواعِ المُختلفة من البرابرة؟

«أجبني أيها القلب غير المُهذّب» ذهب بعيداً في تساؤلاته بإحدى رواياتِه، لكنه لم يرُد عليه، وعقاباً على ذلك فقد قيّدهُ وربطهُ بالسّلاسل، دفنه، وهذه الطّريقةُ فقط في تهذيبِ قلبه كانت قد أوصلته لهذا النّجاح ومنعته من الانحدارِ في الهاوية التي سقطَ فيها والده المَدين وإخوَته المُسرفون، ومنعتهُ من التّحولِ أخيراً إلى البربريّ الذي طالما خشيهُ.

عقد العزم على طردِ تلك الأفكار المستهجنةِ من ذِهنه، حاولَ ديكنز العودة إلى الدّكتور راي وإلى أكلةِ لحومِ البشر ولكن ذلك بدا مستحيلاً، لديه الآن فكرة واحدة وتلك الفكرة تحمل اسماً واحداً، بعد خمسةِ وعشرين عاماً، «ماريا بيدنيل» والتي هي الآن السيّدة وينتر، قد تزوّجت من شخصٍ بائسٍ، مقبول اجتماعيّاً كما افترض ديكنز ـ كان قد كتَب لها والتقيا على العشاء في مكانٍ محترمٍ تم تدبُّره في منزل أحد الأصدقاء.

نظر إلى بشرتِها الذابلة، شفتيها الرّفيعتين، رقبتها البدينة وهي تختفي في طيّاتِ جيدها، كانت تبدو كدهانٍ تباهَتَ لونُه من القِدم، لقد أصبحت ضخمةً ومنقطعة الأنفاس، كانت تلهثُ ككلبٍ عجوز، استدار ديكنز إلى الحضور وقال مع ابتسامةٍ ذات مغزى «السيّدة وينتر كانت صديقةً لي منذ الطّفولة».

أخطأ ذات مرة باعتبار خُلو «ماريا بيدنيل» المُملّ كلغزٍ غامضٍ، والآن هي التي كانت تسخرُ مِنه في شبابها، أصبحت تغازِله في عُمرها ذاك ـ تشارلي هذا وتشارلي ذاك ـ كم كان تصرّفُها ذلك خسيساً، كيف يُمكن للبشر أن يكونوا مُنفرين إلى هذهِ الدرجة، بدينةٌ وغبيّةٌ ومليئةٌ بالبلغم الذي كان يُخرخر في فمها وهي تضحكُ بغنجٍ، كان قد وجدها باردةً وتائهةً مهما كانت مشاعره السّابقة نحوها.

قبل أعوام عدّة كان قد وضعها في إحدى قِصصه، والتي كانت تتحدّثُ عن ذاتِه هو، «دايفيد كوبرفيلد» وقد أعطاها دور المرأةِ الوحيدة التي تزوّج بها ديفيد: «دورا سبينلو»؛ والآن وهو يحاولُ إنقاذَ السيّد جون فقد تصاعدت لدى ديكنز ذكرى مريرة أخرى وجدها غير محتملةٍ: بينما كان يقوم بكتابة تلك الحِكاية عن حياتهِ المثاليّة، حُبِّهِ غير المتبادل والذي يصبح متبادلاً في نهايةِ الأمر، ويُعيد صياغةَ العالم بما يرتضيه، وُلدت وقتئذٍ طفلته التّاسعة وقد سماها دورا، كم هذا غريب، كم هو عجيب، فبعد مرور بضعة أشهرٍ على قتلهِ دورا في رواية «ديفيد كوبرفيلد» توفيت دورا الحقيقيّة خاصّته، تملّكه ذلك الإحساس المريعُ بأن العالم الذي أعادَ تشكيله وِفق خيالِه الخاصّ كان يسخرُ مِنه بأقسى طريقةٍ ممكنةٍ.

خارج مكتبته تمكن ديكنز من سَماع أصوات أطفاله وهم يركضون عبر الممرّ، يتذمرونَ ويصطدمونُ بالجدران، نهض لإغلاقِ الباب الثّاني الذي بناهُ لهذا الغرض ثم عادَ إلى طاولته، أصبحت أصواتُ عائلته الآن بعيدةً وصامتةً، ولكن قِطار أفكاره كان قد ضاع تماماً.

وضع ريشته جانباً وتوجه نحو خِزانة الكتب، بحث فيها لدقائق عدّة وهو يتساءل طِوال الوقت لماذا رغبَ «بماريا بيدنيل»؟ شكر الربُّ الآن على عجرفةِ والدها مع الأدنى منزلةً، لديه زوجة الآن، نساءٌ في كتبه وبراعم للياليه، لقد توجب أن يكونَ هذا كافياً.

طافت عينا ديكنز عبر الرفوف ثم وجد أخيراً كتابَ السيد جون فرانكلين «رحلةٌ إلى البحر القطبيّ»، بعد أن تصّفح الكتابَ مرّتين وجد أن تلك الصفحات التي كان غافلاً عنها أكثر ملاءمةً ممّا يأمُل، كما يراها الآن لغرضه.

مهما كانت حقيقةُ الكتاب فقد أظهرت فرانكلين ككاتبٍ أفضل بكثيرٍ من دكتور راي المسكين العجوز، السيّد «جون فرانكلين»، أدرك ديكنز بأن قلم السيّد فرانكلين لا يقل جودةً عن قلمِ ديكنز عندما كتب «أوليفر تويست».

كانت هناك بعض المقاطعِ التي ذكر فيها السيد جون أنهُ حين عانى من المجاعةِ المطلقة في بعثته السابقة عام ١٨١٩ ومع وفاةِ أحد عشر رجلاً من رِجاله العشرين، فقد تمتع السيّد جون بنوعٍ من الكياسة التي لم يتخلّ عنها مطلقاً، وعِوضاً عن التهام لحوم البشر فقد قام السيّد جون بأكلِ حذائه الخاص، شعر ديكنز بالابتهاج، لقد كان هذا رجلاً إنكليزيّاً بحق، قلبٌ جسورٌ، حذاءٌ مطهوٌ، ذائقةٌ رفيعةٌ في الطّعام، شعر بالطّاقة تتدفقُ من خلاله وابتدأ في سرد الحِكاية، كيف أنه عندما تعرّضت بعثةُ

فرانكلين الأولى للمجاعة فقد قام الهنديّ الأمريكيّ «مايكل» بطرحِ الفكرة المروّعة للعيش على أجساد المشرّدين أو ربما قتل واحدٍ أو اثنين من المستكشفين أخيراً، وكيف أن السيّد «جون ريكاردسون» قد قام بإطلاق النّار على ذلك الشيطان وأصابهُ في رأسه بشكلٍ رائعٍ ـ وللمتعة المُتكاملة فقد كتب ديكنز الآن «الكلّ الأجيال من القُراء».

كان قلمه يتحرّك مرةً أخرى بتناغم مع خياله، ارتفعت روحه مع ذلك التدفّق الحيويّ، هذا بالضبطِ ما فَعله هو، لقد عاشَ وتعرّف على نفسه في رواياته، وبهذا العمل الكتابيّ فقد وجد ديكنز نفسَه مرتبطاً برحلةِ السيّد جون البائسة وبذلك العالم الغريب المتجمّد الذي يحفَظ الألغاز.

فكرَ كيف تحمّلت تلك الأرواحُ العظيمة كل هذه الصّعاب إلى النّهايةِ كما فعل هو في زواجه، السيّد جون لن يرتكبَ الخطأ الذي دعاه إليه مايكل، بسبب أصله النبيل، ذلك الخطأ وليدُ الشّغف الذي ارتكبهُ ديكنز بنفسهِ ذات مرّةٍ في شبابه، ألم يكن يتوقُ إلى عَضّ فخذي «ماريا بيدنيل» كما يتوق الإسكيمو لفخذِ السيّد جون النبيل؟ ولكن من صفات الحكمة والتمدّن القدرة على قهر الرّغبةِ، إنكارها وتدميرها، وبعكس ذلك فإن الشّخص لن يكونَ بأفضل من مايكل الهندي ذاك أو من الإسكيمو.

كان لبُّ الموضوع واضحاً للعيانِ، لا يمكن الأخذ بكلام البربريّ كحقيقةٍ مطلقة «لأنه كاذبٌ»، بالإضافة إلى أنّه أصبح جلياً لَلعيان أنّ الأجساد المشوّهة والمطهوّة بين هذه أو تلك من القبائل المثقّلة بالأوشام قد أثبتت شيئاً واحداً فقط، أنها كانت أضاحي بشريّةً لربِهم البربري واسعَ الفم وجاحِظ العينين»، كتب ديكنز وهو يشعرُ بأنه كان قد أقنع نفسه بهذا، «وهو أمرٌ شوهد وعُرف عن البرابرة».

كان ديكنز متحمّساً الآن باقترابه من النّهاية، رنّت الموسيقى في أُذنيه، مَقْتُه لاستسلامه لنزواته قبل فترةٍ طويلةٍ في شبابه أصبح مماثلاً لخيبة أمله تِجاه النّساء اللواتي التقاهُنّ في حياته ـ والدته، ماريا بيدنيل، زوجته وكثير من البراعم ـ فكّر في السيد جون البعيد عن النّساء بشيءٍ من الحسد للحظة.

«إن السّلوكَ النبيل والقدوة الحسَنة التي جسّدها هؤلاء الرجالُ وقائدهم العظيم تحت تلك الظروف» كتب الآن «توازي وزن الكون مقابل ثرثرة شرذمةٍ من الهمجيّين غير المتحضّرين ذوي الدم والشحم الوضيع».

ختم مقالته بقداسٍ للموتى في محاولةٍ خطابيةٍ منه للتأكيد على استحقاقهم حقّ الدفاع عنهُم وتقديرهم ـ الرّبُ يعلم عندما تَحين ساعته هو سوف يُحرق كل رسائله في الموقد، وقد يأخذ هذا اليوم بطولهِ، سوف يبتكر مخلوقاً غريباً عن هذا العالم، أكثر غرابة من شخوص كُتبه وأشد تعقيداً من أيةِ حبكة، سوف يُعاهد رِفاقه على صونِ أسراره، سوف يُطالبهم بالتشبّث بالثقة إلى ما وراءِ القبر، وسوف يكون مستعداً لدفع الثمن، ثمن فشله التّام في السّيطرة على قلبه غير المُهذّب، فهذا سيكون ثمن روحِهِ.

٥

شعر الوصيّ بأن زيارةَ النّائب التفقديّة لمستوطنةِ وايباليينا قد ابتدأت بشكلٍ جيّدٍ، كان الشّاطئ مُغطّى بالسّكان المحليّين لتحيّةِ الحاكم السيد «جونَ فرانكلين» ومجموعته عندما هبطوا على الجزيرة، وكانوا يثبونَ ويرقصونَ بحبورٍ ويهتفون بهتافاتِ المرح الوحشيّ، لم تكن هتافاتهم تلكَ أنيقةً أو متحضرةً ولكنها لم تكن دون تأثيرٍ جيّدٍ، كانت السيدة فرانكلين مأخوذةً بفتاةٍ صغيرةٍ سوداء ترقص مع مجموعة من الأطفال للتّرحيب بالزوّار على الرّمال البيضاءِ المتألقة، كانت الطفلةُ ترتدي قلادةً طويلةً وجميلة نوعاً ما حول رقبتها وجلد كنغرٍ أبيض كبيرٍ حول كتفيها، لقد كانت متميّزة ليس بسببِ بساطتها ولا حجمِها الضئيل ولا عينيها الواسعتين الداكنتين ولا سلوكها الواثِق مُتعذر الفِهم، ولكن بسبب زيّها الغريب.

كانت السيدة جين لا تحتملُ الأطفالَ حتى لَو أُجبرت على ذلك، لقد أخبرت صديقتها بأنهم لن يكونوا عبئاً أبداً، بل كانوا بطريقةٍ غريبةٍ مصدراً للرّاحة، لم يكن كلامُها هذا صحيحاً ولكنه ككلِ المراوغات الأخرى خلَق بعد فترةٍ حقيقته الخاصة.

لقد كانت تتجنّبُ الأطفال وعندما تقدمت في السِنّ ـ هي الآن في السّابعةِ والأربعين ـ فقد تحوّلَ ذلك الأمرُ إلى استياءٍ عامٍّ، كان فيهم

شيء تفتقدُه هي، وقد وجدته في قلبِها مروّعاً، كأن مزيداً منهم يؤدي إلى قليل منها، كأنّها كانت تموتُ كي يَحْيَوا هُم.

تردد صدى فوضاهم وضحكاتهم في حجراتِ ذاكرتها الفارغة، لم تتمكّن من نِسيان السيد جون الشاب وهو يسألُها عن سببِ شحوبها وهي لا تتمكّنُ من قولِ أي شيءٍ عن تلك البقعةِ الصغيرةِ الحمراء تحتها بسبب الخزي والخوف، أغلقت كتابَها، نظرت إليه وأخبرته بأنها تتفقُ مع «ووردسوورث» بأن الشخص المهيب يجب أن يعيش في عُزلة.

«أليس كذلك» قالت وصوتها يتكسرُ أشتاتاً، لقد وافقها، هو دائماً يوافق، ومع محاولات حمل أخرى انتهت بصورة مفاجئةٍ، لقد كانت تصنع الحياة ولكنها كانت تُغادرها، لا أحد يعرفُ بهذا فقد أصبحت حياتها مُتكتّمة، لم تكُن ثمة إشارةٌ لذلك الموت في «التايمز»، لا رثاء، لا حوار، ولا ارتداء للّونِ الأسود، الحُزن بداخِلها فقط الآن، ويمضي الوقت وجسدها يتغيّر، والآن وهي تُراقب تلك الفتاةَ المحليّة الصّغيرة على الشّاطئ شعرت السيدة جين بالصّدمة، بتلاشي حملٍ ثقيلٍ يحيق بها، وشعورها بتصاعد أحاسيسَ غير محتملة.

كانت الطفلة مُتأخرة قليلاً عن الآخرين، ولكن السيدة لاحَظت أنها، وبطريقةٍ ما، لفتت الانتباه إليها وإلى رقصِها، وبدا الأمرُ وكأنه يُعزز أداءها، كانت السيدةُ جين مستحوذةً برغبةٍ عارمةٍ للمس تلك الفتاة الصغيرة. «لماذا أنظر» قالت السيدة جين وهي تستديرُ إلى زوجها العجوز البدين «أنت تتمنى أن تحتضن ذلك الوحش المفترس الصغير وتحنو عَليه».

لقد كانت ملاحظة غير متوقّعةٍ لكليهما، كانت قد عقدت العزم على ألا تترك مشاعر كهذه تُخيفها، بالنّسبةِ إلى السيدة جين فإنّ ما مَنع تلك

الطفلة من أن تُحتسب طفلةً هو كونها من البرابِرة وما منعها أن تكون بربرية هو كونها مجرد طفلة.

وعلى افتراضٍ أن زوجةَ الحاكم كانت مهتمة بالأدواتِ أكثر من الأشخاص، فقد أوضحَ لها الوصي كيف أنَّ قِلادة الطفلة صُنعت من مئاتِ القواقع الزاهية الخضراء الصغيرة، ملتفة على ياردات من وتر الأبوسوم ثم التفت حول عُنقها لمرات عدة، واستمر بالقول بأن القلادة كانت تعود لوالدةِ الطفلة التي توفيت منذ أعوام عدة، بينما يعودُ جلد الكنغرِ الأبيض لوالدها الذي توفي قبل أسبوع، كانت السيدة جين مأخوذةً كلياً بالطفلة.

«المشرّدةُ الصغيرةُ الغالية» قالت.

«ليدا» قال الوصي «اسمها هو ليدا، عمرُها سبعةُ أعوامٍ، إنها الأصغر على الجزيرة».

«يا لها من بيضةٍ سيد روبنسون» قالت السيدة جين مبتسمة «هل تتوقع لها أن تتناسلَ مستقبلاً؟».

«بيضة؟» قال الوصي وهو مرتبكٌ قليلاً «لقد قصدتُ الطفلة وليس الدجاجة».

«يجب أن تحميها مِن البجعات» قالت السيدة جين وهي تتعمدُ الإساءةَ.

«أنا آسفٌ يا سيدتي» قال الوصي الذي كانت معرفته بالأساطير الكلاسيكية محدودةً جداً.

«ليدا» قالت السيدة جين

«نعم» قال الوصي «جمالُ العالمِ الأسطوري».

«لقد اعتقد القُدماء بأنه كي يقوم باغتصابِ الجميلة ليدا فقد تحولَ زيوس إلى بجعة».

«قصةٌ رائعةٌ بالتأكيد» ضحِك الوصي الذي كان محرجاً من الحِكاية ومن لغةِ السيدة جين الصريحة ومن كشف جهله الشخصي، «الآلهةُ القدماء» تنهد «هذه القِصص تثيرُ اهتمامكِ» أضاف بسرعةٍ، حينما ركض الأطفالُ بجوارهم عند نهايةِ الرقصة «نحن نفضّلُ أن تناديها ماثينا».

السيدة جين، والتي لم تكن قد لَمست الأطفال بصورة طبيعيةٍ من قبل، مدت يديها وأخذت ذراع ماثينا، كانت الطفلةُ تدور مبتسمةً حتى لمحت المرأة البيضاء وهي تُمسك بها.

«أنتِ ترقصين بشكلٍ جميلٍ» قالت السيدة جين ثم شعرت فجأةً بالحرجِ من تصرفها العفوي ذاك فتركت ذراعَ ماثينا، ركضت الطفلةُ مُبتعدةً بينما ابتدأ الوصي بالتحدثِ عن المقبرةِ الجديدة التي سيقومون بتفقدِها، ولكن ذلك المزيج الغريب من الروحِ والحزن المُتجمع في شيءٍ صغيرٍ جداً كهذا قد استحوذَ على السيدة جين.

إنها الشّفقةُ بالتأكيد، فعندما تتصاعدُ شفقتها فإنها تتحوّلُ إلى عاطفةٍ مروعة أو ربما هي كانت تُفضل التّفرج على الأطفالِ أكثر من تفقّدها للمقبرة، مهما كان السبب فقد أصرّت السيدة جين على عودةِ الأطفال لتقديم رقصة أخرى.

أحسّت السيدة جين بأنها قد فهِمت ماثينا، وهي تُراقب الطفلةَ ترقص، لقد تصورت حُزنها، احتياجاتها وأحلامها.

حثّت السيدة جين خُطاها صعوداً على التل متجهين نحو أرض المدفن تاركةً السيد جون يزفرُ ويلهثُ خلفها، بينما كان الوصي يركضُ جيئةً وذهاباً بين الاثنين وهو منبسطُ الأسارير لرؤيتِهما بدعمان عمله

رغم إدراكه أن ذِهن السيدةِ جين كان شارداً في مكانٍ آخر، كانت تفكر في رقصِ ماثينا، طريقتها البطيئة في الحركة، لقد كانت متفردةً جداً ومؤثرة.

«يستطيعُ الشخص أن يقول تقريباً» قالت للسيد جون عندما تمكّن من اللحاقِ بها عند بوابةِ المقبرة «بأنّ جسدها كان يُفكر».

ومن ناحيةٍ أخرى، لم يكن جسدُ السيد جون يعطي انطباعاً عن عقليةٍ متقدةٍ بل ثمرة قرعٍ ناضجةٍ أكثر من اللازم، وبالرغمِ من هذا فقد شعرت السيدة جين دائماً بوجود قوةٍ حيوية فيه أو نوعٍ من الروحِ المتيقظة وبعض الشغف في انتظارِ أن ينبثق.

في أوقاتهما الخاصة كانت تُناديه بالدُّبِ، لأن هذا كان تصورها الحقيقي عنه، دبٌ ضخمٌ في شُباته، ولكن بعد عقدٍ على زواجها كانت ما تزال ترفرفُ حوله كفراشةٍ بانتظار أن يصحو نيافته.

ضئيلةٌ كما كان هو ضخماً، كانت السيدة جين تبدو جميلة عندما تُقرر أن تُبرز ملامحها، لكنها بدأت وكأنّها تتراجع عن فِعل ذلك. وإن لم يبدُ هذا صحيحاً، ولكن طبيعتها كانت متناقضة جذرياً، كانت رغبتها في الامتثالِ والطاعةِ التي ورثتها عن والدتها ابنة الأصول الفقيرة تتصارعُ في داخلها مع الحيويةِ والثقة بالنفس التي تعلمتها من والدها المالك لطاحونةٍ في وسط المدينة، وهي أسوةً بوالدتها كانت قد تزوجت كي تُحسّن وضعها واستقرّت مع ذلك المستكشف القطبيّ العجوز الذي كان ينظر إليه مُجتمع لندن في ذلك الوقت كأحدِ عُظماء الأمة بعد «درايك ورايلي»، وعلى نظيرِ والدها فقد كانت السيدة جين ترى أن بلادةَ زوجها تبدو كالفحم، والتي ستكون جيدةً لو تمكنت من إحراقها لتغذيةِ شيءٍ أكثر عمقاً.

كانت تتحدث معهُ عن التاريخ، انحدار فن الرسم وإحساسها بالدُوار وهي طفلة عندما اصطفت مع الحشودِ المتجمهرة لفقراءِ لندن للاحتفال بجنازةِ «بايرون»، وشعورها بأنها تتلاشى إلى الأبد. بينما كان يُجيبها هو بتقارير عن المِلاحة، تنظيمِ الأسطول البحري أو كم ستكون ألسنةُ حيوان الرنة رائعةً لو أنها طُهِيت جيداً، حتى إن بشرتها كانت ستُنتزع بسهولة كالجوارب، لم يجمعهما شيء معاً سوى الاحترام والتقاليد. كانت فكرة تناول شيءٍ نتنٍ كرائحة الأقدام أمراً غير محتمل، لقد أُعجبت بجدِّيته وظنتها خطأً إنجازاً بإمكانِها أن تكون جزءاً منه.

لكنه كان مملاً منذ البداية، لقد كان من الصعبِ المزج بين الشاعرية التي كانت ترتبطُ باسمه وبين الفتورِ الذي تبعثه في النفس رِفقته، كان من الواضح أنهُ كان شخصاً طيِّعاً وكان سيكون باستطاعتِها أن تُشكِّلَهُ كيفما تشاء وأن تُرسخ سُمعته، لقد قررت أن تكون مُلهمته وصانعته معاً.

لقد انبثق طموحُ السيدة جين من نفس المصدر الذي تسببَ بخزيها وقرفها: أبيها، لم تكُن تُشجع الحميمية بينها وبين السيد جون منذ بداية زواجهما، لقد كان يثيرُ قرفها، الأصواتُ الصادرة منه، لحمهُ ووجهه وهو يذكرها بما كرّست كل حياتِها لنسيانه وحرقه خارجَ ذاتها والحصول منه على تجربةٍ ذات طبيعةٍ أسمى.

كان ينسى نفسه أحياناً ويستسلم لرغباتِهِ البدائية، في تلك الأوقات شعرت بكونها مثالاً يُحتذى به على تحمل ثورة الرجلِ البهيمية، لقد تحملت تكراره الأخرق البليد ولكأنهُ أصمّ يقومُ بالعزف، لقد بدأت ترى أن كل الرجال كانوا ضعفاء ـ بالتأكيد مُنحطون ـ وعبيدٌ لغرائزهم الحيوانية غير القابلة للسيطرة، والشيءُ الذي كان مدعاةً للسخرية في حالتها هو أن كل ذلك لم يُفضِ إلى طفلٍ على قيد الحياة.

لقد آمنت به: لأنها لم تكُن تمتلك خياراً آخر وقد كانت تشيخُ بدورها، ونتيجة لخيبةِ أملها الأولية في قنوطِه وافتِقاره إلى الحيوية، فقد وَجدته وبشكلٍ غير متوقعٍ طبعاً كي تسحبه على طريقِ طموحها وشغفها، وقد كانت ميزته الرئيسة كما أدركت هي قُدرته على التحمل، وهي ما مكنته من الصمود في الرعب القطبي خلال بعثته الشهيرة عام ١٨١٩ و١٨٢١ وما مكنته من الاستمرار من دون أي ترددٍ أو اعتراضٍ على تنفيذ كل أحلامها وخططها، لقد كان دُبّها الراقص حقاً.

ولهذا السبب لم يُبدِ أية مقاومةٍ لمخططاتها المختلفة، والتي تضمنت خطةً للتخلُص من الأفاعي على أرض فانديمون بواسطةِ دفع شلنٍ واحد ـ من جيبهم الخاص ـ مقابل كل جلدِ أفعى يُجلب إليهما، وبعد خسارة ستمائة باون كانت الأفاعي ما تزالُ كثيرةً ويعود الفضل بهذا لمهنة تربية الأفاعي التي ازدهرت في الجزيرة، ما أدى إلى نبذِ تلك التجربة.

وبالرغم من أنه كان يفتقرُ إلى الاهتمام الكُلي بالمستوطنة فقد وافق على زيارةِ السكان المحليين على جزيرة فلاندرز، لقد أعلنت السيدة جين مسبقاً بأن هؤلاءِ السُكان المحليين كانوا يمثلون فضولاً علمياً بالنسبة إليها، كالحميرِ الوحشيةِ البُنية التي كانت تجوبُ حدائِق «ميناكراي» في باريس. وجدت فرقةُ السيد النائب نفسها تجلسُ الآن لتناول العشاء في كوخِ الوصي وهم يُصغون إلى قِصصه الفخمة والمطوّلة حول مَهامه التّاريخية في المصالحة وفضّ النِزاعات.

«كانت تلك مملكة من الجبالِ العظيمة والأنهارِ الجامحة» كان الوصي يقول ذلك بينما كانت أطباقُ الصنف الثاني من الكنغرِ المشوي تُرفع عن الطاولة «غاباتُ الأدغال والشواطِئ الفسيحة لأرض فانديمون الغربية» ولإدراكِهِ بأن قيمةَ الحِوار كانت تكمُن في فتراتِ الصّمت التي

تتخلّله، فقد تعلّم أن يُسيطر على المائدة بالتوقّفِ عن الكلام لفترةٍ بقدر الكلام نفسه وهو يظنُّ كياسة الآخرين نوعاً من الجذلِ المُتزايد.

ترك نظراته تُبحر بين المجموعة الجالسة على طاولةِ العشاء في ذلك المساء ـ السيد جون، السيدة جين ونصف دزينةٍ من الخدم والمشردين ـ ثم حاشيتهُ الخاصة: ابنه، زوجته والمعلم «روبرت ماكماهان» الذي ومنذ الموتِ المؤسفِ لزوجته الحامل وهي تهمُّ بالنزول من القارب وسط عاصفةٍ شعواء، دأب على ارتداء الأسمالِ البالية، هل كان أحدهم، تساءل الوصيّ، يمتلك أدنى فكرةٍ عن الجُهد الذي يبذله من ذاته وقلبه.

«لقد كان ملكاً» قال أخيراً وهو يقوم برفع يدِه لتعظيم نبرته الجليلة كان يبدو كأنهُ يتحدثُ عن أماكن وأشخاصٍ فُقدوا في عصورٍ أخرى ـ العصور الوسطى، الغزو النورماندي، فؤوس الفايكنغ وهي تلتمِع عند بُزوغ الشمس على مصبِ النهر ـ كلماتٌ مبهمةٌ تكشف السّتر من خلال فورةٍ غاضبةٍ من الأساطير والعبارات الخالدة، وبالرغم من إدراك الجميع أنه يتحدث عن أشخاصٍ وأحداثٍ لم يمرّ عليها عقد واحد فقد كانت، وكما أدرك الوصي، تبدو كحقبةٍ زمنيةٍ مختلفة وقد كان هو الاسكندنافي مؤرخها أشبه «ببيدي».

«وأنت تعتزمُ على أن تُعيد بناء تلك الإمبراطوريّة المتهاوية مثل مغوارِ جسور؟» تساءلت السيدةُ جين «هل يسمحُ العِلم بتلكَ الأشياء سيد روبنسون؟».

كان الوصي قد ابتدأ بما سمّاهُ المُهمّة الصّديقة، ومع أملٍ مُبهم يصعب اعتباره كطموح، كان مهووساً برغبةٍ لم يتمكن من إدراكها، وبعد أن انتهى منها لم يفهم ما الذي حصل حقاً، عالمٌ واحدٌ قد انتهى وآخر قد بدأ، لم

يَعد يتجوّلُ خلال ذلك العالم القديم متسائلاً ولكنه محتجزٌ الآن في وايبالينا في ذعرٍ جديدٍ لا يمتلك منه فراراً، ابتسم ثم بَسط يديه.

«الربُّ يقضي تلك الأمور سيدني كيف يُمكن للعلمِ ألا يسمح بها، بالإضافة» أكمل الوصي «لقد كان مرتبطاً بي بقوة، لقدَ التقيته أول مرةٍ في عام ١٨٣٠»، قالَ ذلك وكأنه حصل في نادٍ إنكليزي معاصر، ولكن السلطان ذاك لم يكن جالساً في زاويةٍ معتمةٍ في قلب أعظم مدينة في العالم بل كان يُعرف باسم «الملك روميو»، وهو اسمٌ قدمه الوصي إليهم في عصرٍ آخر وفي عالمٍ آخر، عالم سخيف لقبط مشوه عن لندن، القصة التي واصل الوصي سردها كانت قصةً عن الشجاعة والنُبل والخوف من البرابرة كالأطفال، وحكاية عائلة تم إنقاذها أخيراً، ولكن قصة الملك روميو الحقيقية كانت شيئاً مختلفاً تماماً.

كان اسمه «تاوتيرير»، كان يقفُ فوق صخرةٍ ضخمةٍ، على قمةِ جبلٍ مجهول وسط الأراضي الشاسعة غير المعرفة بالخرائط، كانت الخرائط مجهولةً لديه تماماً ولو أريناه واحدةً منها فسوف يعتقدُ بأنها سخيفة، بالنسبة إليه فهو لم يعشِ على تِلك الجزيرة بل في الكونِ بأكمله حيث الزمانُ والمكان اللامتناهي وحيث تُفسر كل الأشياء وِفق الأساطير المقدسة، لقد كان طويلاً، رجلاً قوي البُنية، حذراً ومتحفظاً وكان يرتدي جلد كنغرٍ أبيض على إحدى كتفيه، عبر سلسلةٍ جبليةٍ اتجهت نحوه مجموعةٌ من الرجال الذين كان يخشى قدومهم وفي نفس الوقت عقد العزم على ألا يخافهم، وهو واثقٌ من دهائه الخاص.

في ذلك الوقت لم يكُن الوصيّ هو الوصي، بالرغم من أن البعض كانوا يعتبرونه المُصلح، عرفه البيض باسم «جورج أوغسطس روبنسون» ذلك الاسم الذي اختصره السود بطريقتهم الخاصة إلى «جستر» وبينما

كان هو يحلُم بكونه المُصلح فقد كان يرفضُ الاستجابةَ لهم عند مناداته بجستر، لقد تسلق على سلسلة الجبالِ تلك بصحبةِ مجموعة من السودِ المروضين بغرضِ التفاوض.

كان المطرُ الباردُ ينهمر بشدةٍ، بينما كانت مجموعة روبنسون قذرةً ومليئةً بالقمل وقد تواءمت أرواحهم الوضيعة مع طِباعهم النكِدة، كانوا يشقُّون طريقهم منذ شهرٍ خلال تلك الأرضِ الخلابة وهم مُصمِّمون على جلب القبائل النائية لكنهم لم يُمسكوا بأحدٍ.

شقوا طريقهم خلال الغابات الماطرة الباردة، تاهوا في حدائق السُحب التي توشِح فيها الطحالب وجهَ السماء، شقوا طريقهم ببطءٍ على طول الشواطئ الفسيحة المحاطة بالمحيطات الغاضبة التي ترتفعُ وتنخفض كجبالٍ من المياه، تسلَّقوا سلاسلَ الجبال وهم يتوجَّعون من العُزلة في ذلك المُطلق الذي يَحيق بهم، الآن فقط عندما قاموا بتحيةِ ذلك الرجل الأسود استشعروا أن حظَّهم قد تغير.

كان «تاوتيربر» حذراً في رده عليهم، قال القليل ولكنه رحّب بروبنسون وحزبه.

اصطحبهم إلى وادٍ يتخلله جدول، ثم إلى غابةٍ مقطوعة الشجر حيث تنتصبُ هنالك قريةٌ شبيهةٌ بقرى القبائل الغربية مكونة من تجمعٍ صغير من الأكواخ المُسقفة بالقش، والتي تتسع لعشرين شخصاً، لكنَ مجموعة «تاوتيربر» كانت مكونة من ثلاثين فرداً فقط: ثلاثون شخصاً قوياً أو ضعيفاً، هذا يعتمد على الطريقة التي يراهُم الشخص بها ربما، فكر روبنسون بأن طاعون الرجلِ الأبيض والذي كان يُضايق السود في المستوطنات الشرقية قد وصل إليهم الآن وكان هو نذير شؤمٍ على وصوله.

تباطأ المطرُ تدريجياً ثم توقف تماماً، انزاحت الغيومُ عن سماءِ الليل المرصّعة بالنجوم وابتدأت النار الكبيرة بالهسيسِ، تحسس السُكان أطرافَ روبنسون في محاولةٍ منهم للتأكد إن كان يمتلك عظاماً أو هل هو شبحٌ ما، ثم جعلوه يلوّنُ وجههُ بالسخام وكأنهم بهذا كانوا يجعلونه أكثر تقبلاً لديهم، ثم شرع كل السود البريون والمروضون بالرقصِ والغناء وسط الغابة، استسلم روبنسون لتملقهم أخيراً وبالرغم من انزعاجِه وشعوره بالحرجِ فقد انضمَّ إليهم، اجتاحَ الفجرُ تلك السماوات الجنوبية عبر أمواجٍ من الروح النقية، واصطبغ الكون بأشرطةٍ ملونةٍ من الضوء الأحمر والأخضر، ألحَّ تاوتيرير على روبنسون بأن يقوم بخلعِ ملابسه وهو مغلوبٌ على أمره بمنطقٍ لم يفهمه فقد تعرّى روبنسون.

لقد قلق للحظاتٍ بأن هذا هو ما يستحقه في الحياة، أن يكون عارياً، وجد نفسه يقفز ويضرب برجليهِ وهو يطير تائهاً في عزلةٍ غريبةٍ تحت أضواء الجنوب، هل كانت تلك هي مكافأته الحقيقية عوضاً عن النقود التي سيتسلمها لو قامَ بإحضارِ كل هؤلاء المحليين؟

سوف يتذكر هذا لاحقاً، بكونه حماقة ولكن في ذلكَ الوقت وهو يقفزُ ويعوي بينما تتصاعدُ ألسنةَ النار وهو يشعر بدفئها على فخذيه العاريتين فلم يكُن يعلم شيئاً ولم يتمكن من قولِ شيء.

في تلك الليلة كان الكون يتدفقُ خلاله، كان منفتحاً على كُل شيء، كان يعيش الحياة لنفسه ولأناسٍ آخرين، بطريقة لم يعهدها مسبقاً، شعر ليلتها بأنه كان معلّقاً بين النجوم والجبال، الغابات والنار، كانت الرقصةُ تصيبه بدوارٍ ماكرٍ وبهيج في الوقتِ عينِهِ، لم يكن أمراً منطقياً كان شيئاً خارج حدود الإدراك، للحظةٍ ـ ربما هي اللحظةُ الوحيدة في حياته ـ شعر روبنسون بأنه تحرر إلى شيءٍ خارج حدود نفسه.

لا يُمكن لهذا الأمر أن يستمر.

عندما ذهب إلى خيمتِه وشاهدَ رسالةَ الحاكم «آرثر» وهي مطويةٌ أمام دفتر مذكراته، تذكر روبنسون وبشكلٍ مفاجئٍ الشيء الذي كان متوقعاً منه، ومن كان هو حقيقةً ولهذا السّبب بالذات فليس أمامه سوى احتجازِ هؤلاء السود وإحضارهم إلى العالمِ الذي لم يكد يكون مُرحِباً بهم، كل هذا كي يتمكن من صناعةِ شيءٍ لنفسه وعائلته، كي يسمو ويشتهر كرجلٍ ذي مكانة وسمعة طيبة، رجلٍ مُرحَّبٍ به في صالونات المجتمعِ الراقي حيث لا أحد يرقص عارياً، ولا أحد فيه ينفتحُ على الآخر، حيث تدربوا جميعهم على التقوقعِ حول أنفسهم وحول كل شيء يُحيط بهم.

شعرَ بأنه فاشلٌ مثل كل أولئكَ الذين كانوا يرقصون حوله.

شوشت تلك الأفكارُ ذِهنه وشعر برأسِهِ يُصبح أثقل، كان شخصاً محكوماً بالعقيدة وكان يعتبر تلك الأفعال إلحاداً معلناً، كان ذهنه مزدحماً بأفكار يعرف جيداً بأنها ليست مُجَدِّفةً فقط بل وشيطانية، تساءل هل وجد الربُّ كي يكون مجرد عقبةٍ بين الإنسان وروحه؟ وهنا تبقَّت لديه ذكرى واحدة فقط، الضوءُ الجامحُ للنار وهم يلهون حولها ويترنمون بحدةٍ، ثم خلد إلى النوم.

استيقظ روبنسون بشكلٍ مُفاجئٍ قُبيل الفجر وهو متوجسٌ من حضورٍ غير مرحبٍ به قربه، جلس مُنتصباً ثم استدار بصورةٍ عفويةٍ ليرى امرأةً محلية تجلس خلفه أمام الخيمة، حاول أن ينشّها بعيداً لكنها أشارت بعصا طويلة إلى الجراب الذي كان يُخفي فيه مسدساته الثلاثة، لقد اكتشفوا كل شيء.

لكم ندمَ على حملهِ لتلك المسدسات، لن يثقوا به بعد هذا، أدرك ذلك، مهما حاول أن يُظهر حُسن نواياه أو عدم رغبته باحتجازهم، لا يهم كم كان سيعطيهم من الشاي أو الخبز، ولا يهمُ إن كان قد خلعَ ملابسه وانضمَّ إليهم في عريِّهم الفاجر، هو لم يكن ينوي أن يوجه الأسلحةَ النارية نحو المحليين ـ لقد علم مسبقاً أية كارثةٍ ستكون تلك، لقد كانت المسدسات للدفاع عن النفسِ فقط أو لاستخدامِها كإجراءٍ يائسٍ أخير.

كانت طريقته هي ـ الإقناعُ والمنطق ـ لأنه خلف كل تلكَ المفاوضات فقد حضر رجاله مع بنادقِهم على سفح الجبل، لماذا يلمّعُ مسدساته ويُطلقهم إذن لو توفرَ لديه من يقوم بذلك عوضاً عنه؟ كان روبنسون جزءاً من مجموعةٍ جوالةٍ تبحث عن المحليين في الأدغالِ، لكنه كان الوحيد الذي يعد بالحياةِ لا بالموت.

عند حلولِ الصباح كانت المرأةُ من قبيلة «تاوتيرير» تلك قد رحلت، قال تاوتيرير بأنهم قد ذهبوا لصيدِ السمك، ولكنهم لم يعودوا حتى بعد حلول الليل، بينما استمرَ تاوتيرير بالإصغاءِ بدقةٍ لنقاشِ روبنسون وكأن اختفاء نصف قومه لم يكُن أمراً مهماً.

من خلال المحارب الأسود الذي كان يقوم بالترجمة أخبر روبنسون تاوتيرير بأنه لن يتمكنَ السُكان المحليون من الفوزِ في هذه الحرب، كان يعرضُ عليه الرأي المنطقي الوحيد المُتبقي وهو: اللجوءُ إلى جُزر باس سترايت كبديلٍ عن أرضهم وسيتم هناك تزويدهم بالطعام، بكلِ الأشياء الجيدة الموجودة في عالم البيض، الملابس، المأوى، الشاي، الطحين والرّب.

كان روبنسون مُقنعاً إلى الدرجة التي صدّقَ فيها نفسه، وفي الليلة الثانية رددت الغابةُ صدى أغانيهم ورقصهم، ذهبَ روبنسون مرةً أخرى

إلى فراشه ومرةً أخرى استيقظ قُبيل الفجر لكن هذه المرة لم يكن هُناك من خفيرٍ عند خيمته، لقد اختفى كل السّود البريّين خلال اللّيل من دون أن يوقظوا روبنسون ورجاله، إن قبيلة «تاوتيرير» لن تسمح بأن يتِمّ احتجازها بأيّةِ كميّةٍ كانت من الأكاذيب.

عندما عاد روبنسون إلى الجنوب الغربي بعد ثلاثةِ أعوام، كان كل شيءٍ قد تغير، قام روبنسون بإلقاءِ القبض على السود الذين لَمْ يُقتلوا في الحرب ثم أرسلهم إلى معسكر اعتقالٍ على جزيرة فلاندرز والذي سيصبح مستوطنة وايبالينا فيما بعد، بعضٌ من المحليّين فقط كانوا قد تبقّوا في تلك الأقاصي النائية، أعلنت السّلطات ضرورةَ جلبِهم كي ينتهي إلى الأبد التهديدُ من تنامي مقاومة السّود.

أمرَ روبنسون فريقه المكونَ من المحليّين المروضيين بأنَّ إظهار القوة أصبح أمراً لا بدَّ منه كي يُحققوا هدفهم الأخير، قامت حاشيةٌ صغيرةٌ من البيض بتلميع أسلحتها بينما قام السّود بسنِّ حرابهم على النّار.

وسط عاصفةٍ بدت وكأنها لن تتوقف قام المُحاربون السود بمهاجمة الطّرف الجنوبيّ بصحبة عددٍ من السّود المروّضِين، بينما انتظر روبنسون بعد أن أعطاهم أوامره بكلمةٍ واحدةٍ. «تاوتيرير».

بالنّسبة لروبنسون فإنه لم يتمكنْ من نسيان الزعيم الجنوبي الغربي ذاك ولا مناوراته الحذرةِ الذكية، هو لم يكن مطيعاً ولا مُتملقاً كالآخرين، ولم يكُن غبياً للدّرجةِ التي تجعله يهاجِم أو يهرب ولكن شجاعاً كفايةً كي يرتبط بصداقةٍ معه وماكراً كفايةً كي يرحل في صمت.

بعد أسبوع عادَ المحاربون السّود ورجال روبنسون خلالَ الأمطارِ والثّلوجِ المتساقطةِ مع ثمانية محليّين بريّين، ولم يكن تاوتيرير من بينهم، ولكن كان قد استقرَّ على كتِف أحد المحاربين شيءٌ يتدلّى من

جلد كنغر، اقترب المُحارب من روبنسون وفتحَ الصرّة المعلّقة إلى صدرِهِ وداخل الجلدِ الرماديّ الصّقيل كان يقبعُ طفلٌ، إنه ابنة تاوتيرير.

أخبره المُحارب الأسود كيف أنّهم قاموا بنصبِ فخ لتاوتيرير والبقيّة المتبقيّة من قبيلته وسط العاصفة وادّعى بأنّ تاوتيرير كان قد هَجر الطّفلة كي يلوذَ بالفِرار مع زوجته «وونكيرنيب».

كتب روبنسون قصّة المحارب غير القابلة للتّصديق في مفكّرته، لكنه لم يصدّقها أبداً، كان متأكّداً بأن المحارب الأسود قام باختطافِ الطّفلة كي يجعل منها فخّاً لاجتذابِ والدها، لقد أُعجب روبنسون بدهائه واحترمَ لباقته في تلفيقِ حكاية الهِجران تلك.

في اليومِ التّالي كان الجو قد أصبحَ رائقاً قُبيل الفجر، هرولت الغيومُ الداكنةُ بعيداً تاركةً السّماء ترفلُ بزرقةٍ شديدةٍ ومتجّمدة، لقد تغير قوم تاوتيرير أيضاً فقد أصبحوا أكثر ثقةً وحماساً، وخشيةً من احتمال هروبهم، فقد أمر روبنسون رجاله بأن يحيطوا بهم من كلّ الجوانب. مع السّودِ المروّضين وحرابهم الحادّة والبيض وأسلحتهم المحشوّة فقد أُخذ قوم تاوتيرير البؤساء تحت هذه الحراسة المشدّدة كي يُحتجزوا في معسكرٍ عند هيلز جايتس.

لقد تألم روبنسون من اضطراره إلى تهديدهم، أوجعهُ رأسهُ من مغبةِ ذلك واعتُصرت معدته.

«لقد كانوا بالنّسبة إليّ دائماً» كتب في مذكّراته «أدوات إشفاقٍ متزايد».

شعر بحاجته إلى الصّلاة لكنه حالما وضع ريشته جانباً أحس بشعورٍ مُقرفٍ دافئٍ لزج على مقعده، ثم أدرك بأنّه كان قد تغوّطَ في مكانه، شعر بالوهن ولكنّ ذهنه كان ثابتاً وصافياً، عقد العزم على ألاّ يأكل شيئاً حتى

تستعيد معدتَه توازنها ثم سيتّجه جنوباً كي يُلقي القبض على آخر المحليّين بنفسه، علم بأن الأمرَ لن يكون صعباً فبعد كل شيء كانت لديه الطفلة.

بعد يومين وعند الفجر انطلق مع ابنه وأربعة من السّودِ المروَّضين وهم يتتبّعون آثار الأراضي المحروقة من قِبل السُّكان المحليّين كي يتمكّنوا من شقّ طريقهم خلال الغابات الكثيفة وأراضي المستنقعات، مشَوا ليوم ونصف يوم حينما لمحوا تاوتيرير وزوجته على إحدى الهضاب، أمر روبنسون مجموعته بالاستلقاءِ أرضاً، ثم اقترب منهما بصحبة امرأةٍ سوداء كي تقوم بمَهمةِ التّرجمة.

كان تصرّف تاوتيرير مع روبنسون قد تغيّرَ كثيراً بعد آخر مرةٍ التقيا فيها، لقد بدا مُتهلّلِ الأسارير لرؤيةِ الرّجل الأبيض، وأخبر روبنسون بأنهُ يعتبره صديقاً عزيزاً قديماً، أخيراً سأل تاوتيرير عن ابنته وقد كان اسمها كما قال هو ماثينا، «لقد تعلّمت الصّلواتِ الآن» أخبره روبنسون «إن لديها مستقبلاً لامعاً بالتّأكيد».

قال تاوتيرير إنه يقدّر روبنسون من كل النّواحي كأنه فردٌ من أفراد عائلته، لقد كان تاوتيرير يحاول ابتكار طريقةٍ جديدةٍ للتّسوية مع الشّيء الذي سيضطرّ إلى الصّمودِ أمامه وربما مقاومته لمحاولته استعباده، حتى لو كان واهماً فقد كانت تلك محاولةٌ منه لإنكارِ الثّمن المروّع الذي يقتضي عليه دفعه لجمع شمله مع ابنتِهِ المُختطفة، «وأنا لا أعتبرك وقومك بأقلّ من هذا» قال روبنسون «ولهذا فأنا أتمنى أن تأتي معي وتلتحِق بابنتك وبإمكاننا معاً أن نبتدئ معجزة الحياة الجديدة».

لو كان تاوتيرير مجبراً على ذلك الفعل العاطفيّ فقد تمكن روبنسون من رؤية شيء فريدٍ فيه: إدراكٌ كاملٌ بأن تلك كانت طريقةٌ متميزةً تمكنهم من الآن فصاعداً من التعامل مع أحدهما الآخر، بالنّسبة لتاوتيرير فقد كان يرغبُ بابنتِه ولم يكن غبياً أما روبنسون فقد رغبَ

بتاوتيرير وقد كان هو الطّريق الوحيد للعودةِ إلى طفلته، شعر روبنسون بالاستقرارِ في معدته.

في صباحٍ حماسيّ بعد أربعة أيام انطلقت السّفينة الشّراعية «كوليفر» لنقل هؤلاء المحليّين الذين احتجزهم روبنسون إلى مستوطنة السكّان المحليّين النّامية في جزيرة فلاندرز البعيدة ـ لاحت السّفينةُ أخيراً في المدى وهي تُبحر مع الرّياح الشّمالية الغربيّة الدّافئة «إنّهم بالنّسبة إليّ دائماً» بدأ بالكتابة في مذكراتِهِ تلك اللّيلة وهو يتطلعُ من خيمتِهِ إلى البقيّة المثيرة للشفقةِ من السُّلالة التي تنتظر أن يتم نفيها بعيداً عن وطنها الأم، تردد قليلاً وقام بشطبِ تلك البداية ثم ابتدأ مرةً أخرى.

«وصل الكابتن باتمان في الساعة الخامسةِ والرياح شماليةٌ غربيةٌ»

أخبره الكابتن باتمان بأن ثلاثة عشر شخصاً من السّودِ كانوا قد ماتوا قبل أيّام عدّة على مستوطنةِ جزيرة فلاندرز، أدخل روبنسون هذا في مذكراتهِ ولكن من دون الإشارة إلى تعقيب باتمان الأخير «إنهم يموتون مثلَ الذُباب».

أعلن باتمان اندهاشه من نجاحِ روبنسون الحالي، شعر روبنسون بأن معدتهُ، رأسه ومِزاجه كان يتحسّنُ بشكلٍ ملحوظٍ، لقد نسيَ كل ما يتعلقُ برقصته تلك تحتَ الأضواءِ الجنوبيّة.

«معي» كتب روبنسون «لقد أتيتُ، لقد رأيتُ، لقد انتصرتُ».

لم يؤدِ موت «وونكيرنيب» بعد عامٍ من وصولهم إلى وايباليَنا إلى اكتئاب ابنتها بل أدى بشكلٍ غريبٍ إلى العكس، فقد أصبحت الصغيرةُ أكثر ألفةً وحيويةً وأكثر فضولاً لما يقوم الآخرون بفعله، استاء الوصي كثيراً عندما علم أنه عوضاً عن الدفن المسيحيّ اللائق في مقبرته فقد قام تاوتيرير بأخذ جسد «وونكيرنيب» إلى قمةِ تل فلاكستاف حيث قام هناك بإشعال نارٍ ثم أحرقَ فيها زوجته، راقبت ماثينا الدُخان المتصاعد نحو

النّجوم وهو يُغلف القمر متسبباً بارتعاشهِ بينما في الأسفل كانت والدتها تتفحمُ متحولةً إلى رَماد.

بدت «ماثينا» بعد ذلك دائماً حول أقدام الآخرين وكأنها كانت تبحث لنفسها عن أمّ بديلة وبالرّغم من صِغر سنّها فقد كانت تمتلكُ الفطنة التي تجعلها ذات فائدة دائماً وليست مصدراً للمشاكل، ولهذا فقد كبرت ماثينا إلى طفلةٍ حيويةٍ، لم تتأثر كما يبدو بالبؤسِ المتنامي والفتور الذي أصابَ مستوطنة وايباليتا، وهي تُصغي إلى قصص والدها عن الأكوان التي يكون فيها الزمنُ والعالم لا مُنتهياً وحيث يُفسّر كل شيء وفقاً للأساطير المقدّسة.

«ذلك الزنجي سيد روبنسون» تساءل السيد جون «تاوتيرماجيك أو شيء من هذا القبيل ـ أنت تقولُ بأنه كان ذا تصرفاتٍ جليلة؟».

وكجوابٍ عن ذلك السّؤال وبعد أن انتهى الوصيّ من سردِ تقريره عن لقائه بتاوتيرير والذي لم يُفصح عن أي شيءٍ حدث حقيقةً، فقد نهض واقفاً وتوجه نحو خزانةٍ جانبية فأخرج منها صندوقاً خشبياً بُنّي اللون، بدا وكأنه قد صُنع ليلائم قبعةً ما، جلب الصّندوق كسرٌ مقدّس تحت ضوء الشّمعدان المُنعكس على الطّاولة، «لقد صُنع من خشب الصّنوبر الموجود في أرض فانديمون» قال «تحت إشرافي من قِبل مارك أنتوني».

اهتزّت الطّاولةُ على ألواحِ الأرضيةِ الخشبية عندما انحنى الحضور نحوَ الأمام كما تفعلُ أزهار شقائقِ النُعمان كي يَرَوا تلك الأعجوبة بشكلٍ أفضل.

«إنه يبدو مثل المسلمين» قال الوصي «ويعتبر نفسه مثل صلاح الدين».

ثم قام بفتح الصندوق، حدّق كل من على الطاولة بصمتٍ عندما

أخذ شيءٌ مجهولٌ يتشكّل خلال الظِلال اللزجة حتى اتخذ أخيراً شكل جمجمةٍ بشرية بشكل أكيد.

«أُقدم إليكِ الملك روميو آخر ملوك بورت دافي» بعد لحظاتٍ عدة من الغَمغمة الهامسة سُرت السيدة جين بهديتها وسُرت أكثر بقصةِ مَنْشَئِها فقد اعتبرَت تلك الجُمجمة كعينةٍ رفيعة على تلك السلالة، شكرت الوصي على هذه «الهدية المتميزة» ثم أضحت أكثر حيويةً.

«وهذا الملك روميو» قالت «هو والدُ تلك الصّغيرة الجميلة التي رأيناها ترقُص هذا المساء؟».

«نعم إنهُ كذلك» قال الوصي.

«وتلك الفتاة الصغيرة لا تمتلك الآن والدةً ولا والداً ولا عائلةً؟».

«لديها عائلةٌ سيدتي ولكنهم ليسوا من المقربين، إنّهم ينظرون إلى هذه الأمور بشكلٍ أكثر تحرراً عما نفعل، بالنّسبةِ إلينا فإن العائلة هي خيطٌ متينٌ وبالنّسبةِ إليهم فهي محضُ رباطٍ مُخرم».

«إنها يتيمةٌ إذن؟».

«حسب تقديرنا» قال الوصي «إنها يتيمة».

«لن يُشكِّك أحد في عملكَ الجيد هنا سيد روبنسون» قالت السيّدة جين بصوتٍ مرتفعٍ نسبياً لأن أحد الكِلاب كان قد ابتدأ بالنُباح في الخارج ثم تلاه آخرَ فآخر حتى ضجّت المُستوطنة بعواءِ عدد لا متناهٍ من الكلاب الجائعة.

«ولكن أي دليلٍ لدينا على أهميّةِ أفعالك أكثر من تربيةِ شخصٍ واحدٍ على كل تلك الميزات الرفيعة والنّظام»؟ ثمّ استدارت نحو زوجها قائلةً بصوت مرتفع «ألا تعتقدُ هذا سيد جون».

تمتمَ السيد جون بموافقةٍ متلعثمةٍ، توقفت الكِلاب عن النُباح واستقر

الكلام على نبرةٍ أكثر ثباتاً وثقةً عندما أعلن السيد جون أنها ستكون تجربةً ثريةً لتعزيز الروح من الجانب العلميّ والربّاني «لو غمرنا تلك الأرواح الضائعة بالنّور السّماوي فلن يكونوا بأقلّ صلاحاً مِنا» قال «ولكن يتوجب عليهم أولاً الخروج بعيداً عن الظُلمة وعن تأثيرها الهمجي».

قبل وصولهم كانت السيدة جين قد طلبت في رسالةٍ عيّنةً علمية ـ جُمجمة لما سمته بالسُّلالة المُنقرضة ـ وهذا ما كان الوصيّ سعيداً بتنفيذه، كان يشعر بالغِبطة وهو يقوم بقطع ثم سلخ ثم سلق جُمجمة صديقه وهو يعلم بأنها ستذهب إلى أناسٍ رفيعي المستوى وذوي ذهنٍ علميّ مُتّقد، لكنّه لم يكُن يتوقّع الطّلب الذي سيُوجّه إليهِ الآن على مائدةِ العشاء، لقد أعلنت السيدة جين عن رغبتها في تبنّي أحد الأطفالِ المحليّين وكأنهُ الطلب الأخيرُ على قائمةِ الطّعام الطّويلة.

«ستكون بمثابة ابنتِنا» قالت السيدة جين.

«أنا سأختار...».

«لقد أسأتَ فَهمنا» قالت السيدة جين مبتسمة «لقد قُمنا بالاختيارِ فعلاً».

وعندها فقط قامت السيدة جين بتسميةِ الطفل الذي ترغبُ فيه أكثر من أي طفلٍ آخر، تلك التي شاهدتها ترقُص وهي مرتدية جلد كنغرٍ أبيض اللون.

«إنها هي» قالت «ماثينا».

٦

لكن ماذا عن ديكنز؟ بالنسبة لهؤلاءِ الذين تتبعوا أعظم لغزٍ في ذلك العصر فإن فرضيّةَ أكثر الكُتاب شعبيّةً في تلك الأيام وهو يطرح خلالها وجهةَ نظره أمام قُرّائه قد كانت أمراً لا يُقاوم.

لقد نُشرت مقالة «الرحلة القطبية التائهة» في هاوسهولد ووردز في وقتِ أعياد الميلاد في عام ١٨٥٤ ـ «ليس هنالك من وقتٍ أفضل من هذا»، أخبر ديكنز ويلكي ذاتَ مساء، «كي نُفكر بشكلٍ دافئٍ وحنون في هؤلاء الذين تجمدوا بشكلٍ بائسٍ»، لم يكُن تقرير الدّكتور راي المُبتذل نِداً لديكنز، لقد انتصرت مقالته تلك وبيعت تلك الطّبعة بشكلٍ استثنائي جيّداً، لقد حظي جدال ديكنز بالظّفر: لو كان السيد جون قد هَلك فلسوف يهلكُ بشكل نبيلٍ عظيم وبطوليّ وليس كبربريٍّ جاحِظ العينين.

لقد استخدم ديكنز اسمه لتسكينِ غضبِ الإمبراطوريّة المُتصاعد ولم يكُن ثمة شخص غير ممتنٍ لذلك، وعلى هذا الأساس فقد اتشحت السيدةُ جين بالسّواد، يبدو أن جهودَ حياتِها في تحويل زوجها الغبي إلى رجلٍ عظيم وتخليصه من حماقته المتزايدة قد أثمرت أخيراً، تحدث ديكنز في العشاء الخيريّ الذي قامت بتنظيمه لإرسالِ بعثات إنقاذٍ إضافيّة، «إن الهدف ـ بغياب الدلائل المُفضل الآن، هو إعلانُ نجاح

السيّد جون غير القابل للشكّ في إيجادِ المعبر الشماليّ الغربيّ الإسطوريّ».

لقد كانت محاولاتُ ويلكي لرفعِ معنويات مرافِقه بالشرابِ وبالبراعم أقل نجاحاً، كان اختلافُ ديكنز مع الدكتور راي ومع أكلةِ لحوم البشر قد أطلق ضجّةً كبيرةً حوله، لم يتمكن ديكنز بنفسهِ من الفِرار من شعوره المتزايد بأنه كانت هناك سُلطة عُظمى حوّلت العالم بأكمله إلى ميدانٍ للقتال، لم يعد مهماً كم وساماً للشرف سينال، كم عِناق ظفرٍ أو احتفاء سيُصادفه في طريقه، الإطراء، التّهاني، التّرحيب أو الجوائز التي وُهبت له، لم يهم كل هذا، فكّل الحديدِ كان صدئاً وكلّ الصّخور لزجةً وكل الهواء كان نتناً وكلّ ضوءٍ كان يتلاشى. وبالرّغم من هذا فقد كان أمامه طريقٌ واحدٌ فقط كي يسلكه وذلك الطّريقُ هو نحو الأمام، دائماً نحو الأمام وبلا توقّف بتاتاً.

كان قد ابتدأ في الخريف بكتابة روايةٍ جديدة تُهاجم سياسةَ الحكومة وحماقة الحكومة، الأنظمةَ الحكوميّة المقيتة والمكاتب الحكوميّة، وقُبيل الانتهاءِ منها كان أكثر غضباً، أشد حزناً وأكثر ضياعاً في أمواج حياته الجليديةِ القاسية.

للمرة الأولى لم تُسعفه الكلمات، والتي كانت فائقةَ العظمة وتسببت بنجاح روايته الجديدة «دوريت الصغيرة» كما سماها والتي كانت في ازدهارٍ متزايد كحلقات متسلسلة.

لقد استمرّ في زواجه، استمرّ في الاعتقاد بأنّه ومثل أي شيءٍ آخر في حياته كان بالإمكان إصلاحه بواسطة إرادته القويّة، كانت لديه مُشكلة في الوجود مع زوجته في نفسِ الغرفة ولكنه استمرّ بالرّغم من كلّ هذا، استمرٌ في تشجيعه للحياةِ الأسريّة في كتاباته وهو يحاول عدم

التّفكيرِ بأن هذا قد يكون الشّيء الوحيد الذي أضاعهُ في الحياة، ربما هو لم يكن موجوداً في الأصل أو حتّى لو وجد فلن يكون سِوى قضيب آخر من قُضبان ذلك السّجن.

استمرّ في رؤيةِ البياض المُتجمّد في المعبر الشّماليّ الغربيّ، واستمرّ في الشّعور بنفسه محتجزاً فيه برفقةِ جُثمان السيد جون، استمرّ في الحُلم بأنه كان واحداً من هؤلاء البحّارةِ التّائهين الذين يشقّون طريقَهم خلال ذلك العالم القطبيّ الاستثنائيّ والمريع الذي اعترض سفينة السيد جون المُتجمّدة، هنا فقط سيُدركون السّكون، هنا سيكون الدّفء والطّعامُ، هنا سيكون هؤلاءِ الذين يعرفون الطّريق إلى المنزل، لكن بحثه في حُجرات السّفينةِ الصّامتة المتجمّدة لم يُسفر سوى عن جثةٍ متجلّدةٍ تِلو أخرى.

شيءٌ ما كان يتدفّق خِلاله ولا يهمُّ كيف، فقد كان يُغذّي جذوته، لقد اختار أن يحظى بالمرحِ مع الرّفقة الطيّبة، لكنّه كان يُفضّل العُزلة، لقد تحدّث هنا وتحدّث هناك، تحدّث في كلّ مكان، ولكنه كان يشعر بارتباطٍ أقلّ وأقلّ إلى كلّ هذا.

لقد مشى أكثرَ من ذي قبل، سافر عبر البِحار أكثر، ولكن في داخله كان يشعرُ بأنّه ثابتٌ في مكانه كعجلةٍ معطوبةٍ، لا شيء يتحرّك.

عقد العزم على قضاءِ عام كامل في العُزلة في جبال الألب السويسريّة مع الرُّهبان ورهطِ «سانت برناردز»، عقد العزم على الانتقالِ إلى أستراليا، عقد العزم على الهرب من نفسه ولكن ليس ثمّةَ مَهرب. أحسّ بشفقةٍ متعاظمة تجاه المتسوّلين والمُعدمين الذين يراهم في كل مكان، ازدرى النّاس الذين كان يُحادثهم غالباً، لكنه لم يتمكن من فَهم لماذا تبدو زوجته والتي كان لا يتحدّثُ إليها مطلقاً خائفةً ومُتجهمة،

لماذا تتحدّث إليهِ بالقليل وعندما تفعل فإنّ حديثها يكونُ صارماً غالباً، لقد شكّ في أنّه يكرهُ نفسه، شعر بأنّه من المُمكن أن ينفجر لو لم يتمالك نفسه.

في القطار إلى «دووفر» كان يقرأ مقالةً لقبطانٍ صائد للحيتان، كيف أنّه عند نقطة معيّنةٍ في الشتاء في المنطقة القطبيّة فإن الكُتل الجليديّة المُنجرفة تتحدُ مع بعضِها البعض مُكوّنةً كتلةً كبيرة مُتجمّدة، وأنّ أيّ سفينةٍ سيّئة الحظ كفايةً لتُحتجز هناك فلن يكون بمقدورِها الحركة ولسوف تُعتصر بقوةٍ أكبر فأكبر، وكلّ شخصٍ على مِتنها سينتظر أن ينزّ الزّيت التوربينيّ من ألواح السّفينةِ ببطءٍ حتى تنسحق، كان كلّ شخصٍ يصغي إلى صوت تأوّهِ الأخشاب المُعذّبة، لا يمكن لأي أحدٍ أن يفعلَ شيئاً سوى الانتظار، وهُم غير مُدركين متى سيتحطّم القارب ويموتون. كان يمكنُ لهذا أن يكون وصفاً لحياتهِ الخاصّة، «أنا أعتقد بعدم وجودِ شخصين قد خُلقا على قدرٍ أكبر من الاختلاف» صرخ بهذا لويلكي ذات مساءٍ في «المونمارتر» وهما ضمن الحشود الصاخبةِ التي كانت تتفرّجُ على مصارعة اثنين من الأتراك، كان أحدُهما ضخماً ومصاباً بالجرب بينما بدا الآخرُ ضئيلاً وصلباً بشكلٍ غريب.

«إنه أمرٌ مستحيل...» شعر لدقيقة بأنه تائهٌ عن الكلمات «ليس هناك اهتمامٌ، تعاطف، ثقةٌ، هوى أو اتحادٌ حنونٌ من أي نوعٍ»، قال بملل وكأنه يصِف رائحة بالوعةٍ نتنة.

لم يعرف ويلكي ما الذي يفعله كي يُظهر تعاطفه، هل سيُشجع شيئاً ربما من غير الصّائب دعمُه، قد يندم على أيّ كلمةٍ طائشة لاحقاً، ولو لم يتفاعل معه فسوف يبدو قاسياً وغير مختلفٍ عما كان يستهلِك الرّجُل بالأساس، ولحسن الحظ قبل أن يُقرّر كيف سيستجيب فقد كان ديكنز يتحدّثُ ثانيةً «إنّه مقدارٌ هائلٌ من الحظ السيّئ»، قال وهو يهُزُّ رأسه

ويبدو على غير العادةِ محتاراً «إنه حظٌّ سيّئٌ هائل بالنّسبة إليّ، إنهّا الشّخص الوحيد الذي أعلم بشكلٍ قاطع أنّني لن أتمكّن من الانسجام معه بطريقةٍ أو بأخرى، أنا أعرف أنّ لديّ كثيراً من الأخطاء»، هز رأسه ثانيةً وكأنه يعمل على حلّ لغزٍ لا تتلاءم أجزاؤه «التي» قال وهو يُحاول المواصلة «تعود إلى خبرتي في الخيال، ولكنّني صبورٌ وعاطفيّ وقد أتمكن من اختيارِ نهايةٍ أفضل لتلك الرحلة عمّا آلت إليه لو تمكّنتُ فقط من...».

كان ويلكي مرّةً أخرى يواجِه استحالةَ معرفة كيفيّة استجابتِه، وللمرّة الثّانية فقد واصل ديكنز ولكن بنبرةٍ أكثر قنوطاً، أشدّ مرارةً وعزماً وهو يقول بأن كاثرين لم تهتمّ يوماً بأطفالها وقد أظهرت لهم القليل من العاطفة، أمامهم كان التّركيُّ الأجرب قد تمكّن أخيراً من أن يسمّر غريمه إلى الأرض بينما زمجرَ الحشُد حولهما بالتّشجيع ثمّ بالضّحِك عندما بصقَ التُّركيّ في وجهِ رفيقه.

بعد أمسيةِ المصارعة التّركيّة لم يَسمع ويلكي ديكنز يتحدث عن زواجهِ مرّةً أخرى - أو على الأقلّ ربّما وصلت الأمورُ إلى طريقٍ مؤسفٍ، إلى درجةِ عدم تمكُّنه من التّحدّث عن شيءٍ آخر. لقد ازداد نشاطُ ديكنز في الوقت الرّاهن وأصبح أكثر اهتياجاً، مشى أكثر فأكثر، حضر مناسبات أكثر، وحمل أعباءً أكثر، لقد وجد نفسه ذاتَ مساءٍ يجلس مع ويلكي في مسرح ساحة كوفنت كاردن وهو يتفرّجُ على روميو وجولييت، كان المزجُ بين الواقع والخيال في العرض، الشّعر، الأضواء، الزّفقة، التّغييرات المثيرة للدّورانِ في المشاهدِ المُبهرجة والمتألّقة قد أسعدت ديكنز، وحينما خرج إلى الشّارعِ الماطر في مُنتصف اللّيل شعر وكأنّه كان يقوم بالهبوطِ من السّحابِ، إلى عالمِ بغيضٍ من الوحل والضّجيج والبؤس.

ولكي يؤخّر هبوطه بضعَ دقائقَ أخرى حاول أن يرفع نفسه مُتّجهاً نحو الأعلى ثانيةً بالتّحدثِ عن مسرحيّته القادمة للهواة، والتي كان يُنظّمها كل عامٍ في منزلِ «تامي ستوك»، كانت العائلة والخدم والأصدقاء من سيقوم بدورِ الممثّلين وكانت نقودُ التّذاكر ستذهب إلى أحد المشاريعِ الخيريّة، كان نِتاج ديكنز ذاك قد أصبح حدثاً مُهّماً في التّقويم اللّندنيّ.

«المشكلةُ أنّ العامَ يتراكض بسرعةٍ» قال ديكنز لويلكي «وما زلت لا أمتلكُ أدنى فكرةً عن ماهيةِ مسرحيّتنا المقبلة».

عندما اتجه الاثنان نحو الشارعِ القذر، نحو منزلٍ كان ويلكي قد امتدحه بكونه متميّزاً جداً في تقديم المُتع المُترفة، كان الموتُ الذي زخرت به نهاية المسرحيّة التي شاهداها توّاً إضافةً إلى اهتمامِ ديكنز البالغ ببعثةِ السيّد فرانكلين قد ألهما ذِهن ويلكي باقتراحٍ ما.

«الأفكارُ الجامحة تجتاحُني مجدّداً ويلكي» كان ديكنز يُخبر صديقَه «أكثر جموحاً من ذي قبل، الذّهابُ إلى باريس، روان، سويسرا، إلى أيّ مكانٍ، أنا أستطيع أن أكتُب بحماسٍ في غرفة غريبة في نُزل ما، أنا متحمّسٌ جدّاً ويلكي».

«تخيّل ذلك» ابتدأ رفيقه بالكلام «لو كانت مسرحيّةُ الاثنتا عشرة ليلة خاصّتك مُشتقّةً من ذلك العالم البارد الأبيض».

«أنا بحاجةٍ إلى تغييرٍ ما ويلكي ولكنني مُجبر على العيش في المنزل مع زوجتي، يقولون إن يسوع كان رجلاً صالحاً ولكن هل سَبق له أن عاشَ مع امرأة؟».

سعل ويلكي.

كان ويلكي يُحب النّساء وقد شعر أن انتقادَ ديكنز للنّساءِ كان أمراً

قاسياً، وعلى عكس صديقِه العجوز فلم يكن ويلكي انفعاليّاً ولا تقليديّاً في ما يتعلقُ بهنَّ، وكان يتمكّن من العيش مع امرأتينِ في نفس الوقت دونَ أن يتزوّج بأيٍّ منهما، كانت آراءُ ويلكي غير التقليديّة تُثير اهتمام ديكنز، كان لديه رأي متفرّد بخصوصِ التنويم المغناطيسيّ، الاحتراق الذّاتيّ للبشر وملوكِ الجان.

«ذلك العالمُ» أكمل ويلكي وهو يُحرّك إصبعه بشكلٍ مرتعش أشبهُ بارتعاشِ مصباح الغاز، هو وللحظةٍ لم يرَ رجلَ الحُروف في قمّة مجده ولكنه رأى مخلوقاً مسكيناً وعجوزاً بشكلٍ استثنائيّ «أين انتصر باري»، في الواقع لم يكن متأكّداً من تناسق الفِكرة، ثم ابتدأ بالتّشكيكِ بكونها فكرة سيّئة جدّاً وواصل قائلاً «وأين توفيّ فرانكلين»؟

استدار ديكنز ونظر بتمعّنٍ إلى ويلكين ولكن كلّ ما تمكّن ويلكي من سَماعه كان الصّوتَ الغريبَ لديكنز وهو يمتصُّ لسانه، عندئذ انحنى ديكنز نحوه بدهاءٍ «عندما ندخُل» قال «النطلب كأسين من شراب الجنّ السيّئ خاصّتِهم...».

أضاءت الابتسامةُ وجه ديكنز واستدار لمواجهةِ الباب.

«بالتّأكيد ستكون المسرحيّة مستوحاةً من فرانكلين» قال ويلكي من خلفه، «وبالرّغم من أنّ القصّة بأكملها ستكون خيالاً ولكنّه خيالٌ مُشتقٌّ من حقيقةٍ عميقة، وكم سيكون ملائماً لو أظهرتَ الرّجال الإنكليز وهمْ يلاقون حتفهم بنبلٍ وليس كبرابرة، ستنتصر طبيعتهم الرّفيعة على رغباتهم البدائيّة».

«نعم» أجاب ديكنز وهو ما يزال موليّاً ظهره لويلكي «مؤثّر جدّاً، أكثر من كونه مؤثّراً، بل إنه ساحرٌ، فكرةٌ ذكيّةٌ أصليّة لمسرحيّة» بينما قاد ديكنز طريقهما نحو الأعلى عبر السّلالم الحجريّةِ المُتهالكة والضّباب

المحيط بِهما والذي اكتسب لوناً أحمر مصفرّاً من أضواءِ مصابيح الغاز، نظر إلى الخلف وهو ما يزال مُحتفظاً بابتسامته «أنتَ عزيزي ويلكي، يجب أن تكون من يقومَ بكتابتِها».

بعد دخولهما إلى المنزل وإلى الأصواتِ الدّافئة التي تلُفه والرّوائح المعتّقة للعطورِ الرّخيصة، أحسّ ويلكي بأنّه قد استلمَ للتوّ مهمّةً كان ديكنز يشعر بالسّعادةِ للتحرّرِ منها.

«أنت ترغبُ في الإبقاءِ على هذا السّطرِ إذن؟» تساءلَ ويلكي بعد عدّةِ أشهرٍ عندما زارَ منزل تافي ستوك كي يُشرف بنفسهِ على التطوّرات الحاصلةِ في الاستعدادِ للعرض، كان هناك، فكّر ويلكي أنّ شيئاً ما قد تغيّر في ديكنز منذ أن رآهُ في تلك اللّيلةِ السّابقة.

«أيّ سطرٍ؟» قال ديكنز بصوتٍ مرتفع عندما قطع الرّجلان الممرّ خلال لُجّةٍ من الضّجيج، كان ديكنز يبدو مختلفاً بحيويةٍ جديدة وحبورٍ شمل كيانه بأكمله «عندما يصرخ واردور» صرخ ويلكي بدورهِ «التّعاسةُ الوحيدةُ في هذا العالم هي التّعاسةُ التي تُسبّبها النّساء».

«لن تتمكّن من إعطاء معنى لشخصيّتِهِ من دونه»، صرخ ديكنز مجيباً وكأنّه يُوجّه تعليماته اليوميّة في مكتبه في هاوسهولد ووردز، جليّةٌ بما فيه الكفاية كي تُطالب بتوضيح. ألم تُخيب النّساء ظنّه طِوال حياته؟ والدته، ماريا بيدنيل، زوجته، ألم يكن هذا واضحاً؟

سعل ويلكي.

«لا تُهمل معِدتك ويلكي» قال ديكنز «وإلا فسينتهي الأمرُ بأن تهملك معدتُك أيضاً»، أشار نحو ويلكي بإصبعٍ مزيّنٍ بخاتمٍ ثقيل، «والآن ثمة سطرٌ آخر يتوجب علينا مُناقشته، أنت تعلم ويلكي أنّ تجربةَ فرانكلين

والدّرس المُستقى منها تتلخّص في كوننا جميعاً نمتلكُ رغبات وشهيّةً ما، ولكنّ البرابرة فقط هم من يوافقونَ على إشباعِها».

وعند ذاك قام ديكنز بفتحِ الباب على الفَوضى والصخب الذي يُثيره النجّارون والصبّاغون وهم يجدّون في عملهم على الغرفةِ التي لم تَعُد تماثل ما يتذكّره ويلكي عنها بكونها غرفة دراسة الأطفال، كانت عُلب الطّلاء تُزيّن كلّ الأرففِ والطّاولات، كانت صناديقُ العُدّة ملقاةً هنا وهناك، وفي نهاية الغرفة تمّت إزالة إحدى النوافذِ وبناء سقيفة كي تحيط بخشبة المسرح، كان أحد العمّال يقومِ بحشوِ الموقد بقطعِ الخشب الذي ملأ الغرفة بالدخان، بينما كان عُمال الغاز منهمكين بتثبيت الأنابيبِ لعدّة مصابيح إضافيّة.

«أليس هذا هو سطح السّفينة جاثام؟» تساءل ويلكي «إنّه مسرحُنا» قال ديكنز الجذِل ملوّحاً بذراعيه «أصغرُ مسرحٍ في لندن»، أدرك ويلكي عندها أنّ الغرفة لم تكن الوحيدة التي تشهد تحوّلاً «لقد أُعجبت بذقنك ديكنز» قال ويلكي «إنّها أنيقةٌ جداً».

داعب ديكنز سوالفه حديثة النموّ.

«لقد تركتها تنمو لأجلِ الدّور، إنّها جزءٌ من ريتشارد واردو، لماذا، بالأمس فقط كان يتوجّبُ عليّ أن أتجوّل لمسافة عشرين ميلاً، وأفضل جزء في هذا كان ترويع السّكان في فينجلي ونيسدين عندما ظنّوا أنني مستكشفٌ قطبيّ معتوهٌ يتضوّر جوعاً وعلى وشك الهلاك قريباً لشدّة افتقاره إلى الطّعام والدفء»، كان مُلتحياً ومتلبّساً للدّور تماماً، «كل ذلك يرتسم في ذاكرتي الآن ويلكي، كل سطرٍ من سطورك هو هنا» قال وهو يربّت على جبهته كثيرة التّجاعيد «هل تعلم ما الذي يغري كثيراً بخصوص القُطب؟» قال وابتسم مرّةً أخرى «أنّه لا توجد نساءٌ هناك». ثم

ذهب لإعطاء عمّال الغاز توجيهاته بشأن مواقعِ نَصْبِ مجموعة من المضخّات البخاريّة.

سعل ويلكي.

في البداية لم يكن ديكنز يرغبُ في وضع اسمه على العمل الذي لم يكن في الحقيقةِ من تأليفه كُليّاً، كان يساعد صديقَه ببساطةٍ ببعض الأفكار للقصّة، سطرٌ جيدٌ هنا أو هناك، وكلما تنامت روايته «دوريت الصّغيرة» أكثر وأكثر استحالت إلى سجنٍ أكبر حجماً مما تصوّره، كانت مسرحيّة ويلكي الجديدة هي شعاعُ النّور الذي يتسرّب إلى زنزانته.

لكن بعد أن اقترح ويلكي على ديكنز أن يقوم بتأديةِ أحد الأدوار في المسرحيّة، وهو دور وغدٍ يُدعى «ريتشارد واردور» تزايد اهتمام ديكنز بالأمر، وعندها فقط بدأ بالإدراك بأن رجلاً مثل واردور لم يكُن مُنفراً للدّرجةِ التي وصفه بها ويلكي، لقد أثارت شخصيّة واردور اهتمامه وكلما فكرّ فيه أكثر شعر بشكلٍ أغرب بقربه منه وتآلفه معه، أخذ ديكنز يسرق الوقت من الحلقاتِ الأخيرة لروايته المنشورة في هاوسهولد ووردز كي يقوم بكتابة رسالةٍ سريعة أو بطاقة ما إلى ويلكي وهو يضع الخطوط العريضة للفصولِ أو يقوم ببعض التّغييرات على النُّسخة النّهائية من المسرحيّة والتي كانت ستُسمّى حسب اقتراحِ ديكنز «الأعماقُ المتجمّدة».

«ما الأمر الأكثر روعةً بخصوص مسرحيّتك» قال لويلكي بعد عودته من نِقاشه مع عامل الغاز «إنّها الطّريقةُ التي خلقت بها رجلاً مثل واردور والذي يبدو الأسوأ ولكنه ذو عمقٍ غير متوقّع، لقد أدركت في مكان ما وبالقرب من نيسدين ما الذي يتعيّنُ عليّ فِعله مع واردور وهو التخلُّص من أعماقِه المتجمّدة، كنت أفكر كيف أن بإمكاننا تغييرُ النّهاية قليلاً بكونهِ ليس شرّيراً خالصاً».

«بل هو بعيدٌ عن الشرّ»، وافقه ويلكي ـ والذي لم يكن يتّفق معه إطلاقاً ـ لقد ابتكر واردور كشخصٍ غريب، وكان ديكنز سيستمتع بتأديةِ دوره ولكنّ ديكنز يرى واردور الآن وكأنهُ شخصيّةٌ جادّة عوضاً عن فرصةٍ لاستحصال الهُتاف الرّخيص، ذُهل ويلكي ولكنّه قرّر أن يُساير تيّار الحياة.

قاده ديكنز إلى منضدةٍ طويلةٍ متربة كانت مكسوةً بالعديد من اللُّفافات الورقيّة الكبيرة التي قام ديكنز بفتحها كي يُري صديقه رسومات المناظر الخلفيّة للمسرح، غَمغم ويلكي بالاسم المكتوب على حافةِ المخطّطات بِرضى، لم يكن ذلك الاسم سِوى «ويليام تيلبين»، رسامُ المناظر الطبيعيّة الشهير، يبدو أنه لم يسلم أحدٌ من تقديم العونِ لديكنز.

«رائعٌ» قال ويلكي وهو يعني ذلك، كانت طاقةُ صديقه المتدفّقة، قدرته على الاستثمارِ في عملٍ أحمق كهذا، مجرّد مسرحيّةٍ للهواة، لقد وجده ممتِعاً، طاغياً ومُلهماً بشكلٍ غريب «رائعةٌ ببساطة».

«هنا في المشهد الأوّل» قال ديكنز وهو يُشير إلى مخطّطٍ يصوّر الميناء مع منزلٍ متداعٍ على أحد جانبيه «في أُمسية رحيل البعثة القطبيّة العظيمة سوف تتعهّد بطلتنا «كلارا بورنهام» بحبّها الأزلي «الفرانك الديرسلي» وهو ضابطٌ على مَتْنِ إحدى السّفن التي ستغادر لهذه المهمة المحفوفة بالخطر، هو لم يَكُن يعلم بأن «ريتشارد واردور» على مَتن السّفينة الأخرى ـ وهو الدور الذي سأسعى إلى شحنهِ بالتعاطف ـ وهو المُعجب الغيور بكلارا والتي كانت قد رفضته بازدراء، وكان قد تعهّد بشكلٍ مطلق بالانتقام لنفسه من الديرسيلي لسَرِقَتِهِ كلارا منه».

«ولهذا» قال ويلكي وهو يعلم كم يُحبّ ديكنز أن يسرد ويُعيد سرد الحكايا بطريقةٍ يختبر فيها تأثيرها على الآخرين «نحنُ سنبدأ بتقديم

واردور كوغد ولكن عندما تتطوّر المسرحيّة، هل تعتقدُ أنّه من الأفضل أن نُظهره كشخصيّةٍ حزينة»؟

«لقد أدهشني الأمر» قال ديكنز «كرجل قضى عمره في البحث عن العاطفةِ الصّادقة ولم يجدها، أليست هذه هي القضيّة؟».

كان ويلكي يُشكّك بالتّغيير الذي سيطرأ على واردور، وعوضاً عن أن يجيب عن سؤال ديكنز فقد شرَع بإعادةِ بناء المسرحيّة، «لقد كنتُ أتساءل» قال «كم سيكون مؤثراً على المتفرّجين لو يتحولُ واردور في النّهاية، لو يختار أن يضحّي بنفسهِ حتى تحظى الفتاة التي يُحبّها بالرّجل الذي تحبّه، بالرّغم من أنّه كان في مقدور واردور أن يترك الرّجل يموت ويأخذ الفتاة لنفسهِ».

كان ديكنز صامتاً ولكن شفتيه كانتا تتحرّكان وكأنه منشغلٌ بإتمام مسألة حسابيّة معقّدة، يجمع ويطرح، يقسم ويُعيد الحساب، «الموتُ جيّدٌ» قال «للوهلة... جيّدٌ جداً»، ثم عاد تارةً أخرى إلى غمغمتهِ الصامتة، «هل تعرف لماذا»؟ سأل ويلكي بشكلٍ غير متوقّع «لأنّ حتى واردور في النّهاية هو ليس بربريّاً»، كان وجهُه المُلتحي يُشعّ ألقاً «أليس كذلك»؟ فكر ويلكي لدقيقةٍ، «هو كذلك»، لقد كان جليّاً أنّ الخِسّة كانت سابقاً هي صفة واردور الأساسيّة فقد أصبح جليّاً أيضاً أنّها لم تعُد كذلك، وما كان من المُفترض أن يكون تسليةً خفيفةً قد انتقلَ إلى بُعد آخر تماماً.

«لقد شعرتُ دائماً» تجرأ ويلكي «بأنّ واردور ذاك كان أكثر بكثير من مجرد وغد».

أومأ ديكنز برأسه.

«لقد انساقَ لطبيعتهِ الفظّة» اقترح ويلكي.

أومأ ديكنز بقوةٍ أكبر.

«رضخَ لمصيره بشكلٍ غير قابلٍ للشّك» أكمل ويلكي متشجعاً «ولكنّه ليس بربريّاً أبداً».

«البربريُّ عزيزي ويلكي هو الإسكيمو أو هو الشّخص الذي يستسلمُ لشغفه، إن الرجلَ الإنكليزيّ يتفهّمُ شغفه ويُسيطر عليه ويحوّله إلى قوّةٍ مؤثّرة، أليس ذلك هو فرانكلين؟ ولدينا هنا رجلٌ تسمم بشغفهِ الخاصّ» أكمل ديكنز وهو يفتح لُفافة أخرى من الأوراق والتي كُتب عليها بخطٍ مشوه المشهد الثالث «والآن في النّهاية والسّفينتان مُحتجزتان في الجليد القطبيّ والرُّعب مُنتشر في كلِ مكان»، توقف ديكنز بينما أظهر المُخطّط المفتوح سطحَ السّفينة ثم هزّ رأسه قائلاً «لا هذا لن ينفع ليس مع ذلك التطوّرُ المثير، سنحتاجُ إلى منحدراتٍ جليديّة، تلك القِمم المَهيبة المُسبّبة للذّعر، لأنّ واردور سيختار في النّهاية شيئاً أفضلَ بكثيرٍ من السّماح لخصمه بالموت، سوف يُضحّي بنفسهِ كي يحصل «فرانك الديرسيلي» على كلارا ـ إنها تضحيةٌ ساميةٌ كما أعتقد»، وتناول بهذا قلماً ورسم خطّاً على طول المخطّط. استمرّ ديكنز خلال الأسابيعِ الثّمانية التي تلت بتغيير سطرٍ هنا، إضافة حوارٍ منفردٍ هناك وتغيير الحبكة في كل مكان، لقد تغيّرت القصّة ككومةٍ من الثّلج وتحوّلت إلى شكلٍ ثابتٍ مُختلف. كان يقومُ بالإشراف كذلك على ابتكار عالم المسرحيّة ـ المشاهد ـ الأزياء ـ الأدوار ـ الدّعائم ـ إلى الدّرجةِ التي عندما أُعلن مِنهاج المسرحيّة فقد ارتأى ويلكي والذي كان ما يزال يظهر كمؤلفٍ بأنّه من الحكمة أن يقوم بإضافة عبارةٍ على صفحة العنوان «تحتَ إرشاد تشارلز ديكنز».

بالنّسبة لديكنز كمخرجٍ للمسرحيّة، نجار المسرحيّة، مُنظّم

المشاهد، مُنسّق الأضواء، صاحب الملكيّة، المُلقّن وقائد الفرقة، فقد قام بتجهيز ملابس قطبيّة ملائمة للمستكشفين، واستعان بخدمة فِتيان مدرّبين كان يقتضي عملُهم بنثر الثلج الورقيّ على المسرح من الأعلى واستبدالِ الأراجيحِ الشبكيّة بالأسّرة وذلك لمنح المصداقيّة الضروريّة للعمل.

في جولاته الليليّة كرّس نفسه أكثر فأكثر للأعماقِ المُتجمّدة عوضاً عن «دوريت الصغيرة»، كان ينغمرُ كليّاً في واردور ويصرخ بعباراته أينما ذهب ويبتكر لنفسهِ حوارات جديدة، يجازف أكثر بالذّهابِ نحو الشواطئ البعيدة الغادرة من الجليدِ التي تحتجزُ روحه.

شيءٌ أخيرٌ واحد أقلقه «لماذا سيضحّي واردور بنفسه»؟ شيءٌ ما، بطريقةٍ ما كان ناقصاً في ابتكارهم ذاك، لم يُفسر بشكلٍ وافٍ، لماذا سيقوم شخص سيّئ بهذا التصرّف الصّالح وبينما كان يمشي ذات ليلةٍ أدرك أن «ريتشارد واردور» لم يكن سيّئاً على الإطلاق بل كان صالحاً، رجلٌ صالحٌ سيتمكّن من إنقاذ نفسه ـ بماذا ـ بالحُبّ.

كان انعدامُ الحبّ قد تسببَ في تجلّد روح واردور، وأنقذ الحُبّ روحه من الجليد، حبٌّ كهذا كان سيستبدِل حياته بأخرى «شابّةٌ محبوبةٌ وعطوفةٌ» صرخ عالياً في كليركينويل، كان صوتُ واردور يملأ حنجرته الآن «أنا أحتفظُ بوجهها في مُخيّلتي لأنني لن أتمكن من الاحتفاظِ بشيءٍ آخر، سيتوجّب عليّ أن أتجوّل وأتجوّل وأتجوّل، متعبٌ، أرقٌ، مشرّدٌ، حتى يتسنّى لي إيجادها».

توقّف ديكنز بعدها حائراً تائهاً من تكون هذه المرأة؟ إنها غير موجودةٍ، إنّها محضُ سراب.

في بداية العام الجديد ١٨٥٧ بعد أربعةِ أسابيع من التّدريب وهم

يرتدون أزياءهم الكاملة، احتشد مئات الأشخاصِ في غُرفة الدّرس المُعدّلة تلك في منزل تافي ستوك ـ ومن ضِمنهم كثير من أعضاءِ البرلمان، القُضاة، الوزراء والكثير من الصحافيّين ـ لمشاهدةِ ديكنز وعائلته وأصدقائه وهم يقدّمون «الأعماق المتجمّدة».

كان الممثّلون هم عين الطّاقم القديم ـ تقريباً لأن «دوغلاس جيرولد» كان ما يزال متوعكاً ـ الأطفال، ويلكي بالطبع، فريدي إيفانز، أوغسطس أيك، جون فورستر، شقيقةُ كاثرين جورجينا هوكارث التي لعِبت دور ممرّضةٍ إسكتلندية، وخادمة إسكتلنديّة أضحكت البعض بدورِها كأحد الإسكيمو، ولكن كان ديكنز قد استولى على العرض.

لقد ذهب بعيداً بدعوةِ البعض من نُقّاد المسرح وقد ذُهل أولئكَ مع بقيّةِ المتفرّجين من قوةِ أداء ديكنز، خاصّةً في المشهد الخِتاميّ وهو يرتدي أسمالاً بالية، تحوّل ديكنز من رجلٍ كان على وشك أن يقتل غريمه في الحبّ إلى شخصٍ يتسامى للتّضحية بنفسه في سبيل ذلك الحُبّ كما أظهرت ذلك الموسيقى المُرافقة لمشهد موته.

«لقد ظفر بأعظمِ انتصارٍ» قال ويلكي وهو يُجسد دور فرانك الديرسيلي وهو ينتصبُ واقفاً بالقرب صديقه السّاقط أرضاً «انتصارهُ على ذاته».

شعر ويلكي بسخريّةٍ متزايدة بشكلٍ فائق الغرابة وهو يقول تلك الكلمات المُعلنة عن خاتمةِ المسرحيّة في تلك اللّحظة التي تسبق إسدال السّتارة وهتاف الاستِحسان الذي يليها، لأنّهُ فكّر في أن يحتفظ بكلِ هذا لنفسه، ثمّ سُرعان ما أدرك بأن ذلك النّجاح كان بعيداً كل البُعد عن السّخرية، لقد ذُكر في التايمز وفي الالوستراد لندن نيوز أنّ ديكنز كان يمتلك قدرات ممثّلٍ مُحترف، بينما ذهبت صحيفة «الأثينايم» إلى أبعد

من هذا: فقد ذكرت أن أداءه كان سيُعلن عن فتحِ عهدٍ جديد في التّمثيل».

وهي تهزُّ رأسها أغلقت السيدة «تيرنان» صحيفةَ الأثينام ووضعتها جانباً على مِقعد القطار المجاور لها.

«عهدٌ جديدٌ للتمثيل» كان يجلس مقابلها رجلٌ شابٌ ويتساءل بارتياب لماذا تضحكُ هذه السيّدة بشكل غير ملائم، غير ممكنٍ ومُهين بالتّأكيد وهي ترتدي ملابس الحِداد. تمايل القطارُ على أحد المنحدرات وتباطأ في نفس الوقت ثم صرخت صافرته بشكلٍ مرتفع، دُفعَ كلّ ركّاب عربة الدّرجةِ الثالثة أماماً وخلفاً، عندما استعاد القطار ثباته واستعاد الرُّكاب أماكنهم الأصليّة تمالكت السيدة نفسها ثم اعتذرت.

«إنها شقيقتي» قالت «لقد واريناها الثّرى هذا الصباح في سالفورد» ولو كانت أي شخصٍ آخر غير السيّدة تيرنان لكانت انفجرت في بكاءٍ حاد، ولكن الدّموع كانت تُذرف على المسرح، والدّموع كانت ما تعمل هي جاهدةً لاستدرارهِ من المتفرّجين، كانت الدّموع فنّاً ومكافأةً على الفنّ. هذه هي الحياة، لقد علمتها التقلباتُ التي واجهتها السيدة «تيرنان» أن تضحكَ على الحياة عوضاً عن الاستسلام لها «أبداً» قالت لنفسها، وبالرّغم من كونها امرأةً ذات عقلٍ وإدراك إلا أنها فضّلت أن تعيش حياتها بعقيدةِ اللاّتفكير تلك، لا تستسلمُ أبداً، لا تشتكي مطلقاً ولا تعترف بالفشل بتاتاً.

عقدت يديها في حِجرها كي لا يرى الشابُ الثّقوب المُرتقة في قُفازيها، لعنت نفسها على عدم امتلاكِها ملابس أكثر سمكاً لترتديها في تلك العربة غير المدفأة، نظرت إلى الخارجِ عِبر النافذة المُغطّاة

بالضَباب في محاولةٍ منها لرؤية بعضٍ من المناظر المتجمّدة خارجاً، بينما كان القِطار ينطلقُ نحوَ الشَمال.

ما زال موضوع المقال يُثير ذهولها ولولا عزمها على الحِفاظ على الحشمة لضحكت مرةً أخرى، رجلٌ نبيلٌ وأولاده غير المدربين أمام منزلٍ من الورق، قد تبدو طريقةً جيدةً للتنويم المغناطيسي لكنها لن تكون مسرحاً بالتأكيد، كانت السيدة «تيرنان» تُدرك جيداً ما معنى المسرح، بعد كل شيءٍ فقد كانت تطأُ حلبةَ المسارح منذ أن كانت في الثالثة ـ حلباتٌ رطبة، عفنةٌ، مكسرة ومشققة ـ وبالرغم من إيمانها بمسرحِ شكسبير وموليير فإن شغفها ذاك لم يُكافأ بعدالةٍ، ها هي الآن، فكّرت، في الخمسين من العمر مع ثلاث فتياتٍ تستأجر منزلاً صغيراً في ضواحي لندن مع مدخولٍ ضئيل وكما يبدو فرصٌ تتضاءلُ تدريجياً.

لم تكُن تلك هي الحياة التي توقّعتها عندما كانت شابة، كانت تتطلّعُ لتصبحَ سيدة سيرونز أخرى، عندما كانت تجني من الأموالِ أكثر بكثيرٍ من فاني كيمبل في بوسطن، عندما مثلت أمام تشالز كين، عندما كانت تشتهرُ بأدائها في العالم القديم والمُعاصر وقد أُعجب الناس بشكلها، وعندما تزوّجت من شابٍ أيرلَنديٍ عظيم الطموح ـ لكنه توفي مُختل العقل في بيدلام، وهي قد شاخت الآن وأصبحت الأدوارُ الجيدةُ أقلّ، وتفاقمت الحاجةُ إلى القبولِ بأي شيءٍ كان يُعرض عليها. لقد جابت الأقاليم، عاشت على الجِعة والخُبز وشرائح اللحم القديمة، تسكعت هنا وهناك بين النُزل المفروشة الرطبة والمسارح البعيدة، وضعت ابنها الصغير المُتَوفّى في مهدِهِ ثم عملت لثلاث ليالٍ متواصلة وهي تعودُ كل ليلةٍ إلى جسده البارد حتى توفر لديها المال اللاّزم لجنازتِه.

لقد كانت عازمة على تقديم شيءٍ أفضل لفتياتها الثلاث ولكن كان

من الصّعب التكهُن بماهيتِهِ، لقد كانت ابنتها الكبرى هي الطفلةُ المُعجزة ـ كما سُميت ـ «فاني» التي خلبت لُبّ المتفرجين بأدائها كطفلة، والتي لم تتمكن من نقلِ هذا السحر إلى حياتها الشابة كبالغة، ثم كانت هنالك «ماريا» ولكن بدون جمالٍ خلابٍ أو موهبةٍ متميزة فلن تكون مهيّئةً للعظمة ولا للثروة، ثم هنالك ابنتها الصُغرى «إيلين» التي وقفت على المسرح منذ عمر الثالثة، رقصت البولكا، أدّت أدوار الفتيان، لعبَت مع البهلوانيّين، غنّت بشكل مُنفرد وثنائي ومع المجموعة، لكنها الآن في الثامنةَ عشرة وهي تمتلك الشكل ولكن ليس التألُق الذي قد يجلِب لها الثروة على المسرح، لم تعرف أوقاتاً جيدة، لقد قامت ماري وفاني بتأسيسِ مدرسةٍ للسيّدات الصغار في الصيف الفائت، صورةً أخرى لنزواتهما التي ابتدأت بالأمل وبمنزلٍ فارغٍ وانتهت بلا أيٍّ منهما. وبالرغم من أن أصدقائها على المسرح كانوا يساعدونها في الحصولِ على الأدوار فلم تتمكن السيدة تيرنان من الاعتمادِ كلياً على دور كورديليا أو ديدمونة الذي وفّر لها ذات يومٍ مستوى معاشيّاً جيداً.

كان لدى «ماريا» أدوار صغيرة في الريجينسي لمدة أسبوعين ولكن لا شيء أكثر، بينما وجدت «فاني» عملاً ثابتاً حتى لو لم يكن دور البطولةِ في مسرح الأوبيرون لتأديةِ حُلم ليلةِ مُنتصف الصيف.

تناولت الأثينايُم مرةً أخرى والتقطت الرسالة التي كانت تستخدمها كمؤشرٍ والتي كانت تحمل نبأ وفاةِ لويزا، لقد كانت في الثالثةِ والخمسين فقط مع أربعة أطفالٍ، لم تعرف السيدة تيرنان كم ستستمرُّ بعد إلى أن تلاقي المصير عَيْنَهُ ـ ربما ستموتُ على المسرح مثل جون برت هارلي المسكين الذي سقط كحجرٍ قبل عدة ليالٍ بينما كان يُمثل دور بوثوم، ومع «فاني» المسكينة تقف إلى جواره مباشرةً، ولو أنها ماتت، فكرت السيدة تيرنان فما الذي سيحصُل لفتياتِها؟

في الوقت الراهن كان بإمكانِها الاستمرار بالاعتماد على تسويقِ ذكريات جمالها وأمجادِها السالفة، على صداقاتِها والفطنة التي اكتسبتها في مشوارِ حياتها، من الأسْرة التي كانت تتشاركها مع الأطفال ومع بقّ الفِراش، الاحتيال على مديري المسارح، الملابس الرثة وأوهام البهجة.

كان يتوجّب عليها دائماً أن تُظهر حِشمتها وفضائلها في وجه العالم الذي ينظر إلى مِهنتها بصورةٍ أفضل قليلاً من الدّعارةِ العامّة، كانت حياتها لا تخلو من التعويضات فلو تمكّنَت من خلالِ موهبتِها من اكتساب استِحسان الجمهور فسوف تتمكّن إلى درجةٍ ما من العيشِ بشكلٍ مُستقلّ عن الرجال الذين كانت تمتلك رأياً وضيعاً عنهم، إنه عالمٌ أفضل من عالمِ مُربيات الأطفال والخيّاطات، لكنه كان ما يزال قاسياً ومروعاً وكل ما دعمها الآن هو علاقاتها الجيدة مع المُمثلين الآخرين.

في اللّيلةِ التي استلمت فيها نبأ وفاةِ لويزا، والتي تركتها المخلوقة الوحيدة الباقية على قيدِ الحياة من بين أفراد عائلتِها، كتمت السيّدةُ تيرنان نشيجها بوسادةٍ كي لا تسمع بناتها صوتَ تكسّر قلبها ولا يعرفن أنها تُدرك جيداً الآن بأنّ كل موتٍ لمن تُحبّ هو موتٌ أيضاً للعديد من الذّكريات والتّفاهم الذي تتشاركُه معهم، إنه جزءٌ من حياتك لن تتمكّن من استرجاعه، كل موتٍ هو خطوةٌ غير مستردّةٍ إلى موتِك الخاص، وهي لن تنتهي بخلوِ المنزلِ العامر فقط ولكنها ستنتهي بالتّصدعِ والأتربة للمسرحِ الفارغ، شعرت السيدة تيرنان بعتمةٍ لامتناهيةٍ تغمرها والتي قرّرت أن تواجهها بشجاعة، ما الذي يعرفُه سيدٌ نبيلٌ وأطفاله الهواة عن كل هذا؟

كان الرّجلُ الشاب ينظر الآن إلى «إيلين» التي كانت تُسافر مع السيدة تيرنان لحضورِ الجنازة، والتي كانت تجلسُ على الطّرف الآخر من

المقعد وهي مستغرقةٌ كعادتها في قراءة رواية أخرى، بدقةٍ فائقةٍ قامت السيدة تيرنان بإصلاح فُستان فاني القديم كي ترتديه إيلين في الجَنازة ولم يكن يبدو رثاً كما لم يبدُ لونه البُني المُصفر ـ والذي بهت الآن إلى الرمادي ـ زاهياً ولكنها شعرت بأنها كانت محترمةً تماماً، ولكي تُوضح للجميع بأن الشابّةَ الجذابة لم تكن فتاةً ساقطةً بل مرافقة شابة مُحترمة فقد سلّمتها السيدة تيرنان الصحيفة.

«اقرأي هذا عزيزتي وأخبريني هل بإمكانكِ الوثوق يوماً بنقدٍ لامع»؟ ناولتها المجلة وقد كانت جادّة لأجلِ نقودي أعتقدُ بأن هذا أمر مستحيل» ثم ابتسمت وهي تُفكر بأنها وإلى أن تُسدل عليها الستارة، وإلى الأبد فسوف تُبقي العرضَ مُستمراً «إلى الأبد».

بعد انتهاءِ المسرحية التي حمّسته لعدة أشهرٍ فقد استسلم ديكنز إلى القنوط، عاد إلى كتابةِ «دوريت الصغيرة» بنوبةٍ اهتياج مُتزايد، لم يكن يُدرك أنه كان يكتب نفسه، بدت لندن أكثر كآبةً، أكثر قتامةً وإحباطاً عن ذي قبل، كل شيءٍ وكل شخصٍ في الشوارع وعلى الورق بدا وكأنه مطمورٌ وميتٌ، بينما كان هو يعيش حياته المزدحمة كان يتساءل كيف بإمكانهِ أن يشعر بالوَحدة، عُزلته تلك أصابتهُ بالذُعر.

تناول جرعاً متزايدةً من الأفيون، ولم يُجادل أولئك الذين افترضوا بأن رواية «دوريت الصغيرة» كانت أكثر رواياتهِ تشاؤماً وقد كانت أيضاً أكثرها نجاحاً، لقد بِيعت كحلقات متسلسلةٍ أكثر من كل أعماله السابقة، كان وحيداً جداً لكنه قرّر أن يصمُد على الرغم من كل شيء. لم يكن يُطيق التحدّث إلى زوجته، كان في الخامسةِ والأربعين، لم يعد يتمكّن هو وكاثرين من تمييز أحدهما الآخر ولا إدراكِ آلام الآخر، حُزنه، ندمه، كان يشعر بشيء ما يتحطمُ بداخله.

هل كان العالم؟ هل كان هو؟ كان يغرقُ في شيءٍ بداخله كي يستمر في كتابةِ رواياته، ويستمر بلعبِ دور ديكنز، الأمرُ الذي كان يتطلبُ مجهوداً يفتقِر إليه، كانت روحه تتآكل، كوارث متتالية تمطر عليه، معظمها كانت عويصة ولا يمكن قولها وقد كانت بسبب نجاحه الظاهري. كان فقداناً تدريجياً للحياة أو للهوية أو للاثنين، قوةٌ ما جمعته مع الآخرين وذلك الدمجُ مع الآخرين هو ما وجده أقسى ثم أقسى، كان يبدو أنّ المزيد من ذاتهِ في كُتبه يعني القليل مِنه في الحياة، كان سيتحدثُ عنه لو كان يعرف أي شخصٍ سيتفهمه ولكن إذا كان هو بنفسه لا يفهمه، لقد كان ذلك مستحيلاً، كان يتهاوى ويتهاوى ولم يكن يعرِف كيفَ يتوقف.

رحل الشتاءُ وها قد حلِ الربيعُ، اشترى أخيراً «جادزهيل»، المنزل في كينت والذي طالما حلُم بامتلاكه منذ أن كان طفلاً يمر بجوارهِ بصُحبة والده، تذكّر نفسه كصبيٍ استثنائي يُصغي بتركيز لوالده وهو يُخبره بأنه لو كان مُقتصداً كفايةً ويعمل بشكلٍ جاد جداً جداً فربما سوف يمتلكُه ذات يوم، لقد اقتصد، لقد عمل بجدٍ، كانت لديه الموهبة ـ وبعضهم يقول النبوغ، لديه الآن جادزهيل كتأكيدٍ على هذا، يجب أن يُنظر إليه كإثباتٍ، أليس كذلك؟

نابغةٌ ـ ما كان ذلك؟ لقد تهاوى في العذاب بشكلٍ متزايد، فقط في عمله كان ديكنز يشعر بأنه يُجسد نفسه حقاً، فقط عندما كان يرتدي قناع هذه الشخصية أو تلك فإنه كان يكتشفُ الحقيقة الجلية عمّن يكونه، كانت رواياته حقيقية بطريقةٍ لم تكنها الحياة، لماذا؟ حتى إن كايتي اتهمتهُ ذات مرةٍ بأن شخوص رواياته كانت حقيقيةً وأثيرةً لديه أكثر من أطفاله، لقد أنكر هذا وضحِك عليه واستاء منه، قام بنقل عائلته الآن إلى جادزهيل ولكنه بقي في معظم الليالي في لندن، كان ينامُ على أريكةٍ

صغيرة يحتفظ بها فوق مكتبه في هاوسهولد ووردز، خشيَ من أن عمله كان يلتهم روحه، الموهبة، النبوغ، هل كانت هذه مجرد مسمياتٍ تصف عزمه على الاستمرارِ في اعتصارِ ذاته حتى لا يتبقى لديه ما يُقدمه للموت سوى جسدٍ فقط.

نظر في المرآة الكبيرة التي كان قد علقها على الحائط المواجهِ لمكتبه كي يتأمّل بها وجهه وهو يُمثل دور هذه أو تلك الشخصيّة، وكل ما رآه هو وجهٌ بإمكانه أن يكون لأي رجل وليس لرجل، شخص من خلال محاكاته المستفيضة للآخرين فقد أصبح هو لا أحد، كان قد التقى بمعظمِ الرجال العُظماء في عصره وأُصيب بخيبةِ أمل، ليس لي ندٌ، فكّر، كم يشتاق إلى ريتشارد واردور.

تساقطت الأمطارُ بشكلٍ جامحٍ وكأنّها كانت تضطرب من ذنبٍ خفيّ، كانت المدينة التي يجولُ فيها ليلاً مغطاةً بمئاتِ الظّلال الرماديّة لكنها كانت ما تزال المنزل الوحيد الذي لديه. يهيم في أعشاشِ الغِربان القذرة، تلك الأحياء العشوائيّة، متاهات البؤسِ مع سكانها أنصافَ العُراة، الأبواب المشمعة والنوافذ المحطمة، الباحة البائسة حيث بدا له طيف امرأةٍ يسيل لُعابها وهي تمتصُ الأفيون من غليونٍ مبتكر من قنينة للحبر. شاهد القمر الجامح في الأعلى والغيوم الزاحفة بقلقٍ ككيانٍ شرير على سرير متداعٍ، أخيراً تهادى النور فوق شوارع ذلك الفُرن العظيم فقفل راجعاً إلى غرفته قُبيل الفجر بساعة.

ذهب مباشرةً إلى مكتبه، شعر بأن أفكاره ترغي ثم تتشاحنُ كلماته وتفور، وقد قادت كل كلمةٍ إلى الأخرى والتي قادت بدورها إلى كلماتٍ أكثر. بهذه الطّريقة، أدرك ديكنز، كانت تُصنع الحروب، الثّورات، المؤامرات، علاقات الحُب والروايات؛ لكن لا شيء بإمكانه

أن يُحرر ذهنَ ديكنز مما يتجاوز حدود الكلمات: لقد كانت نوبة انفجارٍ لكل شيءٍ لا يُمكن أن يُقال «الريحُ تلحق بنا، الغيوم تطيرُ خلفنا، القمر يلاحقنا والليل الجامحُ بأكملهِ يطاردنا» وجدَ نفسه يكتب في دفتر ملاحظاته «ولكن حتى الآن فنحن لسنا مُلاحقين بأي شيءٍ آخر».

إنهُ غير منطقي، لماذا يطارده الليلُ؟ ومن الذي قصده بكلمةِ نحن، من الذي كان يمشي مَعه؟

كانت الرحلةُ الغريبة التي سيجدُ فيها ديكنز «نحن» قد ابتدأت بعد أسبوعٍ، عندما كان يُسافر على مَتن أحد القطارات من جادزهيل إلى لندن، دخل رجلٌ ذو وجهٍ مجعد إلى عربة ديكنز، جلس، فتح صحيفةً ثم عاد إلى إغلاقها واستدار إلى المُسافر الذي بجوارهِ وهو يتحدّث إليه وكأنه يقوم بالإعلانِ عن إحدى قدور الضغط.

«لقد توفّيَ دوغلاس جيرولد»

أصيب ديكنز بالذهول، لماذا، لقد رأى صديقه قبل أسبوعٍ فقط، وبالرّغم من قوله إنه كان مريضاً فقد عزا الأمر إلى استنشاقهِ رائحةَ دهانٍ حديث من شباك مكتبه. لقد كان يوماً بائساً بالفعلِ إلى حدّ الآن، كانت كايتي قد ابتاعت قلنسوة ورأت كاثرين أنها رائعةٌ بشكلٍ مكتمل، كان يحلو له أن يرى فتياته يظهرن بمظهرٍ جذّاب كما تبدو الآن بتلك القلنسوة، ولكن الثمن؟ لم يكن لدى أطفالهِ أية فكرةٍ عن النقود، لقد كانوا مسرفين مثل والده وربما كما خشي فاشلينَ مثله.

لقد صرخ على كايتي التي ردّت عليه بالمثلِ، ثم صرخت كاثرين، ثم بدا الأمرُ وكأنهم لا يتمكنون من قولِ شيءٍ دون صُراخ، توقف وهمس متوسلاً إليهما أن تتوقفا، أن يوقفا هذا الجنونُ، هذا الابتعاد، أن يعودوا معاً، تارةً أخرى كعائلة، ولكن هذا كان مُجرّد خطابٍ، مجرد كلماتٍ لم يأبه بها أحد.

كانت كاثرين تنتحِب مرةً أخرى بينما وقفت كايتي إلى جانبِها وهي تحدجهُ بنظراتٍ ساخطة.

كل ما كان بإمكانه فعله هو محاولته لإعادةِ الاستقرار إلى نفسه بالعودة إلى عمله، إلى مشروعٍ جديدٍ آخر، يتمكن من أن يدفُن نفسه فيه حياً مرةً أخرى، ولكن رواية دوريت الصغيرة قد انتهت وكانت الحلقةُ الأخيرة منها لدى الناشر الآن، لم يكن لديه أي مشروعٍ جديد سوى هاوسهولد ووردز.

في الوقت الذي رأى فيه ديكنز صديقه ويلكي في مكتبه في هاوسهولد ووردز، كان ذِهنه قد قام بوثباتٍ عديدة، وهو يعلم جيداً أنه لا يوجد دخلٌ خاصٌ لعائلة جيرولد فقد اقترح ديكنز أن يقوموا بتنظيمِ بعض العروضِ الإضافية للأعماق المُتجمدة والتي سيذهبُ ريعها إلى الأرملةِ وأطفالها، فبعد كل شيء كانت إعادةُ المسرحية أربع مراتٍ قد استحوذت على اهتمام لندن بأكملها، وقد وُجّهت إليه وإلى ويلكي طلباتٌ متكررة لإعادة عرض المسرحيّة أمام كل طبقاتِ المجتمع اللندنيّ حتى للملكةِ بنفسها.

ولهذا فقد كان الأمر في الرابع من آب، عندما وُجّه إليهم أمرٌ لتقديم الأعماق المتجمدة في مكانٍ جديد وهو الصالةُ الملكية للفنون أمام الملكة فيكتوريا، الأمير ألبرت وعائلتيهما، ومن بين باقي الحضور سيكونُ هناك أمير بروسيا: الأمير فريدريك ويليام وخطيبته الأميرة فيكتوريا، وبين هؤلاءِ النُخبة الرفيعة كان هانز كريستيان أنديرسون، وقد أعقبت ذلك العرض إعادة المسرحية في المكان عينهِ لأسابيع ثلث. كان ديكنز قد أصبح واردور مرّةً أخرى، وكان أداؤه هذه المرة أعمق إحساساً وأكثر إثارةً، لكن بالرّغم من كلّ النّجاح التي حَظيت به الأعماق المتجمّدة والتّذاكر الباهضةِ الثمن فقد أثمرت عن مبالغ غير

كافيةٍ لإعالةِ السيدة جيرولد، كان ديكنز متحمساً لنجاحه وقد عادَ إلى كونه واردور ثانيةً، ولهذا فقد قرر أن يقوم بتنظيم عدة عروضٍ أخرى في مكان أكبر بكثير مما سبقه كي يستوعب عدداً أكبر من المتفرجين لزيادة كمية الأموال المطلوبة، لقد استقر على «مانشستر فري ترايد هول» وهو مبنىً مُعاصر مذهل يتمكن من استيعابِ ألفي شخص، ولكن لو كان حجم المبنى قد قدم حلاً لمشكلةٍ واحدة فهو في نفس الوقت كان قد خلق مشكلةً أخرى، لقد أصبح ديكنز مقتنعاً بأن ممثليه الهواة لن يكون بإمكانهم التحدث بصوتٍ مرتفع ومؤثرٍ كفاية في ذلك المكان الفسيح، فبالقدر الذي كانت فيه فتياته وخدمه ساحرين في ذلك الفضاء الصغير، حيث أضفت هفواتهم البسيطة نوعاً من السِحر الأُسَري على العرض، ففي مسرحٍ عظيم مثل هذا خشي ديكنز أن يُعتبر أداؤهم متوسطاً أو حتى ساخراً، كان بحاجةٍ إلى إيجاد ممثلين محترفين.

كان مدخل مسرح «هاي ماركيت» عبارة عن بابٍ مخفي يُفضي إلى رواقٍ جانبيّ، كانت حرارةُ الصيف تبعث فيه خليطاً من الروائح، قام ديكنز بإزاحةِ مجموعة من القواقع المُغطاة ببرازِ الطيور بإصبعِ قدمه عن درجات المدخل، مر بجواره فتى صغير يرتدي صداراً ممزقاً وهو يُثرثر بلهجةٍ غريبة اعتقد ديكنز أنها إسكتلندية، ثم مرَّ على صبيَّين نصف عاريين بجواره، طارت مجموعةٌ من الزارير من ثقبٍ صغير فوق البوابة بينما أصغى ديكنز إلى صوتِ الفراخ الصغيرة. عندما دلف إلى البهوِ المُعتم الكئيب، شقَّ طريقه نحو الأصوات البعيدة للموسيقى والأقدامِ الراقصة، إلى ذلك المكان الذي يُفضله على أي مكانٍ آخر، حيثُ القلوب المُهذبة وغير المُهذبة، ذلك العالم الذي سينطِق فيه الكذب بالحقيقةِ حال ارتدائك القناع.

بعد أن ضلَّ طريقه لمرتين، تمكن أخيراً من الوصول إلى الكواليس

الخلفية للمسرح، حزماتٌ متداخلةٌ من النور، حواجز، حبال، بكرات ومزيجٌ من ضوءِ الصباح وأضواء المصابيح الغازية، خليطٌ من ظِلال طويلة وأخرى قصيرة، حيث لا تنطبق على ذلك المكان قوانينُ الكون الطبيعية، تجلس وسط كل هذا سيدة شابة شقراء، انعكست عليها الظِلال فبدت وكأنها مُخططة وهي تنتحِب بصمتٍ.

«لماذا أيها الرجل الصالح الرؤوف سيد ديكنز، عندما قلت لي قريباً لم أتوقع أنك تقصدُ هذا اليوم، في الصباحِ الباكر ووسط تجارِب الأداء».

التفت ديكنز ليرى امرأةً ضخمة البنية لكنها لا تخلو من الجاذبية «سيدة تيرنان لقد علمتُ بأنكِ ستكونين منشغلة ولكن لدي عرضٌ كنت أتمنى أن تسمعيه في أسرعِ وقتٍ ممكن».

نظر إلى الخلف إلى السيدة الشابة الباكية والتي تَعرّفَ عليها الآن بكونها إحدى فتيات السيدة تيرنان الحسناوات، لقد حازت على إعجابهِ في الليلة الفائتة على المسرح.

«أنا أخشى أن إيلين تشعرُ بالإهانة، حيث يتوجب عليها في المشهد الأخير أن تظهر بفستانٍ ممزق، إنها تعتقدُ بأنه يُظهر كثيراً من ساقها، أنت تتفهمُ سيد ديكنز ـ وعند ذكر اسمه فقد استدار ديكنز لمواجهةِ السيدة تيرنان «لقد رَبّيْتُ فتياتي على أن يكنَّ مُحترمات وممثلات محترفات وألا يَظْهَرْنَ بمظهرٍ غير ملائم، إنهنَّ لسنَ ممثلاتٍ سوقيّات».

«لقد تحدث السيد كورن فورد مسؤول مسرح الريجينت بشكلٍ رفيع عن شخصيّة وقدرات عائلتكِ سيدة تيرنان».

عندما شاهد «إيلين تيرنان» وهي تؤدي دوراً في مسرحية تدعى

أتلانتا فقد بدت لديكنز فتاةً جميلة في السادسة عشرة، أدرك أنها مُقتدرة، وقد كانت تمتلِك ربلتين جميلتين أيضاً، ولكنه كان قد علِم من السيد كورت فورد أن إحدى شقيقتيها كانت استثنائية وكذلك والدتها فهي شخصيةٌ محترمةٌ جداً، لقد كنّ أربع نسوة محترفاتٍ ويمكن الاعتماد عليهِنّ، محترمات وغير متفرغات في وقتِ افتتاح مسرح مانشستر فري تريد هول.

«سوف أتكلمُ مع المدير لو رغبتِ بذلك...».

استدارت عينا ديكنز نحو الفتاة، بدت عيناها بلونٍ أزرق ثاقب، جواربها رقيقة جداً وساقاها...

«لا تقلق سيد ديكنز فلدي طريقتي الخاصّة وسوف لن تتدنّى منزلةُ ابنتي ولن يُنتقص من اسمها واسمنا بسهولة».

من نوافذ القاعة العلوية بان خيطٌ رفيعٌ من السماء، كان يسطع منه شعاعٌ ثاقب من النور، شعر ديكنز بكونه دافئاً، صالحاً وكريماً وغير متوقع.

«لن يتحدّث أحدٌ إلى المدير» قالت الفتاة فجأةً «أنا سألعبُ دوري كما أراهُ ملائماً»، رفعت رأسها عالياً بكبرياءٍ وهي تتحدث.

«إن كان لا بدّ من الدمار، فليأتِ الدمار لأجلِ شيءٍ يستحق ذلك»، قال ديكنز وهو يُدرك بأنه كان يمثّل الآن ولا يتمكن من تمالُك نفسه حقاً.

شعرت السيدة تيرنان بأنها قد خسِرت فرصة العمل «وماذا عن عرضك سيد ديكنز؟».

بدت الفتاةُ غير مصغيةٍ عندما أجاب ديكنز، فقد كانت تراقبُ ذراعيه وهما تنبسطانِ وتتباعدانِ كجَناحي طائرٍ بري في قفص.

٧

بعد ذلك فقط، عندما كان يحتضرُ في العتمةِ اللامتناهية للشتاء القطبي، الزيت التوربيني ينزُّ من ألواحِ سفينة الأيرباس المُعتصرة التي كان يستلقي فيها، هل تمكّنَ السيد جونَ من إدراكِ صعوبة إدارته لنصف سجنٍ ونصف سوقٍ كما كان يفعل؟ سعةُ صدره، تردده، افتقاره للمكر، افتقاره إلى العملاءِ جهلهُ المُطبق بضرورةِ تقديم التنازلات، ترفُعه عن فنون الاحتواءِ والإقصاء السوداء، ترفُعه عن الترغيب والترهيبِ كل هذا أدّى إلى التسبُب له بالسُخرية والازدراء في أرض فانديمون.

وهو يقودُ البقية المتبقيةُ من رجال بعثته الذين كانوا يتضورون جوعاً، كان قد توجّه في الشهرِ الفائت لاستكشاف الجَنوب ولكنه فشل في التوصل إلى أية علامةٍ دالة في ذلك البياض المَهول، عاد مرةً أخرى إلى الشتاء على مَتن سفينتيهما كي يتوصل إلى اكتشافِ مروعٍ واحد وهو أن سفينة «التيرور» كانت قد تحطمت بين الكتلِ الجليدية وغرقت ولم يتبقَ منها سوى صواريها المُهشمة على الجليد كدليلٍ على الذي كانته ذات مرةٍ.

بعد أن قام أخيراً بخلع جزمته المتجمدة في حُجيرة «كروزر» على متن سفينة الأيرباس فقد انتزعت ثلاثة أصابعٍ من قدمه مع جواربه، لقد

قاموا ببترِ ساقه مرّتين: مرةً من تحت الركبة ومرةً من فوقها ولكن الغرغرينا كانت قد تمكنت منه.

زمجرَت الرياح خارجاً وتراقصت قلائدُ الجليد خلال الهواء، في الداخل بدا الموت مُرحّباً به لأنه كان سيخلّصه فقط من رائحتهِ النّتنة التي لا تُطاق. لقد كان يُدرك القليل عن الآخرين وعن المجتمع وقد تركَ هذا الأمر لزوجته التي طمأنته بأنها ستتدبر الأمر، في هذا أيضاً وجد نفسه مُخطئاً فقد كانت تفتقر ببساطةٍ إلى تواضعه بالرغم من أن السيدةَ جين كانت ستُظهر فيما بعد استعداداً للتآمر، استيقظ فيها من قِبل الفانديمونين في الوقت الذي سعت فيه إلى كل ما يُخالف طبيعتها: الخنوع، الإذعان، الإيثار. لم تكُن تسرد الحكايا أبداً أو تتأثر بها سواء إن وجدت في روايةٍ سخيفة أو انسابت على لسان سيدةٍ تجلس إلى جوارها على العشاء، وبالرغم من هذا فقد حاولَت لأنها كانت في قرارةِ ذاتها كما كانت في كل شيءٍ آخر تسعى إلى الاكتمالِ وحسب تصورها فقد أصبحت أرض فانديمون وطموحها الشخصي أمراً واحداً. لقد أدركت السيدةُ جين عند وصولها إلى تلك المستعمرة وهي لمّا تبلغِ الأربعين بعد بأنها ستكونُ أكثر نُضجاً وقدرةً على الإصلاح والتنوير، طافت في ذِهنها كثير من المشاريع، المضاربات والترتيبات، كانت الجزيرةُ تزدهر كما لم تفعل من قبل، كان مدٌّ من المُدانين المُستعبدين يقومون برعي قطعانها المتزايدة من الخِراف والتي أنتجت كميات كثيرة من الصوف لأجل معامل النسيج الواعدة في بريطانيا، كان سكانها هؤلاء ـ على الأقل غير المقيدين بالسلاسلِ ـ على استعدادٍ كامل لعصرهم الذهبي، وعندما سيُكتب تاريخ ذلك العصر فقد عزمت السيدة جين على أن تكون هي وزوجها السيد جون في مقدمته. بدت الجزيرةُ التي كان زوجها مسؤولاً عن إدارتها للوهلة الأولى كمشروعٍ مُمتع

للسيدة جين والذي قد يتمكن السيد جون من إنجاحه بعد إجراءِ العديد من الحواراتِ الجادة في ردهات الاستقبال في لندن، فقد قام بدايةً بإعادة بناء نظام الإدانة وِفق تفكيرٍ متحضر علمي راسخ وقد تشبث بآرائه عندما أيقن بأنها عقلانيةٌ وفلسفية وناقشها استثنائياً بطريقةٍ مطولة، قال مؤيدوه إنه لم يكن ينام وقال منتقدوهُ إنه لم يكُن يستيقظ.

لقد أحبت فتيات المُستوطنين الأحرار اليافعات منزلَ الحاكم لأنه كان يُتيح لهنَّ فرصة الرقص طِوال الليل على أنغامِ الفرقة العسكرية، حيث يكُنَّ في البداية مرتبكاتٍ ثم مغضبات عندما يصلن ويكتشِفْنَ أن القاعة المخصصة للرقص قد وُهبت اليوم لإجراء نقاشٍ رسمي حول التنويم المغناطيسي الجديد أو حول فائدةِ استخدام المغنيسيوم في الزراعة.

من خلال زوجها كانت السيدة جين قد أرست بحماسٍ كبير دعائم العديد من المستشفيات، الجمعيات الخيرية والمدارس وهي تقودُ المجتمع بعيداً عن فكرةِ جَني النقود البسيطة باتجاه منطقِ العالم القديم المتنور.

«هل تعتقدين أن بإمكانكِ أن تتدبّري لي بعض التصاميم الجميلة للمنحوتات؟» كتبت إلى شقيقتها في لندن وهي تستخدمُ اللفظة اللاتينية الرّاقية للمنحوتاتِ المنزلية عوضاً عن لفظةِ المباني، «إن الجزيرة بحاجةٍ لأن تمتلك تاريخها الخاصّ وأساطيرها الخاصّة، أنا لا أستطيعُ التفكير ببدايةٍ أفضل من بِضع غرفٍ صغيرة ولكنها ملائمة لاحتواءِ العديد من اللوحات ودزينة من التّماثيل الرُّخامية الفاتيكانيّة، إن التّكلفةَ أمرٌ مهم جداً فلن أتمكّن في هذه المستعمرة المُحبّة للنّقود من إقامة ذلك المشروع، هل ستتدبرين الحصول لي على تماثيل من المُتحف البريطانيّ

مثل ثيسيوس، إيلايسوس، تورسو، هورس هيد، أبولو، فينوس ودانيك كلاديتر؟».

«ستقوم السّيدةُ بلوبوتل بعملٍ أفضل في ملء قائمة مدعوّيها بالمعجبين عوضاً عن ملء الجزيرة بتصاميم فرنسيّةٍ للوحات، لقد اشتكى زوجها مونتيك ـ وهو سكرتيرُ زوجي ـ من طموحها أمام بعضٍ من أصدقائه في مدينة هوبارت ولكنه بحضورها كان يبتسمُ فقط ويُثني على مبادراتها».

تسعى باقي النّسوة وراء الأزهار قالت لمونتيك ذات مرّةٍ، والذي بدا مستاءً، ولكني أكافح لأجلِ أكاليل الغار.

ولفترةٍ ما فقد أسعدت أكاليلها تلك النُّخبة العليا في الجزيرة بالرّغم من كونهم وبطرقٍ مختلفة يعتمدون في رفاهيّتهم وقوتهم على البؤس الشقيّ لهؤلاء الذين لم يكتسبوا عادةَ الدّفاع عن أنفسهم من خلال تكليل ذواتِهم بالثقافة.

كان زعماءُ أرض فانديمون مقيتين حقاً ليس لامتلاكِهم شعراء مُملّين، علماء طبيعةٍ مغرورين ورسّامين سيئين ولكن بسبب عدم تمكنهم من إخفاءِ كل ذلك، فقد كانوا يترنّمون بالقصائدِ المقيتة وتُعلّق على جدرانهم رسومٌ بغيضةٌ وهم يفتخرون بمجتمعهم المُتحضر ويؤكدون لأحدهم الآخر بأن علماءهم الهُواة كانوا يتوصّلون كل يومٍ إلى اكتشافاتٍ استثنائيّة.

وفوق كل شيء فقد احتفوا بالزّوجينِ اللذين بديا لهم كتجسيدٍ حيّ لما يرونه في أنفسهم من ترفٍ وتميّز: الحاكم الأنيقُ وزوجته لقد كانوا أشخاصاً مثيرين للاهتمام، أشخاصاً معروفين ويتماشون مع آخر التّقليعات الفكريّة، إنهم أناسٌ محترمون يعرفون أشخاصاً أصحاب نفوذ

في إنكلترا، أناسٌ متميزون سيصنعون عظمةَ المُستعمرة، أناسٌ رائعون يمثلون التنوّع الأمثل للقضاءِ على السوقيةِ التي تعُم الجزيرة، ولهذا فقد تملّقوهما وتزلّفوا.

قامت بعض النّسوة المُداناتِ فقط بإعطاء انطباعٍ جازم عما يشعر به المستوطنون غير الأحرار: عندما كانت السيّدة جين تعظهم عن كون الأخلاق أساساً لكلِ شيءٍ في الحياة، فقد أدرن ظهورهنّ إليها وكشخص واحد قُمن برفع تنانيرهِنّ وهزّ أردافهنّ القذرة.

خارج هالة السّلطة المؤقّتة فإن معظم المُدانين والمُسرّحين في حلقات المجتمع الخارجيّة لم يعيروهما أدنى اهتمام، في متاجِر الخُمور المغشوشة والمنازل المهدّمة، فقد استمرّت الحياةُ كما توجّب عليها أن تفعل مع أغانيهم الملعونة وخمرهم القويّ الممزوجِ بالسُكر. في المناطق النّائيةِ، في الغابات، في المطابخ والإسطبلات، في ورشِ العمل والمناجم فإن الحظُ والقدر كانا ما يُحدد من الذي سيعيش ومن يُغتصب ومن يُجلد ومن يتحرّر وهل كانوا سيجدون كِفايتهم من الطّعام أم سيتضوّرون جوعاً.

ثم عمّ أوروبا الكسادُ العظيم، انهار سوق النّسيج، تعثّرت المطاحن، لم يعُد المُستوطنون الأحرار يحصلون على الأسعارِ التي كانوا يستحصلونها مقابل أصوافهم ولم يعُد الذّهب يتدفق بوفرةٍ ـ لقد انتهت رفاهيّةُ المُستعمرة وكلّ من فيها أدرك السّبب ـ إنهُ السّيد جون بجسدهِ الضّخم وزوجته المتطفّلة السيّدة جين.

كان آل فرانكلين، ولمدّةٍ طويلة، في غفلةٍ عمّا يحصل، كان السيّد جون قد قام بافتتاحِ أسطول فانديمون البحريّ المُكوّن من ست سفنٍ مدفعية وقد كان متحمساً نوعاً ما بسبب إمكانيّة طلب مدفع جديد مع

البارودِ والقذائف المصاحبةِ له، لقد أعطاه ذلك الوهم إحساساً بكونه رجلاً فعالاً وشعر بأن ذلك كان من المُمكن أن يعوّض عن فشلهِ في أن يكون رجل حيلةٍ ودهاء.

كان قد ذُهل عند وصوله من الرّفاهية الموجودة في المستعمرة، لقد تمّ استقباله بالولائم والحفلات وكل أنواعِ التّكريم، كان برفقة ثلاثمائة رجلٍ من الفُرسان وسبعين عربة عندما دخل للمرّة الأولى إلى عاصمة لونسيثون الشّمالية، كانت الشّوارعُ تعُجّ بالمهنّئين المتحمّسين، كان آرثر الطّاغية الذي سبقهُ قد ولّى، بدا وكأنّه أحد الفاتحين، لم يفهم نصيحة مونتيك له «لا توجد حكومةٌ» قال سكرتيره محذراً «تتعامل بهذا الطّغيان عندما تكون راغبةً في بناء نفسها»، ولهذا فعندما انتهى زمن الرّخاء فقد أخذت الجزيرة تُعاني وتغلي غضباً وتُخطط للانتقام، بينما استمرّ آل فرانكلين في الاستكشاف وكتابةِ التقارير فقد كان السيد جون والسيدة جين متابعين مُتقدي الذّهن لكل شيءٍ كان من شأنه أن يُنقذ النّاس من حولهم.

كان الزّوار، المُستوطنون القدماء والمُستوطنون الأحرار قد ارتحلوا بشكل متماثلٍ إلى عاصمة الجزيرة مدينة هوبارت، حيث يتّحِد العزمُ مع الحماس وكانت معنوياتهم ترتفعُ بهذه الرّحلة نحو مصبّ النّهر الرّائع المحاطِ بالأشجار والتّلال المُخضرّة والخُلجان الصّغيرة الشّاعرية التي لم تكُن تكشِف شيئاً عن الحياة البائسة لهؤلاءِ السّاكنين تحت سحاباتِ دخان المواقد التي تتصاعُد من أعماقِ الغابة.

لكم كانت خيبةُ أملِهم كبيرة وكيف غارت معنويّاتهم عندما وصلوا أخيراً إلى المدينةِ القذرة التي كانت تترنّح كسَكرى من القمّة إلى هاوية الجبلِ العظيم تحتها، كان يبدو أنها تُماثل عالم ثكنات الجيش وساحة السّجن، مدينةٌ رتيبةٌ في أفضل حالاتها وشنيعةٌ في أسوأها.

بالنّسبة إلى المُدانين الذين كانوا قد أُخذوا من مخازن الغائطِ الكريهة التي تمثّلها سُفن العبوديّة المُعدّة للعبور بين إفريقية والأمريكيّتين فلم يكونوا يمتلكون استحساناً ولا خيبة أملٍ بما وجدوه، لقد اجتازوا ستّة أشهرٍ وهم يُبحرون من العالم القديم والتي كانت كافيةً للبقاء على قيد الحياة، لقد استنشقوا قدر استطاعتِهم من ذلك الهواء الغريب المُنعش والضّوء الأزرق الحيوي وقرروا أنه يتَوجب عليهم أن يستمرّوا، كانت المسافة تستغرقُ خمس دقائق من رصيفِ الميناء الجديد إلى قصر الحاكم المتداعي الذي استقر على صرحٍ في الجنوب والذي ابتدأ ككوخ ثم اتّسع وتمت تغطيته ثم أُضيفت إليه طبقات أخرى وتغطت ثانيةً أسوةً بالمُستعمرة التي تنامت من بضع مئاتٍ من الأرواح اليائسة لتشكل مجتمعاً مكوناً من أربعين ألف شخص، فقد تنامى ذلك الكوخ طبقةً فوق أخرى مثل بصلةٍ كبيرة من المباني. كانت الجزيرة تمتلك قدرةً على تحويل كل شيءٍ إلى ذكرى حتى قبل أن يحصل أو حتى لو لم يحصل مطلقاً، كان ذلك واضحاً في هذا المبنى المُتداعي الذي كان يبلغ ثلاثين سنة من العمر فقط وقد استحال الآن إلى أحد الآثار الدّالة على انحلالٍ واضح.

ولكن عندما وصلت «ماثينا» إلى هناك في الرّبيع الذي تلا زيارة آل فرانكلين لمستعمرة وايباليتا بعد رحلةٍ استغرقت كثيراً لم تلمح عيناها الرطوبة المتزايدة، ورق الحائطِ المُتقشر، الجُصّ المُشقّق المرقّع، البناية المتهاوية التي ترتعشُ فيها مصاريع النوافذ والأبواب اليُسرى أشبه بعينٍ تطرف، لقد شاهدت قصراً من النّوع الذي كان الوصيُّ يصفه، حتى الروائح العفنة للعناكبِ النّافقة وبول حيواناتِ الأبوسوم فقد اعتبرتهُ ما أخبرها به الوصيّ مراراً: أريج الربّ.

ماثينا فلاندرز ـ كما أُدخلت إلى عنبرِ السّفينة لأنّ الكابتن وهو

شخصٌ نصف متعلّمٍ والذي كان يشعر بأن الكتابة هي إحدى أهمّ المهاراتِ المُكتسبةِ، وشعر بأنّ كل مسافرٍ كان بحاجةٍ إلى اسمٍ ثانٍ لموازنة اسمه الأوّل ـ لقد استغرقوا عشرة أيامٍ للإبحار من جزيرة فلاندرز إلى مدينة هوبارت في الطّرف الجنوبيّ من أرض فانديمون، تقدّمت السّفينةُ بثباتٍ وقد أُحبطت بالجوّ السّيئ والرّياح المناوئة التي تهبُّ من الجنوب الغربيّ.

«من هو يسوع المسيح؟» سأل الكابتن ماثينا والذي كان ميثوديّاً متحمّساً عندما كان المركب يرتفع وينخفض ببقايا موجةٍ عظيمة ضربت البحر مخلفةً جحيماً من البياض الجامح.

«ابن الربّ سيّدي»

«ما الذي يمثّله يسوع المسيح لنا؟» استمرّ الكابتن وقد عقد العزم على أن تتعلّم الطّفلة مبادئ الكاثوليكيّة الأساسيّة حين تصِل إلى وجهتها.

«إنه استقامتُنا سيّدي»

وقد تلعثمت لنطقِ تلك الكلمة الطّويلة فبدت وكأنها تقول استق... ماتنا ولكن الكابتن شعر بالرّضا واستمرّ

«ماهو الشيطان؟»

«إنّه عدوُّ أرواحِنا سيّدي»

«كيف يشُنّ الحرب على أرواحِنا؟»

«بأن يجعلنا نستسلم للخطايا الآثمة»

«ما الذي فعله المسيح لأجلِنا؟»

«حمل عنّا خطايانا سيّدي، لماذا...».

«من الذي صلب يسوع المسيح؟»

«اليهود سيّدي ولكن لماذا سيدي، لماذا المسيح لقد كان رجلاً صالحاً، لماذا كان عليه أن يأثم لو لم نأثم نحن».

«من كان اليهود»

«إنهم قوم الربّ سيّدي»

لو تساءلت ماثينا ما هي تلك الخطايا الآثمة أو لماذا قام قوم الربّ بقتل ابن الرّب، لو أنها كانت قد رأت الأمر بوضوحٍ وهي تنمو تحت حُكم أبناء الربّ، كان من المستحيل معرفة ذلك، بعد أن انتهت من عرض مهاراتها لنيلِ رضا الكابتن فقد اندفعت إلى الثرثرة.

«سيدي سيدي نابوليون هو شخصٌ صالحٌ لقد علمني العدّ إلى الرّقم سبعة، لقد علّمني جيداً، لقد كان يعرف الشّخص الأوّل وكلّ الأشخاصِ الذين صنعوا الجبال والأشجار والنجوم، نعم سيّدي، إنّهُ يعرف، لقد نزفَ يسوع مثل شخصٍ أسود».

«من الذي علّمك شكسبير» سأل الكابتن بارتيابٍ.

«نابوليون» قالت الطّفلة، كانت لا تعلمُ شيئاً عمّا يكونه شكسبير.

لم تكن ماثينا ترغب في مغادرةِ الجزيرة والذهاب إلى مدينة هوبارت: كان جسدُها الضئيل مغطى بجلدِ الكنغر الأبيض الذي اصطاده والدها وقد انفجرت الطفلة بالبكاءِ لفكرة مغادرتها لقومِها عندما أخبرها الوصيُّ أنهُ من المُتعذر عليها الذّهاب إلى قصر الحاكم وهي ترتدي كالبرابِرة، ولكنه استسلم لموضوعِ مُرافقها المُفضل وهو حيوان أبوسوم أبهق قامت هي بترويضه، كان يركُضُ بين كتِفيها ويُقحم أنفه في قميصها الدّاخلي القذر بينما كان بُرازه يتساقط على كتفيها ككرياتٍ من الرّصاص.

لقد تركها تحتفظُ بالحيوان ليس شفقةً منه ولكن خِشية أن تقوم بعمل طائشٍ لو تمّ حرمانها من مُتعتها الصّغيرة الوحيدة تلك، بالنّسبة إلى الأطفالِ الوضيعين في الجزيرة والذين لم يهلكوا بعد فقد كانت هي الألمع: مرتفعةُ المعنويّات بشكلٍ مؤكّد، ولكن كان أكثر الأمور أهميّةً هو رباطة جأشها عند وفاةِ والدها، ربما كان ذلك التصرُّف هو الأجدرُ بالذِّكر.

لقد استغرق الوصيُّ عدّة أشهرٍ قبل المُوافقة على طلب فرانكلين وهو يقوم بدراسةِ الجوّ العامّ وصحّة الطّفلة ويطرح عدّة تساؤلاتٍ تربويّة ولكن السبب الحقيقيّ لتأخُّره هو أنَّ الطّفلة كانت تختفي كلما حان موعد مغادرتها للجزيرة، وفي داخِله فقد شعر روبنسون بالقلق ونوعاً ما بالرّضا عن نفسه لكونه لا يتمكّنُ من إيجادها، كان هنالك شيء بخصوص السيّد جون لم يتمكّن روبنسون من وصفه بالكلمات رغم جديّته وتعطّشه للمعرفة، لقد اتجّه إلى الصّلاةِ والكتاب المُقدّس لكنه لم يجد أية أجوبةٍ بل مجرد تنصّلٍ من المسؤوليّة.

في نقطةٍ ما أصبح عناده ضئيلاً جداً كي يستمرّ، لقد عزّزت ماثينا حملتها على الفِرار بصُحبة امرأتين محليّتين إلى مستعمرة الفقمات في جزيرة جان كاريدج وبالرّغم من كون روبنسون كان كارهاً لطلب آل فرانكلين فعندما كان يفشل في العثورِ على ماثينا لم يكن ينجحُ في إقناع نفسه بأنه كان يتخلّى عن الطّفلة إلى دنسِ تلك المُستعمرة، ثم أخبر نفسه بأنّها سوف تُصبح من أفضلِ أزهار لندن، مهذّبةَ التّصرفات، متديّنة الأفكار وعلميّة المظهر، ستبدو كامرأة ندٌّ للرجلِ وستشتهر كأحد الأسماء العظيمة في سجلّات البسالة والثّبات أكثر من الرجال أنفسهم، كان هدفهم مجرّداً من الأنانيّة في رفع تلك الطفلة البربرية إلى مستوى النسوة الإنكليزيّات المُتمدّنات، كيف كان بإمكانهِ أن ينكر على أي شخصٍ تلك الفرصة؟

قام أخيراً بحبسِ ماثينا في غرفةٍ بمنزله لمدّة أسبوعٍ وهو يقوم باحتجاز أبوسومها ويرفض أن يُعيده إليها حتى تُبحر علىٰ متن سفينة كورمورانت، أعطاها بعض البسكويت المملّح كهديّةِ فُراق ولم يمكُث كي يودعها بل عاد إلى منزله وقرأ الكتاب المُقدّس حتى وقتِ الغسق عندها كان القاربُ قد اختفى عن الأنظار.

كانت سفينة «كورمورانت» قد تأخرت كثيراً عن جدولها المُقرّر، فقام الكابتن بإفراغ حمُولته لمدينة هوبارت في مرسى صغير عند مصَبّ نهر «ديروينت»، وقد توصل إلى اتّفاقٍ مع نجّارٍ فضي الشّعر كي يقوم بنقل ماثينا بعربته، لم يرغب النّجار في البداية بأن تكون له أيّة علاقةٍ مع تلك الطّفلة السّوداء فقد كان أخوه وهو راعٍ مُدان قد قُتل بواسطة حربة مسنّنةٍ من قبل أحد السّود في مُداهمة علىٰ محطّةٍ نائية في حرب السّود ولكن بالمقايضة مع بعضِ جُلود الفقمات ـ والتي رغب الكابتن بالعودة سريعاً إلى الجزيرة لجلب المزيدِ منها ـ فقد وافق النّجار على أخذ ماثينا إلى مدينة هوبارت.

نظرَ النّجارُ إلى الطّفلة الصّغيرة واستنتج أنّها لن تكون بالنّسبة إليهِ سوى كيسٍ من التّبن سيقوم بتسليمه.

لقد كانت لديه ابنةٌ ذات يومٍ بالرّغم من أنه لم يتبقّ منها سوى وشم أزرقَ باهت على ذراعه الآن، انتبه إلى وجودِ انتفاخٍ في ثوب الفتاة وذيل صغير يتدلى عند خصرها، انحنى النّجار وجذبَ الذيلَ كما يفعل مع مِقبض الباب وقد أُصيب بالدّهشة عندما برزت أمامه عينان كبيرتان حمراوان وناعستان وأنفٌ رطب. بيدين كانتا ضخمتين وحنونتين ذات يوم بدتا وكأنّهما عشّ نسر البحر المُكوّن من اليوكالبتوس الشّائك فقد حمل النّجار ماثينا وبينما كان يحمل وزن الطفلةِ الضئيل وثِقتها بين يديه خشيَ من أن مَقته لها قد تجاوزهُ الآن.

نظرت نحو الأعلى إلى وجه النّجار، كانت إحدى عينيه بيضاء وميّتة وقد ذكّرها شعره بحزمةٍ من القشّ الأبيض، شعرت بالأمان مع الرّجل العجوز عندما أرجحها ببطءٍ في الهواء ثم أجلسها على المقعدِ الخشبيّ في عربته وبالرّغم من عهدِهِ مع نفسه فقد فرش سجادةً قذرة كان قد وجدها في أرض العربة على ركبتيها.

«كارني» قال لها.

شاهد قدميها العاريتين وهما تبرُزان من السجّادة الرثّة، انحنى للأسفل ونقر إصبع قدمها الكبير وهو يتبسم «كارني والش».

لم تكُن الطّفلة قد شاهدت شيئاً مثل تلك المدينة، خليطٌ محيّرٌ من الرّجال بألوانٍ مختلفة البياض، مبانٍ كبيرة، وحلٌ وغائطٌ وخيولٌ ـ كثير من الخيول. كانت تمرّ بجوارالمستودعات الجديدة، محلاّتِ الخمور القديمة والأكواخِ البائسة، الخنازير والأبقار التي تتجوّل بحريّةٍ في الشوارع، رجالٌ يرتدون الأصفر والأسود وهم مُقيّدون بالسلاسلِ كما الثيران، رجالٌ يرتدون اللون الأحمر ويحتضنون بنادقهم، وأخيراً صعدوا التلّ حيث منزلُ الحاكم، كانت تلك حقاً إثارةً غامرة.

كان بعض الأشخاص هنا وهناك قد توقّفوا وأشاروا باتّجاهِها وهم يهزّون رؤوسهم كأنّهم يرون شبحاً.

«لماذا كونا» سألت النّجار وهي غير قادرةٍ على لفظ اسمه.

«حسناً» قال كارني والش الذي لم يكن يمتلك الجواب الذي رغب في إخباره للطفلة «لأنّكِ... لأنّكِ ستكونين أميرّتهم الجديدة، هذا هو السّبب».

عندما وصلا إلى منزلِها الجديدِ، تم توجيههم إلى الخلف حيث تقعُ

مجموعةٌ من المباني العشوائيّة التي تُستخدم كمطابخ، مسالخ، غرف غسيل، حظائر، زرائب للخنازير وأجنحة للخدم في المنزل الكبير.

«لا تتركني» قالت عندما رفعها عن المقعدِ الخشبيّ.

«هؤلاء أناسٌ طيّبون» قال، ولكنه عندما قام بإنزالها أرضاً فقد لفّت ذراعيها وساقيها حوله وركض الأبوسوم حول مؤخّرةِ عُنقه «إنهم أفضلُ الأشخاص».

لم يكن يُصدّق ذلك ولم تفعل هي أيضاً فتشبّثت به أكثر.

«لا ترحل» كان هيكلها العظميّ مشابهاً لهيكلِ طائرٍ مذعور وهي تتدافع ملتصقةً بجسده الهَرم، وبالرّغم من أنه كان قد رغبَ في احتضان وتهدئة من لا يمتّ إليه بصلة فقد توجّب عليه أن يخلعها عنهُ هي والأبوسوم ويسلّم الاثنين لامرأةٍ ضئيلة الحجم ذات وحمةٍ ولاديّة غريبة تُشبه المشمش النّاضج تُغطي نِصف وجهها.

غادر كارني والش على عجلٍ وهو يلعنُ نفسه على شعورهِ بالسّوء كما يفعل، لقد فَتحت روحَه على جُرحٍ مؤلمٍ ظنّ منذ فترةٍ طويلة أنّه قد اندمل.

قامت المرأةُ بغسلِ مائينا في حوضٍ خشبيّ يمتدُ بجانبِ الإسطبل المبني بالطابوق والذي كانت الخيول تشربُ منه، كان الماء بارداً والجبل مغطّى بالثّلوج، بينما اغتاظت الخادمةُ المُدانة من صمت الطّفلةِ السّوداء.

ثم اصطحبتها الخادمة بعد ذلكَ إلى المطبخ وأطعمتها كِرشة الخروف وبعض البطاطا، ساعد الطعامُ على بثّ السكينة في قلبِ الطفلة. كانت تحيطُ بالمنزل حيويّة ذاتيّة أزاحت كل الامتِعاض، الإشاراتِ السريّة، الإيماءات، الهمهمة، الضّحكاتِ الغريبة طِوال

الطريق جانباً، ذلك الطّريقُ الذي وجدته ماثينا مذهلاً فهو على عكسِ وايبالينا كان يبدو أن النّاس فيه لا يتوقّفونَ ولا يجلسونَ ويتحدّثون بل يواصلون سيرَهُم نحو أعمالهم كأسرابِ النمل.

أُخذت ماثينا إلى غرفها، بالرغم من أن الغرفةَ الأولى لم تكن مغطّاة بورق الحائط لكنها كانت مدهونةً حديثاً ومؤثثةً بشكلٍ متقشّف بطاولةٍ وكرسيّ وحامل للصّور وخزانةٍ للكتب التمهيديّة وكتب القواعد كي تشغَل بها أوقات فراغها.

وكما قامت السيّدة جين بإخبارِ عددٍ كبير من المدعوّين على العشاء إلى الدّرجة التي شعر فيها السيد جون بالضجر وطلبَ إليها أن تتحدث عن أمرٍ آخر، كانت الطفلة ستوضع على برنامج تهذيبٍ صارم، لن تقوم بإضاعة دقيقةٍ واحدة، وكل شغفها المُتهوّر ذاك كان سيخضع إلى التّهذيب الحضاريّ.

كانت الغرفةُ الأخرى تقعُ في زاوية وهي ذات شبابيك غربية تواجه سلاسل الجبال التي تقعُ خلف المدينة، شعرت السيّدةُ جين بالقلق من احتمالية أن يُداهم الطّفلة الحنين الموجع لحياة الغابة، والتي سمعت بأنه غالباً ما يُراود كل السكان المحليّين المُحتجزين على جزيرة فلاندرز، ولهذا فقد أمرت بأن تُسمّر كل مصاريعِ النّوافذ الغربيّة تاركةً النوافذ الشماليّة فقط مفتوحة، والتي تُطلّ على المنظرِ الكالح لحديقةِ المطبخ.

كانت هذه هي غُرفة نوم ماثينا وكان بداخلها ما تصوّرَتْه غرفةً ثالثةً، مزيجٌ متداخلٌ من الأشرعةِ المُلونة والأوتادِ الخشبيّة، محرّمةٌ وغامضةٌ عليها، إلى الدّرجة التي تخيّلتها خيمةً للأشخاص البيض. بعد أن تنهّدت المرأة ذات الوجهِ المشمشيّ، تسلقت على الفِراش القطنيّ وأوضحت غرضه بأن استلقَت في وسطهِ قائلةً كلمةً واحدة ـ سرير ـ تمكّنت ماثينا

بهذا من معرفة الغرض منه، وأخذت تقفزُ جَذلى وتلعبُ هناك مع أبوسومِها، وعندما عادت الخادمة ذات الوجهِ المِشمشيّ فيما بعد ذلك المساء وجدتهما تائهينِ في طياتهِ، الفتاةُ السّوداء والأبوسومِ الأبهق، كليهما نائمَين.

«أينَ الأحذية»؟ تساءلت السيّدةُ جين في الصّباحِ التّالي حينما أُخذت ماثينا من قبل مربيتها الأرملة «مونرو» لتلتقي بوالدَتِها الجديدة، ولهذا الغرض فقد ارتدت الطّفلة المحليّةُ فستاناً من نسيج صوفيّ رماديّ اللّون من النّوعِ الذي يوصف بأنه معقولٌ نوعاً ما، وتبرُز من حاشيته قدمينِ متباعدتينِ كبيرتين حالكَتي السّواد.

«لا تحدثيني عن الأحذية» قالت المربيّةُ «الأحذية؟ ربّما يتوجّبُ عليكِ أن تسألي الأفعى لماذا لا تعود إلى ارتداءِ جلدها»، كانت السيّدة جين تنفرُ من الأفاعي إلى درجةِ الخوف المرضيّ، ولكن كان هذا هو لقاؤها الأول مع الطّفلةِ المحليّة بصفةِ والدتها الجديدة، وكانت قد أكّدت للسيد جون كم كان مهمّاً أن يقوما بإيضاحِ طبيعة موقعهما المُحترمِ منذ البداية، وبهذا وعلى الرغم من شعورها برغبةٍ عارمةٍ لحمل الطّفلة فقد حاولت أن تستعيدَ رباطة جأشِها وذلك بالعودة إلى ملاحظاتها السّابقة.

«أنا متحضّرةٌ جداً في هذه الأمور» قالت السيّدة جين «مواصفاتُ الملابس، إن الرّوحَ تبدأ من التّفاصيل وتنتهي بالكلمات».

«احترامي للسيّدة» قالت المربيّة والتي كانت تبدو كصرصارٍ أكثر من كونها امرأة، وقد كانت مُستمرّة في لكزِ ماثينا من ظهرها كما يفعلُ سائق العُجول.

«الرّجل لديه الرّأي» قالت السيّدة جين وهي تُحاول أن تتجاهل المُربّية «ولكنّ المرأة لديها العاطفة».

كانت الطّفلة السّوداء التي تقِف أمامها تبدو غامضةً كوشقٍ سيبيريّ أو كفهدٍ من العالم الجديد، «لكن العاطفة غير المُنضبطة بالتّهذيبِ الخُلقي والتطوّر العقليّ سوف تنحدرُ بسرعةٍ إلى شهوة والشّهوة إلى ضرر، هل تفهمينني؟».

لم تفهم ماثينا شيئاً من كل ذلك ولم تُجب بشيء.

«لقد أعطيناها لكِ ماثينا؟ الأحذية ـ لقد أُعطِيت جزمتين جديدتين أو شيئاً من هذا القبيل؟».

«لقد وصلت برفقةِ وحشٍ بريّ ومع غطرسةٍ أسوأ» قالت المربية «من المستحيل أن نجعل جسدَها مغطىً بشكلٍ كامل ونصف محترمٍ فكيف بقدميها؟».

كانت أعدادُ النّساء منخفضةً في مستعمرة المُدانين، والمربيّات كُنَّ غير معروفاتٍ إطلاقاً، لذلك فقد كان العثورُ على الأرملة «مونرو» وهي زوجة ضابطٍ في فيلق الرّوم قد بدا في الأوّلِ كمصادفةٍ سعيدة، ولكن يبدو أنها ليست جيدةً بما فيه الكفاية، فكرت السيّدةُ جين.

«إن البرنامج الذي وضعته لكِ يؤكد على فضائلِ النّساء الفِطريّة، الإيمان، البساطة، الرّحمة، الإيثار، الحنان والتّواضع». كم كانت تتوقُ إلى احتضانِ الطّفلة.

«إنهم يحبّون ذلك، هذا ما يقولونه» قالت الأرملةُ مونرو «يحبون التُّراب، الوحل والأرض، دافئةً كانت أو باردة».

نظرت ماثينا إلى الأرض، قفز برغوثٌ من شعرها وحطَّ على رِسغ السيّدة جين «سوف تتعلّمين القراءة والإملاء، القواعد والحساب».

«ولهذا» قاطعتها الأرملة مونرو «فهم لا يُفضّلون ارتداءَ الأحذية».

«سوف ترتدي الأحذية وسوف تتمدّن» قالت السيّدة جين للأرملةِ

مونرو وهي تفتعلُ ابتسامة «وأنا أثقُ بكِ لتأكيدِ حصول الأمرَين، والآن ماثينا أين كُنّا؟».

«الحِساب» قالت الأرملة مونرو.

«نعم» أكملت السيدةُ جين «والجغرافيا ثم ستنتقلين إلى مواضيعَ أعلى مثل...».

كم رغِبت السيّدةُ جين وهي تواصِل إلقاء محاضرتها الكئيبة في أن تُهندم تلك الطفلة، ترتّبُ شعرها بالأشرطة، تجعلها تضحك، تُقدم لها المفاجآت والتّهويداتِ في أُذنيها، ولكن كل ذلك الطّيش كما كانت تعلم سوفَ يؤدّي ليس إلى تدميرِ التّجربة فحسب بل وكل فرصِ الطّفلة الصّغيرة. سوف تُدرك ماثينا ذات يوم حكمة المرأة المُحسنة إليها، هنالكَ مخاطرُ كثيرةٌ لتلك الهفوات، لم تكُن السيّدة جين تجرؤ على التفكيرِ فيها، مخاطرُ القلب الذي قد يُربكها، مخاطر الرّوح التي قد تُعيق تقدّمها، وهي تعلم جيداً أنها لن ـ ولم ـ تفعل، فقد واصلت في سردِ مواضيع الدّراسة لماثينا «علم البلاغة، علم الأخلاق وكذلك الموسيقى، الرسم وأشغال الإبرة أما الكاثوليكيّة فستكون...».

«سيّدتي» انفجرت الأرملةُ مونرو ساخطةً «الطّفلة ليست بأكثرِ من متوحّشة، متوحّشة ظريفة أنا أنصحُ بأن...».

«لديّ إيمانٌ قويٌ بالتّعليم» قالت السّيدة جين وهي تُسمّر الأرملة مونرو بنظراتها المُتوعّدة.

«أنا أعرفُ عملي» قالت الأرملة مونرو وهي مؤمنة بشكلٍ مطلق بأسلوبها الخاصّ فقد كانت معلمةً مُحنكة، ولم تكن لتهتزّ بسهولةٍ نتيجة جدالٍ مع شخص جاهلٍ خارج مجال مِهنتها «إنهم يمتلكون جماجم

أكثر سُمكاً منّا، لدي كتابٌ يتحدث عن كيفيّة التعاملِ مع تلك الأدمغةِ الضّامرة وسوف...»

«لن تفعلي شيئاً من هذا» قالت السيّدة جين وهي تُحاول التّأكيد على وجهة نظرها بضربةٍ قوية من يدها اليُمنى على ذِراعها اليسرى، لكنها لم تكُن تحاول أن تسحق ذلك الشّيء الصّغير الذي قرصها «سوف تُعامل كامرأةٍ إنكليزيّةٍ حرة لأنّ ذلك هو جزءٌ من تجربتي».

أمرت السيّدة بانصرافِهما معاً، كانت قاسيةً وبعيدةً كما بدا الأمر، ولكنها أخبرت نفسها بأن ما كانت تقومُ بفعله كان أفضل بكثير للطّفلة من مُجرد احتضانها. لعنت نفسها، لم تتمكن من تصديقِ كذبتها بنفسِها، كبحها القاسي لرغبتِها الخاصة فضلاً عن احتماليةِ تبريرها.

«شيءٌ أخيرٌ سيّدة مونرو» قالت السيّدة جين عندما اقتربت الأرملةُ من الباب «سوف ترتدي الحِذاء وإلا فسوف نقوم بصرفكِ».

خلال العامِ الأوّل قام إسكافيٌّ تلوَ آخر بالقدومِ إلى منزل الحاكم مع أشرطة قياسِهم، قوالبهم، وجلودهم، عندما أصرّت السيّدةُ جين على أن تحظى ماثينا بأحذيةٍ جديدةٍ مصنوعة خصّيصاً لها.

رضخت ماثينا في العام الأوّلِ تحت التّهديدِ والإغراء، بالإضافة إلى رغبةِ الطّفلة الوحيدة في إرضاءِ وعدم إهانةِ مُربّيها، إلى فكرةِ ارتداء أحذية جميلةٍ للمنزل وأحذيةٍ للحفلات وجزمة مرتفعة تُغطي كاحليها، لكن قدميها آلمتها، وكان ارتداؤها للأحذيةِ قد جعلها تشعر أن جسدها كان معصوبَ العينين لكنها رغبت في أن تكتُب، وقد أخبرتها السيّدة جين بأنّها تستطيع الحصول على القلمِ والحبر والأوراقِ لو بقيت مُرتديةً أحذيتها فقط. كان سحرُ الكلماتِ المكتوبة قد استولى على ماثينا، راقبت السيّد جون والسيّدةَ جين وهما يتأملانِ تلك الخربشاتِ الشّبيهة

بآثار الطَيورِ على الرّمال والتي كانت تُزين حُزم الأوراق التي يتطلعان إليها، كانت تنسابُ فيهما تيّارات فخمة من المشاعر، بعد ذلك كانا يضحكانِ أو يعبسان أو يبدوانِ كأنهما يحلُمان، أصغت إلى موسيقى الكلمات عندما كانت السيّدةُ جين تقرأ الشعرَ بصوتٍ مرتفع، ولاحظت قوة تأثيرها على الآخرين عندما كان السيدُ جون يرفعُ رأسه عن قراءته الصامتة لمذكراتهِ طالباً المُساعدة من خادمه، كان للكلماتِ معنىً كبيراً وغير متوقع غالباً.

«هل إن الربَّ الأبَ كان قد كتبني» سألت مائينا السيدة جين بحماسٍ عندما كانتا ذاهبتين في رحلةٍ إلى الشاطئ عند خليج ساندي، كانت قد شاهدت آثارَ النوارس على الرِمال وهي تعتقد بأن «تاوتيرير» كان يبعثُ إليها برسالةٍ ما.

ضحِكت السيدة جين وأدركت مائينا أن ما قد كُتب في الكون لم يكُن يُهم أحداً، ولكن ما كُتب على الورق كان هو الأكثر أهميةً، لقد رغِبت بالكتابة ولهذا فقد رضِيت بالعمى المُصاحب لارتداءِ الأحذية، كانت تحاول أن تلتمسَ طريقها خلال ذلك العالم الغريب بواسطةِ حواسِها الأخرى ـ التعثر، السقوط، انعدامُ الاتزان ـ كل هذا كان لغرضِ تعلُم القليل من السحرِ الأبيض للورقةِ والحبر.

وهي تستلقي وحيدةً أحياناً في تينك الغرفتين الواسعتين العائدتين لها، وحيدةً في فراغٍ بدا لها أكثر اتساعاً من ليلةٍ مرصعةٍ بالنجوم، كانت تحاول أن تفكَّ ألغاز آبائها الكثيرين، كان الأمر أشبه بالتعاليم الكاثوليكية، سوف تكون منطقيةً لو كررتها عدةَ مراتٍ دون أن توجّه أسئلة، كان هنالك الربُّ أباها ويسوع ولده الذي كان بدورهِ يُمثل نوعاً من الآباء، كان هنالك الوصي والذي امتلك روحَ الأبِ وأخيراً كان

هنالك السيد جون والذي كان أباها أيضاً، أباها الجديد ـ العديد من الآباء.

لكنها لم تكن تكْتب إليهم، ولكن إلى الملك روميو والذي يُسميه القدماء تاوتيرير، والذي رحل إلى حيث يذهبُ كل الناس الهرمين، مكان القنصِ والغابات، ذلك العالم الذي لا يعودُ منه أحد، هي كانت تعلم أنّ السحر المرافق للأوراقِ البيضاء سوف يتمكن من الوصول إليه هناك وهو سيفهمُ كل ما تُحاول قوله له: عن وحدتها، أحلامِها، حيرتها، مرحها ووجع حزنها المُستمر ـ كل تلك الأشياء التي كانت عرضةً لخطر التلاشي.

أبي العزيز كتبت

أنا فتاةٌ صغيرةٌ صالحة، أنا أحبُ أبي، أنا لديَّ دمية وفستان وقميص داخلي، أنا أقرأ الكُتب وليس آثار الطيور، أبي أنا أشكرُهم على النوم، تعال إلى هنا لرؤيتي يا أبي، أنا أشكُرهم على الطعام، لديَّ أقدامٌ متقرحةٌ وأحذية وجوارب وأنا سعيدةٌ جداً، كل السفن العظيمة، أخبر أبي لديَّ غُرفتان، أنا أشكرُهم على الإحسان، أرجوكَ يا سيدي أرجوك عُدْ إليَّ من القنص، أنا هنا ابنتك المخلصة.

ماثينا

كانت السيدة جين قد تفاءلت بتلك الرسالة، «إنها حكيمة» أخبرت بذلك السيدةَ لورد، وهي امرأةٌ سوقيةٌ من العامة استخدمت سِحرها كي تنال حظوةً لدى السيدة الأولى للمُستوطنين الأحرار، «لقد قُمنا بإبعادها عن التأثير المُهلك للموت المحيق بأبناء قومِها ثم قدّمنا إليها أكثر نُظم التعليم حداثةً والذي قد تحظى به امرأةٌ إنكليزية» لم تتمكن من منعِ نفسها من إضافة «وقد كانت النتائجُ مُذهلة».

لكن عندما أخفق تاوتبرير في العودةِ أو حتى في الرد عليها ـ ليس بعد رسالتها الأولى ولا الثانية ولا الثالثة ـ فقد ابتدأ ولعُ ماثينا بالكتابةِ يتلاشى وأخذت تتذكرُ كم تؤلمها قدماها، وعندما اكتشفت أن رسائلها كانت مخفيةً في صندوقٍ خشبي باهتٍ تحت جمجمةٍ ما، لم تشعر فقط بوجعِ الخديعة التي ليس له مثيل ولكن بحزنِ التحرر من الوهم، أدركت أن القراءة والكتابة ليستا سحراً يتجاوز الأفراد بل إنهما ببساطةٍ جزء منهم فحسب.

تفكرت ماثينا بعد ذلكِ في دروس الأرملةِ مونرو وكذلك فعلت في الضربات التي كانت تتلقاها على يَديها ـ شعرت كأنها مُحتجزة وسط عاصفة: من الأفضلِ تجنُبها قدر الإمكان ولكنها كانت خارج نِطاق الحُكم على الأمور أو الإحساسِ بالغضب، بدا أنها تجدُ في عقوباتها اللامنتهية سبباً لتعلُم شيءٍ أكثر عمقاً وقتامةً من توجيهات القواعدِ اللغوية والمسائل اللاهوتية التي أصبحت لاهيةً عنها ولم يعُد نجاحها فيها يعنيها. ذات يومٍ كانت جالسةً إلى لوحةِ تطريزها والتي كانت تُمثل الجذع العاري لشجرة المعرفة، خلعت حذاءها وتوجهت إلى الخارج، اكتشفت السيدةُ جين ماثينا تلهو خارجاً في الحديقة وهي حافيةُ القدمين مع ببغاءٍ ذي عُرفٍ فضي كانت قد أمسكت به وقامت بترويضهِ، كان تصرفُها هذا سيكون عرضةً للعقاب ولكن كانت جريمتها قد بهتت عندما قورنت بجريمةِ الأرملة مونرو والتي وُجِدت فاغرةَ الفم مع لثة قذرةٍ وهي تحتسي شراب الجِن الممزوج بالسكر في المطبخِ مع الطاهية.

ابتدأت عمليةُ البحث عن معلم مرةً أخرى، والتي أفضت إلى كثير من النجاحات قصيرةِ الأمد، كان هناك ذات مرةٍ «جوزيف بينكويد» الذي وصل بعربةٍ مُتهالكةٍ ذات صريرٍ والتي كان قد ربط إليها كرسياً قديماً من الخيزران بحبلٍ مُهترئ، جلس عليه رجلٌ ممتلئ الجسد،

أحمر السالفين يرتدي جزمةً رثة من نوع ويللنكتون أكبر من قياسه بمراتٍ عدة، كان يبدو جاثماً على ذلك الكرسي بشكلٍ يستحيل استيعابُه وكان قد تلاشى بسبب عينِ ذلك الابتكار: وهو يهمُّ بمغادرة منزل الحاكم بعد درسِ اليوم الأول زُلت قدمه ذات جزمة الويللنكتون الكبيرة، حاول الإمساك بالكرسي كي يُعيد اتزانه ولكنهُ انكسر وهوى، عندما سقط المحتالُ العجوز والمعلم الجديد أرضاً تبعثرت من حقيبة «جوزيف بينكويد» مجموعة من الأطباق الفضية التي تحمل شارةَ آل فرانكلين.

ثم تلاه «كارل كرولز» وهو أستاذُ موسيقى من فينيسيا والذي كانت قُدراته تقتصر على الفايولا فقط، ثم مُحطم الأدوات «بيتر هاي» والذي كان تفكيرهُ المُتفرد وركونه المُستمر إلى فورييز وسانت سايمون قد أوضح بأنه رجلٌ كان لا يحدُ تفكيره شيء، لقد مرّ كل شيءٍ بسرعةٍ ولم يكن ذلك سوى انطباعٍ أولي كي يقوم بيتر هاي بالإساءةِ إلى التجربة التي كانت قد جوبهت قبلاً في مجتمع فانديمون بالازدراء إن لم يكن بالاحتقارِ المُعلن، ألم تتساءل السيدة لورد فيما لو كانت ماثينا ستُصبح خادمة السيدة جين الخاصة؟

«وكأنّ الطفلة عبارةً عن قردٍ جبلي» قالت السيدة جين لزوجِها بغضبٍ «إنها مُجرد حِليةٍ غريبة تُزين خيلاءنا المُزيف»، كانت قد تخلت عن أي أملٍ في إيجاد ما تصبو إليهِ في أرض فانديمون، فقامت السيدةُ جين بمساعدةِ بعض معارفها في ساوث ويلز الجديدة بتدبر معلم جديد من سيدني والذي وصل بواسطةِ القارب ذات صباحٍ آذاري دافئٍ بعد شهرين، السيد فرانسيس لازاريتو والذي كان يبلغُ طوله أكثر من ست أقدامٍ، رجلٌ طويلٌ ونحيلٌ ذو كتلةٍ كثة من الشعر الأبيض الذي انتصب فوقَ وجههِ المُثلث، ما أكسبهُ مظهراً شبيهاً بفُرشاة الطلاء. ارتدى معطفاً كان زاهياً ذات يومٍ ولكنه يبدو الآن بالياً مثل صاحبه، مرقعاً بقطع

القِماش القذرة، كان مظهره جنائزياً جداً إلى الدرجة التي وجد فيها السيد جون نفسه يطلب كأساً من البراندي لمساعدتهِ على الاسترخاء بعد لقائه الأوّل به، وهذا تصرفٌ غريبٌ على شخصه في ذلك الوقت من النهار.

«يا إلهي أنتِ لا توظفينه ليعمل كشاهد ضريحٍ حتى» قال السيد جون وهو يعبُّ كأسه في رشفةٍ واحدة، ولكن، وكما أوضحت له السيدة جين، ففي هذه الجزيرة المنعزلة عند حافةِ العالم حيث تنفضُ الأشجار لحاءها عوضاً عن أوراقها وتتجول فيها الطيور التي تماثل البشر حجماً حيث كان لزاماً عليهم أن يقوموا بتحويل بالوعةٍ نتنةٍ إلى حانوتٍ للعطور، فقد توجب عليهم العملُ بما يتوفر «لو تعثرت يدُ الخَزاف وهو يعمل على الطين الذي يُشكله لنا» قالت «فليس لدينا خيارٌ آخر سوى أن نشرب قدر استطاعتنا من تِلك الأواني المشوهة».

بينما كانت هي لا تحمل أعباءَ أطفالٍ من صُلبها فقد كانت السيدة جين تمتلك آراء متينةً ومستقيمة حول طبيعة وضرورة التعليمِ لأطفالِ الآخرين، كانت مسرورةً بفرانسيس لازاريتو لأنها وجدت فيه مرآةً تعكِس ببساطةٍ صورة آرائها المتينةِ تلك.

مظهره المُزري ذاك تراه هي الآن كأنه قناعٌ لقوّةٍ غير متوقعة، في حياته السابقة كان فرانسيس لازاريتو قد فشِل في تحقيقِ طموحه بأن يصبح ممثلاً إيمائياً ولكن دراسته المطولة للسفاسِف لم تكن من دون تأثيرٍ جيد.

لقد تجرأ على إقحام السيدة جين في نقاشٍ تربوي بعد أن قام بخطف نسخة من كتاب لأميل روسو من مكتبتها ولوحَ بها أمامها لدعمِ جِداله بأن أفكار السيدة جين سوف تخلقُ سيدةً شابة غير مُلائمة للعالَم

المتحضر، كان يُدرك قيمة الحُجة الجيدة لو تم عرضها بشكلٍ يفحم المقابل.

«لقد اتفق الخبراء» قال فرانسيس لازاريتو وهو يلوّح مهدداً «بأن أشهر جدلٍ بخصوص التعليم المُعاصر كوسيلةٍ لطرد الأرواح الشرّيرة من الممكن أن يكون كتاباً جيداً لأن الفرق يجب أن يُوضح، المرأةُ تتعلم كي تتمّ قيادتها بينما كان اقتراحك سيخلق سخافةً، امرأةً أشبه بالرجل تتحكم بذاتها».

بدا هذا الأمر للسيدة جين كرأيٍ لا تتفق معه ولكنه أثبت لها قيمة فرانسيس لازاريتو النفيسة، والشيء الذي كانت تجدُه جنوناً محضاً لدى غيره وجدته لديه كالتنويم المغناطيسيّ.

«تسعةُ أعشار ما نمثله نحنُ سيد لازاريتو، سواء أكان صالحاً أم خبيثاً، مفيداً أم ضاراً، يتأتى كما توافقني من ثقافتِنا الخاصة».

فرانسيس لازاريتو والذي كان قد أحضر رسالةً مُزيّفة من رئيس كلية ماجدالين تؤيد أنه قد أنهى سنتين في دراسةِ الأدب الكلاسيكي، لكنه على خلافِ ذلك كان قد درس لفترةٍ أربع سنواتٍ في مدرسة يوركشاير حيث حَظِيَ بعلم لا يُنتفع به، وقد تخلله كثير من التصرفاتِ العنيفة في المدرسة. بالرغم من هذا فقد كان ينظرُ لإنجازاته الشخصية كانتصاراتٍ ذاتية له، وبالرغم من أنه لم يكن راضياً عنها فما الذي سيفعله رجلٌ صنع نفسه بنفسه، ما الذي سيفعله رجلٌ يعتمد على نفسه فقط، وهو يقوم الآن بمعارضة أسيادِه في محاولةٍ منه لفرض نفسه كمخلوقٍ مُستقل وذي قيمةٍ عُليا.

«بالتأكيدِ سيدتي» أجاب.

شعر بأنه قد أثبت وجهة نظره من خلال معارضته بشكلٍ كافٍ، ترك

فرانسيس لازاريتو رأي روسو ورأيه الشخصي وقامَ بتقديمِ رأي سانت توماس أكوينس كدعم لرأي السيدة جين وتفنيد لمفاهيمه الشخصية، وقام باقتباسِ النص الأكليركي العظيم للإعلان بأن كل الأفراد في البدايةِ هم عبارة عن لوحٍ أبيض لم يُكتب عليه شيء.

«بالضبط» قالت السيدة جين وهي سعيدةً لمعرفتها بأن النصوص المقدسة تتفقُ مع اعتراضها، «إن المسافة بين البربرية والتمدُن تُقاس بدرجة سيطرتنا على رغباتنا الأولية، والطريقُ الذي يتم قطعه نحو الحضارة كما أرغب في إيضاح ذلك فهو التنوير الثقافي».

كان السيد جون غير متأكدٍ مما يصف به كلام فرانسيس لازاريتو «هراءً متملقٌ»؟ لكن السيدة جين أدركت أن قِلة حماس زوجها مردها غيرة رجلٍ جاهل بهذه النقاشات العظيمة.

«على هذه الجزيرة السجن المنبوذة، فقد توفر لدينا الحظُّ الجيدُ لإيجاد رجل واحد يُدرك أهمية وتفرُّد تجربتنا»، أخبرته بذلك بينما كان الخادم يقوم بإشعالِ النار في الموقدِ مُستخدماً روث البقر كي يُبقي البعوض بعيداً عن النافذة. بالإضافةِ إلى كل شيء، لقد كان شعرُ زوجها الخفيف هو ما يُزعجها تلك الشُعيرات البيضاء لديه تُذكّرها بشبكةِ العنكبوت - فتصيبُها بالاشمئزاز لأنها ترى فيها نذير تقدمها في السنِ هي الأخرى، وترى فيها القفص السخيف الذي توضعُ فيه كل النُسوة العجائز، كان السيد جون يُبقي شُعيراته الخفيفة ملتصقةً إلى رأسه بواسطة دهانٍ أسود للشعر والذي كان يترك جبهته في الأيام الحارةِ مخططةً بخطوطٍ زيتيةٍ داكنة.

«لا يمكن للربّ أن يكون أكثر رحمةً» قالت ببرود.

كان ينظر إلى إصلاحِ البرابرة كإحدى لحظاتِ المجد لقدرهِ

الشخصي ـ والذي كان حتى الآن بائساً، بعد أن تم تسريحهُ من وظيفته بشهادةٍ كاذبة لأحد أصدقائه في العمل ـ الذي قد بدأ يتحسنُ بعد ارتباطه مع هذا الإرث النبيلِ للمعرفةِ والتعاليم المسيحية. لقد توجه فرانسيس لازاريتو نحو هدفه في البدايةِ بمثابرةٍ علمية وذلك بتقديم منهج لاتيني كامل، إغريقي وبلاغي، وكان كل يوم يبدأ وينتهي بدراسةٍ مستفيضةٍ للنصوص المقدسة.

تماشياً مع أكثر التفكير حداثةً فقد مُنعت التفاهات مثل الروايات، بينما استُعيض عنها بالقواعد التطبيقية من سيدني لغرض تهذيبِ ماثينا.

كانت السيدة جين مستبشرة ظاهرياً، ولكنها مُكرهةٌ من ناحيةٍ أخرى على تقبّل نظام فرانسيس لازاريتو التعليمي الذي كان يشرحه بشكلٍ وافٍ في دفترٍ مجدول تتضمن صفحاته اليُسرى كثيراً من الجداول التي تشمل الدروس الأسبوعية، الصلاة، العلامات والسلوك، بينما كانت صفحاته اليُمنى بيضاء لغرضٍ تدوين ملاحظاته حول تقدم ماثينا، لم يكن البرنامج يسمح بأي تغييرٍ أو فشلٍ من أي نوع.

«إنه يقضُ مضجعي» قال السيد جون، ولكن عند رؤيته لزوجتهِ وهي تزمُ شفتيها غمغم بسرعةٍ «لكن الطفلة هي لوحٌ أبيض وليست دودة كُتب».

كانت الغرفة التي صُممت للدرس تقع في مواجهة الميناء ولديها نوافذُ كبيرة كي تُساعد على القراءة، لكنها كانت تُجبر فرانسيس لازاريتو في نفس الوقت على التطلعِ إلى العالم الخارجي والشمس اللامعةِ التي تنسكب على البحر أسفلها. لقد كان يُعاني من نوباتٍ من الجنون والتي يبدو أن الطقس كان يتحكم فيها ـ الجو الدافئ يتركه مبتهجاً بينما يسلّمه الجو البارد إلى القنوطِ، كان الجو دافئاً عندما التقى الحاكم

وزوجته، ولكن تغير الطقس بغد ذلك وتحولت الجبالُ إلى اللونِ الرمادي بفعل الثلوج والغيوم، بينما كانت تجربةُ السيدة جين الفخمة تواصلُ تقدمها.

عندما تلاشت الشمسُ فوق الماء، وتحوّل الماء إلى فوضى رمادية، وجد فرانسيس لازارتو نفسه لا يطيقُ هذا، لقد كان الأمرُ كما أدركه بلا جدوى ولامغزى كما كان كل شيءٍ في حياته كذلك.

ابتدأ الأسبوع الثاني بينما كان فرانسيس لازاريتو مستمراً في ندب حظّه، جلس متأملاً الغيوم الرمادية، بدت الطفلة متفهمةً لما يخبرها به عن معاناته، كانت تتفهم كثيراً من الأشياء، لقد أدرك ذلك، أخبرها عن حياته وعن النساء اللّواتي عرفهنّ وعن الطريقة التي كان بها كل ذلك بلا جدوى وبلا مغزى، علمته هي رقصة محلية خاصة مع بضع كلماتٍ من لغتها الأصلية.

في أسبوعه الثالث من التعليم، تلاشت الغيومُ وتحسّن مزاجه بشكلٍ ملحوظ وهنا فُرضت الحاجة إلى غرس تصاريفِ اللاتينية والإغريقية نفسها، لكن كل ذلك كان متأخراً، كانت ماثينا قد اعتادت على المزح مع أستاذها، وبدا أن اهتمام الأُستاذ كان قد تغير بشكلٍ ملحوظٍ، دخلت السيدة جين ذات يومٍ لتراهُما يلهوانِ مع ببغاء ماثينا: كانا قد ابتكرا لعبةً جديدةً من كُرة القدَم حيث يتنافسان مع الطائر حول جوزة هندٍ يقوم الطير بدحرجتها بمِنقاره.

«السيد لازاريتو لم يعُد السيد لازاريتو مطلقاً» قالت ماثينا بعد الشهر الثاني «إنه يسوع المسيح وقد بُعث بيننا».

«إنهُ ماذا؟»

«إنه المخلّص سيدتي» قالت ماثينا التي كان ترى أن تعاليم السيد

لازاريتو الكاثوليكية أكثر متعةً وتميزاً عن كل ما سمعته من قبل «بيننا كلنا، يقول بأن الآخرين لا يرونه كما هُم لا يرون الأفاعي وهي تُحلق فوق مدينة هوبارت ليلاً والخفافيش تحت أقدامنا نهاراً، هو يقول لو كان الربُّ غير معروفٍ لديّ فإنه غير معروف كذلك لدى الأفرادِ البيض ولكن كل هذا سيتغير في عيد الفصح المقبل سيدتي».

لقد اتضّح بأن فرانسيس لازاريتو لم يكن معلماً أبداً بالرغم من كونه قد عمل ذات يوم مدرباً للرقص، وبعيداً عن التمثيل فلم يكن يمتلك الكفاءة لأي شيءٍ آخر سوى عزف بعض الأغاني القصيرة على آلة الأكورديون، ومهارة خاصة للعب «العمة سالي» وهي لعبة كان قد علمها لماثينا وفيها يتنافسانِ على الإطاحة بعددٍ من القناني الخشبية عن طريق رمي عصيٍ صغيرة.

لم تسمح السيدة جين لفشلها الخاص مع ماثينا بأن يُفند نظرياتها ـ بل إنه كان يثبت صِحتها بقوةٍ: فقد تبيّن أن الكثير كان قد اتّضح في عُمر السابعة، وكان الذي يتعيّن عليهم فِعله هو كسرُ كل تلك القيود منذ الولادة، هذه الطريقةُ فقط كانت ستضمنُ بأن يكون التّغيير نحو الأفضل ممكناً. الشيء الذي كانوا بحاجته فعلاً الآن، كما أخبرت السيد جون هو تأسيس عالم يعمدُ إلى تشكيلِ الانطباعاتِ الأولى بشكلٍ صائب ـ على الأطفال أنْ يتنفسوا منذُ الولادة الهواء النقي للحضارة وليس فوحَ المُستنقعات الخانق في الغابات.

لقد وصلت تصاميمُ المنحوتات، قامت السيدة جين بشراءِ مئات من الأكرات في شمال غرب هوبارت في وادي الكنغر، حيث عقدت العزمَ على بِناء هيكلها للفنون، كان هذا سيُساعد على تهذيبِ الفراغِ والطّيش في المستعمرة، أخبرت السيّد جون أنها ستكونُ منطقةً لدراسةِ التّاريخ

الطبيعي، كانت ستوّضح كيف يتمُّ إدراك الفنِ بشكلٍ صائب وبطريقةٍ كلاسيكية، كما سيدعم ذلك الأربع والعشرين منحوتةً التي استقدمتها من باريس، كيف أنها ستُساعد الرّوح على الارتِقاء من الشّغفِ البدائيّ إلى المنطقِ المتحضّر، وفي نفس الوقت فلم تكن خُطط السيّدة جين لتطوير ماثينا قد تُركت جانباً بل كانت قد اتّخذت حجّةً لأجلِ استنباطِ مشاريع جديدة.

ولهذا فقد كبرت الطّفلة، التي كانت بعيدة عن الأنظار وفاتنةً، على تجنُّب دروسها.

كان فرانسيس لازاريتو قد توصّل وإياها إلى إتفاقٍ ممتاز، حيث يقضيان الصّباح في اللّعب وتُترك لفترة ما بعد الظّهيرة كي تفعل كل ما ترغب فيه، في إحدى أماسي الصّيف عندما توجّه السيّد جون إلى حدائقِ منزل الحاكم مع مونتيك لاستنشاقِ بعض الهواء، وخلال نِقاشه حول رصيف الميناء الجديد الذي كان العمل فيه لا يسيرُ بشكلٍ جيد، فقد لمح الفتاة المحلية في فُستان أحمر.

حال وصولها إلى هوبارت امتلكت ماثينا خزانةً متنوعةً من الثّياب لكنّها كانت تُفضّل اللّون الأحمر بشكلٍ مطلق، لا شيء يستحوذُ على مخيّلتها أكثر من ذلك الفستان الأحمر والذي كانت السيّدة جين قد ارتدته في طفولتها وقامت بتقديمه إلى ماثينا كهديةٍ في الذّكرى الأولى لقدومِها. كان فستاناً ذا أكتافٍ منخفضة وأكمام قصيرة مع حزامٍ بنفسجيّ داكن، كان الفستان الأحمر قد صُنع من الحرير النّاعم وقد صُمّم بطريقة الخصر المرتفع البسيطة والتي كانت رائجةً في فترة الثّورةِ الفرنسية، حيث كان أي شيء أكثر تعقيداً يُعد صفةً للانحطاطِ الأرستقراطيّ.

كانت ماثينا في الطّرف القصيّ للطريق المعبّد بالحصى، تلهو مع

ببغائها، تنثرُ الماء على أجنحتِهِ المُنفردة بينما يتبختر هو حول النّبع مثل سكّيرٍ عجوز. عندما تهادى الطّائرُ رقصت ماثينا رقصةً غريبةً، حيث بدا جسدها في لحظةٍ ما وكأنه يطفو، عندما اقتربا منها أدرك السيّد جون أنها كانت تُغنّي بلهجتها الغريبة المُخدّرة للحواس.

حتى ذلك اليوم لم يكُن قد لاحظ ماثينا حقاً، بل يعتبرها واحدةً من سلسلةٍ طويلة من مشاريعِ زوجته الحماسيّة، وكان قد تحمّل وجودها مثل الرّياح أو الثّلج بصمتٍ وتبلّد، في ذلك اليوم رآها كأنّما يفعلُ للمرّة الأولى، الآن فقط وعندما مشيا نحوها تمكن السيّد جون من الانتباهِ إلى عينيها التي تحدّث عنها الآخرون كثيراً، كانتا تبدوان أكبرَ وأكثر سواداً ممّا يُمكن تخيّله، وبالرّغم من أنّهما وفي حالاتٍ نادرة بعد التّوبيخ أو الإطراء كانتا تُحملقان فقد تفهّم السيّد جون السببَ وراء كونهما فاتنتين، كانت ماثينا قد تعلمت فنون الغنج الغريبةِ والتي اعتبرتها ببساطةٍ نوعاً آخر من الرقصات الحيوانيّة.

الآن فقط عندما مرّا بجوارها أدرك السيد جون كما قال عنها مونتيك بإعجابٍ ـ والذي كان منذ البداية لا شيء أكثر من مفتونٍ بها ـ إنّها البربريّةُ الأكثر جمالاً التي رآها في حياته، ولكن لم يكُن مظهرها ـ النوبيّ أو الشرقيّ هو ما سحر السيّد جون، بل شيءٌ آخر، إنها الطّريقة التي ابتسمت له بها.

«إن الأمر صحيحٌ» أخبر السيّدة جين عند العشاء أنه التّناقض بين الجمال البريّ وبين الفُستان المعاصر من عصر النّهضة هو ما وجده خلاباً، ولكن ذلك البريق اللاّمع المفاجئ لأسنانها هو ما جرّده من أسلحته، بريقُ الأسنان، دوامات اللونِ الأحمر، بحيرةُ العينين، رقصُ القدمين، لقد ذهب السيّد جون إلى كل مكان ـ لكنه لم يشاهد مطلقاً شيئاً مشابهاً لها، شعر بأنه كان قد استيقظ توّاً.

في يوم افتتاحِ هيكل المنحوتات، نظرت السيّدة جين إلى الجبلِ الجامح وقد غابتْ قِمته الثلجيّة في الضّباب، ثمّ إلى الهيكل الإغريقيّ الحجريّ الذي يقبعُ الآن على قِمة الوادي الخلّاب، فكرت ربما كان زيوس يلهو هنا ذات مرةٍ وقد تحوّل إلى أيّ حيوانٍ يشاؤه ـ ثور، عنزة، بجعة ـ كي يستحوذ على مخلوقةٍ فانيةٍ أخرى أو على إحدى الآلهة، في تلك اللحظة جاء كنغرٌ يقفز أمام الهيكل وقد تقاطعت حركة جسده القافز نحو الأعلى والأسفل مع أعمدة الهيكل المزخرفة بأقواسٍ من الطيران، ضحِكت السيدة جين على خيالها التافه.

وقفت ماثينا مع السيدة جين والوفد الرسميّ، لكن كانت وضعيّتُها تتغيّر، أصبحت أقل فأقل ابنة فرانكلين المُتبنّاة وأكثر فأكثر مخلوقاً آخر من الحيوانات الأليفة التي يعُجّ بها قصر الحاكم ـ الأبوسوم الأبهق، الببّغاء، الدبّ الصّغير ـ محض أدواتٍ للتّسلية.

بدأ السيّد جون يبحث عن ماثينا ويجعلها تُغني له أغاني بلسانها الأصليّ، وحالما تعرّف عليها بشكلٍ أفضل فقد جعلها ترقص له رقصة الكنغر ورقصة الأبوسوم ورقصة الإيمو، ولكنّ الرّقصة التي كان يفضّلها هي رقصة البجعة السوداء، حيث كانت ماثينا تدفعُ جسدها نحو الخلف وتمدُّ ذراعيها جانباً وإلى الأمام وكأنها تستعدُّ للطّيران.

هؤلاء الذين كانوا يرغبون في الدّخول إلى دائرة معارفِ آل فرانكلين، توجّبَ عليهم أن يتعرفوا إلى ماثينا وأن يصرّحوا بأنهم مفتونون بها، كانت تتقبلُ الإطراءات وتحظى بانحناءاتِ الاحترام من الجميع، وباتت الآن قادرةً على تعنيفِ الخدم الذين كانت خجلةً جداً ذات يومٍ من النّظر في عيونهم، باتت توبّخهم على عدم إرضائهم لنزواتها.

في ذلك اليوم وعند افتتاح «الأنكانثي» كما سُمّيَ المتحف، فقد طار ببغاء ماثينا إلى كتِف مونتيك وترك عليه بقعةً بيضاء رطبة من البُراز امتدت على طولِ معطفهِ الأسود، وبالرغم من محاولة السيد جون طمأنته بأن هذا يعد فألاً حسناً، لكنه لم يتمكن من التغطيةِ على ضحكة الفتاة السّوداء، واضحة وغير كتومةٍ والتي انتقلت بالعدوى إلى كل الحضور حتى ضجَّ الجميع بالضّحك.

همس مونتيك المُهان لزوجته «بأن الطفلة لم تتصرف كسيدة بل كمخلوقٍ بري» وأشار إلى الأرض حيث كان بإمكانهم رؤية أصابعِ قدميها العارية وهي تشقُّ طريقها في الوحل.

«إنها أشبه بالديدانِ واليرقات القذرة» سخر مونتيك «وكأنَّ التّراب بذاته هو مُتعة».

كلما امتنعت ماثينا عن أن تكون ما يرغبُ به آل فرانكلين، وكلما أصبحت نفسها أكثر، أعُجب بها الحاكمُ أكثر، كان مأخوذاً «بطيف الغابة» كما سماها بسبب حيويّتها العامّة وقدرتها الخاصّة على الظّهور من اللّامكان وإفزاعِ الآخرين: خاصةً السيّدة جين التي وجدت في الأمر ميزةً مُتفرّدة في البداية، ثم أخذت تجدُه مُزعجاً ثم منفراً بشكلٍ متزايد في آخر الأمر - كان مأخوذاً بما تعرفُه وما تفكّر فيه تلك اللُّغز الأسود المُبتسم.

كانت السيدة جين تشعر بشيء يلتفُّ حولها، تنظر إلى الأسفل فترى ذراعين داكنتينِ حول خصرها، كانت تقفزُ وتبتعد مسرعةً بينما تظنُّ ماثينا أنها لعبة ما، فكانت تقفز قفزتين خلفها وتلحق بها مع صيحةِ مرح وتلُف ذراعيها مرةً أخرى حول ساقي السيدة جين. كانت السيدة جين تتمكّن من شمّ رائحتها، تلك الرّائحة البريّة الخطرة، رائحةُ الكلاب

الخاصّة بالأطفال، كانت تقوم بدفع الطّفلة بعيداً مرّةً أخرى، ولكن ماثينا تُصّر وتتبعها وهي تسعى للإمساكِ بفخذي السيدة جين المغطّين بتنّورتها.

«رجاءً ماثينا» كانت السيدة جين تقول برقةٍ وهي تُمسك خصرها بخشونة «رجاءً أنا لا أحِبّ هذا» وكذلك لم يكن السيد جون يُحبّذ هذا كما قال، ولكنّه أخذ يتوقُ سرّاً إلى تلك اللّمسة وذلك الدِفء، كان يُحب الطّريقة التي تتحرّكُ بها ماثينا، بسرعةٍ وحيويّة. راقبها وهو مفتونٌ ذات مساء عندما كانت تقوم بنصب الفخاخِ لاصطياد طيور النّورس التي اجتاحت مرسى المدينة ـ قطعةٌ من الخبز في نهاية خيطٍ طويل تقوم ماثينا بسحبه بصبرٍ وأناةٍ منقَطعي النظير نحو كومةٍ من الأغصان والأحراش حيث تنتظرُ هي خلفها، وعندما تكون اللّحظةُ ملائمةً فإنها تختطفُ الطّائر كما البرق.

قضى باقي اليوم يلعبُ مع ماثينا تلك اللّعبة وهو يتجاهلُ مقاطعة مونتيك له بين الحينِ والآخر، ليُذكّره بأنه كان قد تأخّر عن ذلك الموعدِ أو ذلك اللّقاء، حتى تمكن أخيراً من استدراج النورسِ إلى الفخ، ولكنه كان بطيئاً جداً في الانقضاضِ عليه فحلق الطائر قبل ذلك، كانت ماثينا تضحكُ قبل أن يُكمل سقوطه.

لم يتمكن السيد جون من نسيانِ تلك الضحكة، كان يتحكمُ في البوصلة بطريقةٍ ممتازة، بخبرةِ البحار المحنك، الشمالُ ـ الشمال نحو الشرق ـ الشمال الشرقي نحوَ الشمال، الاثنتان والثلاثون درجةً التي ستوصلهم إلى المنزل بالتأكيد بعيداً عن فراغِ المحيط، الشمال الشرقي ـ الشمال الشرقي نحو الشرق ـ الشرق ـ الشمال الشرقي، كان يُغمغم بهذا كي ينسى تلك الضحكة.

لكنه كان في جنوبٍ لا شمال له الآن، وكل درجةٍ من درجات

البوصلة كانت تساهمُ في زيادة تركيز أفكاره بقوةٍ عليها، سواء أكانت غرباً نحو الشمال الغربي أم جنوباً ـ جنوب غربي، كانت هي في كل مكان، وعندما كان يلجأ إلى تسميةِ الرياح ومناشئ قدومها، كان ما يزال لا ينجحُ في ذلك. لقد أصرّت السيدة جين بأن على ماثينا أن تقوم بربط جرسٍ صغير حول رسغها كي يتسنى لهم معرفة مكانها، وكي لا يُخيف حضورها المفاجئ السيدة جين أو أصحابِ المقام الرفيع الذين يزورون منزل الحاكم، وكي تتأكد من أن «الوِعاء الأسود الفارغ» كما كانت تسميها السيدة جين «لن يمتلئ بأيّ طيشٍ إضافي»، بمجرد تسمية رياح السيروكو الجنوب شرقية أو رياح الميسترال الشمال غربية، كان هذا كافياً لجلب صوت ذلك الرنين إلى أُذني السيد جون «ألا يمكنهم رؤية ذلك» همس مونتيك لزوجتهِ «إن الطفلة عبارة عن فوضى عارمة».

لم يمضِ وقتٌ طويل حتى ابتدأ اهتمام السيد جون الجديد بابنته المتبناة يؤثّر على عمله، وجد نفسه متبرماً من الملل اليومي في اجتماع اللجان الإدارية في الصباح، المقابلات المُرهقة التي لا تنتهي مع المستثمرين عُقب الغداء، المذكرات المتوجب عليه إملاؤها، تعليماتُ الرقابة والتفتيش ـ تلك الكآبة الاجتماعية لليلةٍ تلو الأخرى من تناولِ العشاء مع أناسٍ كان يجدهم الآن الأكثر غباءً في هذا العالم، لم يكن متوقعاً من أيّ منهم أن يمتلك الفِطنة أو رشاقة الحركة للإمساك بنورسٍ، كان كل هؤلاء عاقدي العزم على عدم إبداءِ أية مشاعرٍ إنسانية أمام الرجل الذي كان بكل النية والقصد يُعد مليكهم، كان يقوم بإتمام مهامه ولكن كان تصميمه العنيدُ قد ولى، كان قد ابتدأ العيش في عالَمين، وعالَمٌ واحدٌ منهما كان هو كل ما يهمُه الآن.

مع ماثينا، كان السيد جون يلعب العمة سالي، كان يُدحرج جوزة الهند مع الببغاء ويشترك معها في الأغاني التي علّمها لها فرانسيس

لازاريتو، معها كان كل شيءٍ لا يسمح به منصب الحاكم ممكناً، أشياء كانت اعتيادية، بسيطة وممتعة يتمكنُ فيها من قولِ شيءٍ أحمق أو ساذج أو كليهما كما يفعل أحياناً ولا يُعاني من أية تبعات، مع الطفلة المحلية كان يشعر أنَّ بإمكانه أن يكون نفسه.

كانت هناك تأثيراتٌ أخرى أيضاً، بالرغم من أنه كان قد أُصيب بالذعر من الرقةِ التي أصبح عليها، أكثر إدراكاً لمعاناةِ الآخرين واحتياجاتهم، وهذا قاده إلى كثير من التصرفات العاطفية التي فُسِّرت كحماقات، والأسوأ كضعفٍ، لقد قام بتسريح خمسة من المُدانين الذين كانوا يقومون بقطعِ الطريق التي كان يسافر فيها هو والسيدة جين في الجنوب الغربي لمدة سنتين، لقد ارتأى أن يُقلل من استخدامه للسوط.

«الرجل لا يمتلك أي إدراكٍ للسلطة» اعترف مونتيك للحاكم «بيدر» وهو يقوم بخلطِ الأوراق لتحضيرها للعبتهم الأسبوعية من البيكيت.

غير معتادٍ على المرح ويُطالب بتبرير أفعاله كواجب، أخبر السيد جون نفسه كما اعتاد على إخبارِ الآخرين بذلك، إن هذه كانت تجربةً فردية بالغة الأهمية لمستقبلِ المُستعمرة، ولكنه تحت التأثير الآسر لماثينا فقد كان لا يأبهُ قيد أنملةٍ بالتجربة، بالمستعمرة أو بمستقبلها. كان يشعر سراً بالبهجة لما استحالت عليه حياته: تلك اللحظاتُ القليلة المُختلسة مع الطفلة مقارنةً بالعالم الخيالي اللامنتهي لإدارةِ المستعمرة، والذي كان يحتجزه مثل قوقعة، لأنه لم يعد يمتلكُ أيّ رأيٍ أو طموحٍ أو اهتمام بعد الآن، ولأن زوجته كانت تمتلك كل تلك الخِصال فقد تنازل عن كل مسؤولياته إليها، حتى إنه كان يسعى إلى سؤالها صراحةً عن النصيحة ثم الموافقة عليها مباشرةً دون أي نقاشٍ أو حماسٍ، بينما كانت أُذناه تنتظران دائماً رنين رسغ ماثينا فقط.

«لماذا سمَحت بهذا؟» تساءل مونتيك وهو مضطربٌ من الطريقة التي كان فيها الحاكم يعطي لأعدائهِ الدلائل التي يحتاجون إليها ضده.

«لم لا؟» ردّ السيد جون ثم ضحك لأنه تمكن من رؤيةِ مائينا خارج النافذة وهي تلهو مع الأبوسوم والذي بدا بعينيه الكبيرتين واللتين تفضّلان الرؤية ليلاً قد امتلك عين السُحنة المندهشة المُسلية التي امتلكها مونتيك في تلك اللحظة.

كان السيد جون قد ورث سكرتيره من سابقه أرثر، في التّاريخِ المُضطرب للمستعمرة مع قطاع الطرق وحرب السود وهمجية الخدم من المُدانين، القصص الخيالية عن الرجال الذين أكل أحدُهم الآخر وتصميم سابقه على شنقِ أكبرعددِ ممكنِ من الرجال ـ إلى الدرجة التي يدركُ فيها الجميع بأنهم لن يتمكنوا من تأملِ أي شيءٍ سوى الأمل نفسه ـ كان مونتيك قد لعب دوراً هادئاً ولكنه أساسيّ في ذلك الأمر، كان قد تفهم السلطة بكونها هيمنةً ضروريةً وليست مبرراً للذهاب في بعثاتٍ زاهية، كان قد ازدرى آل فرانكلين على سذاجتِهم فوق كل شيء.

«يجبُ على أحدٍ ما أن يفعل هذا» أكمل السيد جون وزوجتي ترغبُ بذلك ثم ضحك مرةً أخرى لأنه أدرك بأن مونتيك لا يرى كم هو تافهٌ وغير مجدِ التحكم في أي شيء أو أي شخص، كان السيد جون يعلمُ أنه قد أصبح مهملاً ولكن تمرده كان مُطلقاً، فلم يفكر بأنه قد يترتب عليه أية عواقب.

«السلطة هي شيءٌ كهذا» قال الرئيس «بيدر» لمونتيك بعد أن أخبره الأخير بقصتهِ «إنها مملكةٌ من الغفلة» أعلن عن اكتسابه لستين نقطةٍ وفاز في المباراة.

ما يزال السيد جون في بعض الأحيانِ يشعر بالخجل من نفسه، لأنه

وكرجلٍ تقي يسأل الربّ في صلواته عن الحكمةِ المُرشدة، شعر بأنه كان كما يصفه سكان المستعمرة، رجلٌ بدينٌ بلا فائدة، متيمٌ بالسلطة.

حاول أن يركز أفكاره حول أي شيءٍ عدا الطفلة المحلية، ولكن ذكرى ضحكتها فقط وحركاتها الرشيقة أعادت إليه كل الإحساس بالشباب والجدوى، لم يكن هنالك شخصٌ يتخبط في لُغز حياته أكثر من السيد جون، وعندما قابل ماثينا في الصباح التالي فقد أخبرها بقصصٍ أكثر عن الأراضي القطبية العظيمة، حكايات عن الجليد اللامتهي والعالم المُتجمد، وكان قلبه يحترقُ أكثر فأكثر برغبةٍ آثمة.

«لكنكَ تتمكنُ فقط من الاحتفاظ بالسلطة» قال مونتيك للرئيسِ بيدر وهو يبسط أوراقه ويُقدم لبيدر عرضاً للعديدِ من الإصلاحات التي أعلن السيد جون في ذلك الصباح عن رغبته في حصولها، «إذا كنت لا تُسامح في شيء وتتذكر كل شيء» كان العرضُ قد كُتب بيد السيدة جين، وكِلا الرجلين اللذين كان قد قاوم كُلٌ منهما مكيدة تحوّل هذا السجن إلى مجتمع وتشبّثَ بسُلطته لفترةٍ مطولة قام بقراءة تلك الوثيقة بإمعان، كِلا الرجلين كانا قد عَقَدَا العزم على الاستمرارِ بالحياة والاحتفاظ بالسلطة لأطول فترةٍ ممكنة.

لم يتمكّنِ السيد جون من التحكُم في الأمر، كما لم يتمكن من التحكُم في نفسه، تِلك الابتسامة، تلك الضحكة، تِلك الطريقة التي تسحب فيها ذراعه كي تجلُب انتباهه، تحتكُ بساقيه، تنحني وتدور حوله ولكأنهُ تمثالٌ ما، الطريقةُ التي يرتعشُ فيها لتِلك الذكرى. كثيرٌ من المشاعر، كثيرٌ من الذكريات ـ كلها بريئةٌ بالطبع، ولكن شيئاً ما أجبره على إخراجِها من ذهنه، لقد كانت لمستها... فكر بأنذهالٍ، الإحساس بأصابعِ يديها، جسدُها وهو يلامسه.

كانت تُحب الجبنة والخُبز المحمص أكثر من كل شيء، كان السيد جون يتأكدُ من تجهيزِ قطع الخبز المُغمسة بالزُبدة والمدهونة بالجبنة خصيصاً لها، ثم يُراقب فمها النهم الصغير بإصرارٍ بينما يلوّث الشحم الأصفر شفتَيها الجائعتين، وبعد أن تشعر بالشَبع فإنها تبدأ بالبحثِ عن ببغائها لتلعب معه أو قد تفشلُ في العثور عليه، فكان السيد جون يرافقها بعزمٍ وهو وفيٌّ لها كجروٍ صغير، ومروضٌ مثل الأبوسومِ وسهلُ الانقياد أكثرُ من الببغاء، مستاءٌ بعض الأحيان وغاضبٌ أحياناً أخرى ولكنه مُذعن غالباً.

كان يتسلل في بعض الأحيان إلى غرفةِ نومها ليراقبها وهي نائمة ـ وعلى عكسِ السيدة جين التي بدت ككلبٍ عجوزٍ لاهث مقارنةً مع هذه الطفلة الملائكية التي لم تندّ عنها همسة، كان يرتعشُ لرؤية سُمرة ذراعها العارية وعندما انحنى عليها حاملاً شمعته كي يراها بشكلٍ أفضل، كان يتمنى لو يُقبّل عينيها وشفتيها، مرتعبٌ من قلبه المُحتقن كان ينتصبُ واقفاً فجأةً ثم يسرع بالمغادرة.

لقد كان مفتوناً، وكحالِ كل المفتونين كان يرغبُ بالقربِ من فاتنته، كان يناورُ ويتلاعبُ كي يحظى بذلك، لو فكّر بأنه كان هنالك شيءٌ خاطئ أو منحرفٌ في ولهِهِ المُتزايد لم يكن ليُبدي شيئاً منه، ولكنه كان يندفعُ إليه ويجعلُ كل من في منزلِ الحاكم متحمساً لتلك التجربة الرائعة بمرح متصاعدٍ، كان يورط المُجتمع بأكمله بأن يحضهم على إطراءِ ماثينا عندما تدخلُ إلى الغرفة، ويجعلُ مدينة هوبارت قاطبةً تُلوّح لها وهي جالسةً إلى جواره في عربة النائب خلال تِجوالهما في المدينة. وعندما أثلجت فقد أخذ ماثينا للتزلجِ على منحدرٍ جبلي، حيث تحصّل على طريقٍ سالكٍ قام بشقهِ بواسطة بعض المُدانين: كيف صرخت ماثينا وهي تنحدرُ نزولاً على متن زلاجتها التي صُنعت خصيصاً لها، وعندما

أشرقت الشمس اصطحبها للإبحارِ عند مصب «ديروينت»، بالرغم من أن هذا كان قد أشعرها بالمللِ، وعندما اختفى حيوانُها الأبوسوم وكانت لا تقبل بأيّ ترضيةٍ في المقابل، فقد قام بأخذ الجبن والخبز المحمصِ إلى غرفتها بنفسه وقد اندهش حين قامت بقذفِ الصحن على الجدار. لم تُخبره ماثينا أبداً بأنه عندما لم يعُد الحيوان من جولته الليلية إلى فراشها عند الفجر، فقد ذهبت للبحثِ عنه كي تجد أحد كِلاب مونتيك يَسْحَقُ جثة أبوسوم بين فكيه المُغطيين باللُّعاب.

كانت قد مُنحت حيوان الومبت وحصاناً لتعزيتها، ومضت الحياةُ، لقد تنزها معاً، لعبا العمة سالي بالرغم من اعتراضِ السيدة جين بكونها لعبة سوقية، علّم السيد جون ماثينا لعبةً بالورق تفضلُها السيدة جين، لعبة «كالابريسيلا» وهي لعبةٌ لثلاثةِ أشخاصٍ، والتي قالت بأنها كانت شائعة في شبه الجزيرة اللاتينية، لقد صمّم على أنه إن كان لا بد له من تعليمها لعبةً ما فلتكُنْ لعبةً إنكليزية.

ولكن قومية اللعبة كانت لا تعني شيئاً لماثينا، لقد أحبت القفز على عصي الخيزران صعوداً ونزولاً وسمتها لعبة الكنغر، وبين تلك القفزاتِ كانت تُسمع التجشؤات، الضحكات، الشهقات، العطسات، القهقهات، الأنين والزعيق، في وقتٍ ما يكون هنالك جدالٌ، آراءٌ وملاحظاتٌ ثم يأتي الغضبُ، الخصام، الصمت، الغيرة وحرب الإرادةِ والتي كان السيد جون يقوم بتعويضها عنها بفطيرةٍ من الفواكه ومزيد من الخبز المُحمص بالجبنة.

كان يبدو أن ماثينا تنمو بسرعةٍ متزايدة، في التاسعة كان قد لاحظ تبرعُم ثدييها تحت فُستانها الحريري الأبيض ذي الخصرِ المرتفع والياقة المنخفضة. في العاشرة كان هناك انتفاخٌ كبدايةِ أثداءٍ لديها ورافقه تغييرٌ

في سلوكها ـ أكثر إدراكاً وحيطةً، كما شعر في لحظات إحباطه، وأكثر جاذبيةً، وكأن الصفتين ارتبطتا معاً، وكأن حياءً جديداً وثقةً جديدةً كانا قد تواءما معاً، وكذلك النزعةُ الجديدة إلى الخصوصية والرغبةُ الجديدة في الاكتشافِ، والتي عزمَ السيد جون على أن يكون جزءاً لا يتجزأ منها.

جسدُها ـ الصغير مقارنةً برأسها الكبير كان يتحرك بكياسةٍ كما لاحظ السيد جون بنفسه، مثل النمورِ المحلية، الوثبات المفاجئة كراقصةٍ باليه روسية، وبعفويةِ جسدها كانت تبدو متكاملةً وكأنها مُكتملة التكوين، بالغةٌ في العاشرة، وكأنه لم يكُن يُسمح لها سوى بحياةٍ قصيرة.

لم تتمكن السيدة جين من تحمّل الأمر ـ فكرةُ السفر إلى سفينةٍ في عَرض البحر على متن قاربٍ متهالكٍ تتقاذفه الأمواج لغرضِ حضور أمسيةٍ ممتعة، أصابتها بالضيقِ للوهلة الأولى، كانت قد أحبّت فكرةَ المغامرة، لكن مقاطعة روتينها اليومي ولو بشكلٍ ضئيلٍ كانت بالنسبةِ إليها مصدراً للانزعاج، ولهذا فعندما كانت تُضطر للسفرِ إلى العالم الجديد، كانت تُصر دوماً على أخذِ عالمها القديم معها، ولهذا السبب بالذات كانت قد أخذت صناديق قبعاتها الثماني والأربعين في رحلتها خلال قلبِ الجنوب الغربي لأرض فانديمون، عالياً بين الأشرعة، خلالَ الأدغال غير المُعرفة بخرائط، في الغاباتِ الداكنة، وهي محمولةٌ على أكتافِ أربعة مدانين حُفاة الأقدام.

ولذلك فهي لم تكن في مزاجٍ ملائم للشعور بالغبطة للزّي الدقيق الذي بدا فيه زوجها أمامها الآن، وهو يستعدُ للحفلةِ التنكرية الضخمة على السفن القطبية المُستعدة للرحيل، الأيرباس والتيرور، كان السيد جون يقف قُبالتها وهو يرتدي زي البجعة السوداءِ الذي لا يُلائمه.

وجدته نشيطاً بشكلٍ غير متوقع، وغير محتملٍ أيضاً، منذ أنْ

وصلت سفينتا الاستكشاف في الخريفِ الفائت وهي تعتزم التوجه إلى المنطقةِ القطبية الجنوبية، في اليوم الذي رَست فيه السفينتان زارهم السيد جون وبعد المراسيم الضرورية وتفقّد السفينة، كان قد تم اصطِحابه إلى غرفة الخرائط على مَتن الأيرباس، على طاولةٍ ضيقةٍ طويلة تجمعت لُفافات الخرائط، البوصلات وعددٌ من أعقابِ أقلام الرصاص وزجاجةٌ مفتوحة من مشروبه المُفضل «ماديرا»، أيقظت فيه رغبةً دفينةً منذ مدة للعودةِ إلى الاستكشاف، كان القبطانان «كروزر وروس» مُبتهجين جداً للقاءِ المستكشف القُطبي الشهير - والسيد جون الذي شعر بالإطراء والحبور كونه كما وصف الأمر يَحظى بعائلتِهِ حوله - ويقصد بهذا مُستكشفي البحرية الملكية، والذي وجدتها السيدة جين فيما بعد ليست بأكثرٍ من مأوى لمجموعةٍ من الفاشلين اجتماعياً، سُرعان ما عقد المُستكشفون الثلاثة صداقةً حميمةً - اللغةُ المشتركة، الشغف، بينما كانت السفينة تتخبط وهم على مَتنِها، كل هذا وجدته السيدة جين مستهجناً وغبياً بشكلٍ متزايد. شربوا نخب البسالة الإنكليزيةِ والنبوغِ الإنكليزي، شربوا للاكتشافاتِ الإنكليزية المقبلة مع أملٍ مُشترك غير معلنٍ بينهم بأن يكونوا أيضاً جزءاً من هذا التاريخ الإنكليزي المجيد، عندما أفرغ كأسهُ الثانية من الماديرا سُرعان ما وجد نفسه يحتسي الكأسَ الخامسة، شعر السيد جون بالتحرر، فكّر، كم كان سيُفضل مغادَرَةَ هذه المستعمرة البائسة ويتخلص من سُموم السياسة وطموح زوجتِهِ المتزايد ويكون مرةً أخرى في الفراغِ الأبيض للمنطقة القطبيةِ حيث تكون الخياراتُ والأوامرُ مباشرةً: الاستكشاف، الإبحار، البقاء على قيدِ الحياة ثم العودة. البردُ، الجوع، الموت، المخاطر، كل تلك الأشياء بدت ليست سبباً للقلق أو للخوفِ ولكن موضعاً للشعور بالفَخر، حقائق كان هو فقط وقليلٌ من النُخبة قد قابلها وتغلّب عليها.

«وكروزر»؟

«رجلٌ من الطِراز الرفيع» أخبر السيدةَ جين فيما بعد «القد قيلَ بأنه أكثر الرجال وسامةً في البحرية الملكية»، لم يُضف السيد جون بأن عظمة المظهر تلك جعلتهُ يشعر بالانتقاصِ، بدينٌ وأخرق ولكنه ـ شجّع نفسه ـ أكثر رجولةً، أكثر طولاً وشجاعةً مما يشعر به بصُحبة الآخرين، «كما يعتقدُ كثير من النساء» أضاف بعد تنهيدةِ ارتياحٍ «إنه أفضلُ من بايرون».

«فقط لو استبدلَ الموهبة بطولِ القامة» قالت السيدة جين والتي وجدت أن طول قامةِ كروزر كان أمراً غير ملائم، كان ينضحُ بحسٍ بليدٍ ذكّرها بأنها تجلس بالقربِ من كلبِ صيدٍ مبللٍ، لم تتمكن من رؤية أية علامةٍ من علاماتِ النُبل على ذلك الوجهِ الباهت، كان كروزر حالما يتكلم، يُفصح عن غباءٍ واضحٍ للعيان.

لم يكن الأمرُ يثير حماسها، ثم عندما استطال ما كان في الأساسِ توقفٌ للتزودِ بالمؤن والصيانة لبضعةِ أسابيع إلى أسابيع مطولةٍ، ثم بات واضحاً بأنهم كانوا قد حوصروا بالشِتاء، وسيبقى هؤلاءِ المُستذئبون معهم لأن البعثة كانت قد اختارت أن تقضي الشِتاء في مدينةِ هوبارت عوضاً عن المخاطرة بحياتِهم في الليلِ القطبي الطويل.

أشعَر التأخير السيد جون بالغبطةِ بالتأكيد، قام بتنظيم مجموعة من البرامج الممتعة لكروزر وروس وطاقمهما، رحلاتٌ، حفَلاتٌ، مشاريع علمية، كما أشرف بنفسهِ على تجهيز سُفنهم كي يتأكد مِن أنْ تحصل البعثة على أفضل نوعيةٍ وكميةٍ من المؤن، اصطحب الضُباط ليقوموا باصطيادِ الإيمو والكنغر كما قام ببناءِ مرصدٍ فلكي كي يُساعدهمَ في تدوين ملاحظاتهم الفلكية، قام بتسخيرِ كل وسيلةٍ متوفرة في المُستعمرة

لاستخدامهم وفائدتِهم، بالإضافةِ إلى ماثينا فقد كان هؤلاءِ المستكشفون شغفه الأعظم.

مقابل هذه الحفاوة قام روس وكروزر قبل انطلاقِ رحلتهم الطويلة في الربيعِ القادم بتنظيم حفلةٍ راقصة على سفينة الأيرباس، ولشدةِ تأثرهم بالحيواناتِ التي قاموا بمطاردتها واصطيادها فقد تقررَ أن يكون موضوع الحفلة هو حكايات كليلة ودِمنة.

لكن السيد جون وهو يقفُ أمام السيدة جين مرتدياً حُلته المصنوعة بدقةٍ من العديد من الأسلاكِ والريش ممسكاً قناعه بيدِهِ، كان من الواضح أنه كان متحمساً كثيراً لتلك الحفلة، أكثر من زوجته، حاول أن يتملقها بالمُزاح...

«لماذا، إن نابوليون بنفسهِ قام بصناعةِ فراشٍ لجوزفين من ريش البجعاتِ السوداء في أرض فانديمون» قال، لكن رغم قوله ذاك فقد أدركَ أنها كانت قد ازدادت تبرُماً من مُشكلة جَناحيه مُتقني الصُنع من الريش الأسود، كان زيّها الخاص أكثر بساطةً ـ بساطة وجدت أنها أكثر ملاءمةً لوضعِهما الاجتماعي، كانت سترتدي قناعاً صغيراً لوجه ثعلب، والذي كان قد صُنع لأجلها قبل عدةِ سنواتٍ أثناء زيارتها لفينيسيا.

«لقد فكرتُ بخيلاءٍ» قال السيد جون وهو يشعرُ بالإهانة «بأن ذلك سوف يُدهشك، تلك البراعة المُتقنة» كان قد وجد خياطاً يجمع بين دِقة مُحنط الحيوانات وحِرفيةِ أرفعُ مصممي الأزياء: مُدان نقل إليهم بسبب سلوكه الشرس ـ تفصيلٌ وجد الحاكم أنه من الأفضلِ ألا يذكره لزوجتِهِ ـ وقد قام بابتكارِ تلك الأجنحة الداكنةِ التي تبدو نصف مفتوحةٍ، كي تُعطي انطباعاً بأن السيد جون كان على وَشك الطيران. كان مُحَنِّط الحيوانات قد عزز ابتكارهُ ليس فقط ببهجةِ الوصولِ إلى السماء ولكن

بالاقتراحِ غير القابلِ للخطأ للمتعةِ الأرضية، أجنحةُ البجعةِ السوداء مُتقنة الصُنع كانت تنبسطُ نحو الجانب وإلى الأمامِ وكأنها تبحثُ عن فُرصتها في الهواء، وجعلت من جسدِ السيد جون ـ الذي كان مُعتاداً على الخمول ـ يبدو وكأنه يسعى للوقوفِ بشكلٍ منتصب، كانت لحظةً من الانعتاقِ المُذهل.

«أنت تبدو كأبله تماماً» قالت السيدة جين.

كانت كِلا السفينتين التيرور والأيرباس مزينة بشكلٍ باهر لهذه المناسبة، كان هناك سبعمائة كأسٍ زُجاجي أُعدت لغرضِ مُقايضتها مع المحلّيين الذين كان من المُتوقع مصادفتهم في المنطقةِ القطبية الجنوبية، تتدلى من على جانبي السفينة وتتساقطُ عليها أنوار الفوانيسِ الصينية التي عُلقت على سطحِ السفينة وصاريتها، انعكست الأضواءُ على مُقدمة ومؤخرة الميناء.

كان الكل متحمساً، كل شخصٍ كان يقول نفس الشيء مرةً بعد أخرى، حول روعةِ تلك الحفلة، تألقت ماثينا بفستانِها الأحمر المُفضل وقناع كنغر صغيرٍ، شقت طريقها يداً بيد مع السيد جون الذي كان يبدو بائساً ببزته الحربية، تمسّكه الوحيد بفكرةِ الأمسية كان قناعاً صغيراً لبجعةٍ سوداء، والذي قامت ماثينا بمحاولةِ انتزاعه ثم رميهِ على رصيفِ الميناء بقصد مُضايقته.

مشَوا على طولِ سُلم السفينة وعلى سطحِ السفينة الأيرباس، والذي كان قد استحالَ في تلك الليلة إلى حلبةٍ للرقص، مَرُّوا بجوار الخدم الخرقى والمُستخدَمين البؤساء وهم يرتدون بِزّاتهم التي كانت إما ضيقةً أو واسعةً جداً عليهم. رغبَ الجميع في ما وصلت إليه ماثينا، وسيلة للوجود في محور الأشياء، لم تكن تعرف هذا لكنها كانت تشعرُ به من الطريقة التي عاملها بها كثير من الرجالِ والنساء وهم يرتدون أزياءَهم

الحيوانية الغريبة ـ خُلد الماء، العنقاء، القنطور، وحيد القرن وحيوان الومبت الأسترالي ـ كانوا ينحنون لها، يُحاولون الاستئثار باهتمامِها، كم رغبوا في أن تتعرفَ إليهم، أن تقول شيئاً ما، لكنها ابتسمت فقط، الابتسامةُ كانت هي ما ينفع ـ الابتسامُ يُبقي السيد جون والمدام سُعداء، الابتسامُ يحافظ على شيءٍ ما بينك وبينهم. من زاويةِ عينها كانت تتمكنُ من رؤية البعض وهم يُهندمون أنفسهم، بحفيفٍ هنا وتنهيدةٍ هناك، أمام مرآةٍ كبيرة في مُقدمة السفينة، حامت حولها تعليقاتُ الإطراء والكلمات العديمة المعنى.

«أميرةُ المتوحشين» قال ذئبٌ.

كانت تتدربُ طِوال الأسبوع على تأديةِ الرقصة الرباعية.

«أجملُ البرابرة» قال دبٌ.

كانت مائينا تُحرك قدمها اليُسرى إلى الخلفِ خارجاً وداخلاً، رفعت يدها اليُمنى لتقدمها إلى شريكِها في الرقص، واحد اثنان ثلاثة أربعة، تركز على ما تتطلبه بدايةُ الرقصة، خمسة ستة سبعة، بينما تواصل التقدم تبتسمُ هنا وتبتسمُ هناك.

«ما الذي استحالت إليه طفلتهم القرويةُ الجميلة، لا أتمكن من قولِ هذا» قال نمرٌ «أعتقدُ أن الثقافةَ كانت سبباً في انحِدارهم».

لم تكن تفقهُ شيئاً مما يُقال حولها سوى أن سوادَ لونِها كان قد ميّزها عن الآخرين وجعلها استثنائية، ولكنه جعلها بطريقةٍ ما سيئةً، بل مُخطئةً، كل ذلك لم يكن منطقياً لأنها كانت تتمكنُ من تذكُر كل خطواتِ الرقصة.

«لم نأتِ إلى هنا لخدمةِ المجتمع والحضارة بل أتينا من أجل ما يرغبُ فيه كل شخصٍ غير مُدان، النقود».

كانت الفرقةُ العسكرية تعزف، ذلك الحدثُ غير الاستثنائي ذكّر

ماثينا بأمسياتِ نيرانِ المخيم في وايالينا، وتلك الحماسةُ والذهول الذي تشعر به في معِدتها بدا بشكلٍ غريب مألوفاً ومُرحباً به.

«لقد شعرتُ ـ منذ مدةٍ طويلة ـ شعرتُ بأن النوايا الحسنة تقودُ دوماً إلى أفعالٍ حسنة، تلك الحقيقةُ سوف تكتسح كل شيء أمامها، حسناً ليس من المُفترض أن أخبرك أن مشاعر كهذه لن تُعمّر طويلاً في أرض فانديمون».

بالرغم من كون ماثينا لم تفقَهْ شيئاً من كل هذا لكنها تركتهُ ينسابُ خِلالها، كَل تلك الروائح والمشاهد والأصوات، كل تلك الموسيقى، بينما كانت تحاول أن تتذكر كيف تُحتسب الإيقاعات وكم فاصلة موسيقية بينها وبين أن تستديرَ إلى الخلف. لكنها رفضت كل عروضِ الرقص، أخبرت كل من سألها بأنها كانت تنتظرُ الرقصة الرُباعية، تلك هي الرقصةُ التي تدربت عليها والتي عشِقتها ـ أما الأنواعُ الأخرى فقد كانت تعرف القليلَ عنها ولكنه غير كافٍ كي تنزل إلى الحلبة، حيث إنها كانت ستبدو غبيةً وبلهاءَ في حال ارتباكها.

رقصوا الكوتيليون ثم الفالس ثم الريل الإسكتلندي، كانوا يقفزونَ ويهتزون، رقص بعضٌ منهم بطريقةٍ عصريةٍ فخمة، ولكن ما تزال ماثينا ترفضُ كل التوسلاتِ للمُشاركة في الرقص على ذلك الجزء من سطحِ السفينة والذي صُمم كحلبةٍ للرقص، بل على العكس فقد استندت إلى الصاريةِ الرئيسة تراقِب وتشعُر بكلِ شيءٍ يتخللها، تُصغي إلى الموسيقى، مُقتطفات الحِوار، وتلتفُ قدمها اليُسرى يميناً ويساراً كالحبل المعقود.

«ألم نعُد زيوس بنفسهِ لدى سعادتك؟» سألت ابنة السيدة لورد الكُبرى بوقاحةٍ عندما كان السيد جون يُراقصها، بينما هزَّ هو قناع البجعة بظرفٍ وكانت ذقنه ترتعش بضِحكة.

عندما تواصلت الأمسية، تصاعد الرقصُ بشكلٍ حيوي وحماسي،

أحياناً كان يغطي الصوت القادم من الأسفل على جهودِ الفرقة العسكرية الحثيثة. الصوتُ المُتزايد المُهتاَج للعديد من الأجسادِ المُتحركة، أحذية تنزلق، كانت ماثينا تنسابُ مع الموسيقى وهي تشعر للمرةِ الأولى بالتناغمِ بين الأجسادِ الراقصة على الحلبة، ثم لا تنتبهُ سوى لجسدِها ـ ذكرياته ورغباته ـ وهو يترعُ بالسمو حتى يطفح.

أخيراً، نادى قائد الفرقةِ على الرقصةِ الرباعية، عندما قبّلت ماثينا يد السيد جون وذهبت إلى حلبةِ الرقص مع ثلاثةِ أزواجِ آخرين من الراقصين، فقد كان هنالك هتافٌ مهذبٌ، شعرت بالحرارة وبانقطاعِ نفسها ولكن حالما عزفت الموسيقى فقد شعرت بأنها كانت مركز الكَون، لم تكن مُدركةً لتعابيرِ الدهشة حول أدائها للرقصة وأصبحت خُطواتها أكثر ثقةً بعد الزوج القائد ـ السيدة لورد والكابتن كروزر ـ حيث قاما بأداء مجموعةٍ من الخطوات ثم قامت ماثينا والسيد جون والزوجان الآخران بتكرارِ تلك الخطوات، وعندما اشتدت وتيرةُ الرقصة فقد بدأت ماثينا بإظهارِ بعض الاختلافاتِ البسيطة في حركةِ قدميها والتي أصبحت أسرع وأكثر تحدياً.

السيدة لورد والتي كانت فخورةً بقدراتِها الخاصة، تخلّت عن الخطوات البسيطة التي كانت تقودهم بها وأخذت تقودهم بتتابعِ أكثر تعقيداً وسرعة، بدا الكابتن كروزر مصدوماً ولكنه، وكراقصٍ محترفٍ، فقد تدبّر أن يواكب شريكته، لكن الفتاة المحلية كررت خُطوات السيدة لورد بشكلٍ مُتقن ثم مع تصاعد الهتاف قامت بتنويمِ الحضور مغناطيسياً بحركات قدميها المُختلفة وانحناءاتِ جسدها، حتى إن السيدة لورد توقفت للحظةٍ ثم ضحِكت وصفقت لها.

كانت ماثينا الآن متحمسةً جداً وحُرة، وكأنها تهوي خلال السَحاب، كانت تبدو وكأنها تقتربُ من إدراكِ حقيقةٍ ما في نفسها، وكان الحضور يشجعونها على ذلك، كان بعضهم يقول بأنه تبقى هنالك

أقل من سبعين شخصاً من المحليين على قيدِ الحياة في مستوطنةِ روبنسون، لكن القارب كان يرتفعُ بها، كانت تشعر بالريحِ ترفعُها وتحُطها، لم تعد حركاتها عبارةً عن خطواتٍ أو قفزاتٍ أو انزلاقاتٍ ولكن شيئاً سحرياً استحوذ على جسدها.

في وسط الرقصةِ الأخيرة المُباشرة أدركت ماثينا أنها لم تعُد تتمسك بيدِ السيد جون، ولم تكن خُطواتها تتماشى مع أيّ شخصٍ آخر كما كانت قد تدربت بصبرٍ، لكنها كانت تُمارس شيئاً أكثر رسوخاً وتجذراً من رقصةٍ تم ابتكارها قبل خمسين عاماً في باريس. كانت وجنتاها تشتعِلان، جسدها يتحرر، لم يشعر ذهنها بتلكَ الحرية مما تُسميه الآن بالضبابِ الغريب الذي كمَن فوقه لمدةٍ أطول مما تتذكر، ولهذا فهي لم تكُن مدركة للانفجارِ الغريب الذي سببته في الأمسية، لم تكن عيناها سابقاً بتلك الحدة، كانت قادرة على رؤيةِ ومعرفة كل شيء ـ لكنها أخفقت في ملاحظةِ الهمسات، الرؤوس المهتزة، النظراتِ الغاضبة التي كانت تطوفُ ثم تنقضُ عليها. لم تشعر بالسطحِ المُشمع للسفينةِ بل بترابِ فان ديمون، وبحركتين رشيقتينِ قامت بخَلعِ حِذائها وأصبحت كنغر بشكلٍ مكتملٍ، طقطقةٌ هنا وهناك، ضربةٌ وقفزتَان ثم كانت تُحلق.

توقف الكلُ عن الرقص وكانوا يُحدقون إليها، ما الذي كانت تفعلهُ تلك الطفلةُ بحقِ السماء، ما هذه البربرية، لماذا ما يزال يُسمح بوجودها على حلبةِ الرقص.

توقفت الفرقةُ عن العزف.

تذكرت السيدة جين قولها ذات مرةٍ بأن جسد تلك الطفلة كان يُفكر، لكنها تتساءل الآن، وهي تنظرُ مصعوقةً إلى ماثينا ترقصُ طقساً بربرياً غامضاً، ما الذي يُفكر فيه الآن بحقِ السماء.

شعرت ماثينا بأنها كانت تمتلكُ تلك اللحظة فقط على سطحِ السفينة

كي تُعبر عمّن تكونه ـ لكن من كانت، لا أحد سيعرفُ هذا يوماً ولا حتى هي، تحلّق الجميع حولها ثم أطبَقوا عليها، كانت تُحاول الاستمرار في الرقص، ولكن كان هنالك أحدٌ ما يصرخ، شيءٌ ما كان غير صائبٍ بشكلٍ مريعٍ: شعرت بالدُوار، كان القاربُ يدور أسرع فأسرع ولم تعُد تقفزُ وتطير بل كانت تهوي وتهوي، كانت الأيدي تمتدُ نحوها، أيادٍ بيضاء، أيادٍ في قُفازات مُريعة كالأسمالِ التي يتم إلباسُها للموتى، هل كانت هي تموت، لم تكن متأكدةً من أي شيء، كانت تودّ لو تسأل ولكن لم تُسعفها الكلمات، لكنها كانت بحاجةٍ إلى معرفةِ شيء: هل كان ذلك هو الشيطان؟

خرجت ماثينا من نوبةِ القفز تلك وباتت تشعرُ بكيانِ الحضور يستحوذُ عليها، فتحت عينيها ولكنها أُصيبت بالذُعر، فقد انحنت فوقَها بجعةٌ سوداء عملاقة، أدركت ماثينا وقتئذٍ بأن حياتها كانت قد انتهت.

«روورا» همست ماثينا.

بعد أن أُغمي عليها حمل كروزر الطفلةَ الصغيرة بيديهِ الضخمتين إلى حُجيرة الكابتن، وهي غرفةٌ أوسع وأطول قليلاً من السريرِ الذي سجّاها عليه لِترتاح والذي قد استيقظت فيهِ الآن.

«ماذا؟» قال السيد جون.

بعيداً استمرت الحفلةُ وعزفت الفرقة.

كان هو كل شيءٍ وكل شيءٍ كان هو، نظرَ نحو الأسفل، إلى ماثينا، جسدَها الدقيق، كاحِليها العاريَين، قدمَيها الصغيرتينِ القذرتين، ذلك الوادي المُتخيل من الفستانِ الأحمر بين ساقَيها النحيلتين، شعر السيد جون بالإثارةِ ثُم لم يعُد كذلك.

٨

في صباحٍ باردٍ وخلال اليومِ الثالث من التدريبِ في هاي ماركت، وفي مُنتصف مشهدٍ تقوم فيه ماريا تيرنان والتي تلعبُ دور كلارا بورنهام باحتضانِ روز إيبسوورث، والتي تُجسدها شقيقتها إيلين، خرجت إيلين فجأةً عن الدور وتملّصت من حُضن شقيقتها وهي تصرُخ

«أرجوكِ كوني على حذرٍ سأنتهي كفطيرة طيورٍ مهروسة».

كانت تلك هي اللحظةُ الأولى التي يرى فيها ديكنز إيلين وهي تُقدم أداءً عفوياً، ولكن ذلك لم يكن جزءاً من النَص، وعلى الرغم من أن جزءاً منه كان متحمساً ومستمتعاً فقد كان ديكنز قلقاً وفقد أعصابه.

«عليكِ اللعنة آنسة تيرنان» قال بحنقٍ وهو يلوّح أمامها بنصِ المسرحية ولكأنّه كتابٌ مقدس «لم يتبقَ لدينا سوى عشرةِ أيام، ما الذي تقومين بفعله»، وكجوابٍ وليس من دون ترددٍ قليل فقد مدّت يدها إلى داخلِ مِعطفها وأخرجت طائراً صغيراً، قام بإصدارِ زقزقةٍ خافتة، «إنها محاكاةٌ مذهلةٌ سيدي» قالت إيلين تيرنان وهي غير واثقةٍ مما تقوله وهي تحملُ الطائر بين يديها الاثنتين ولكأنّه قربانٌ ما.

«إنها تجمعُ الطيور المُشرفة على الموتِ دائماً وتحاول إنقاذها» قالت ماريا «لقد التقطت هذا الزرزور من مدخل هاي ماركت».

«يبدو أن ثمة كسراً صغيراً في جَناحه سيد ديكنز» قالت إيلين تيرنان «واعتقدتُ أنه من الأفضلِ أن أُبقيه دافئاً».

«صغيرٌ» قال ديكنز «يجب أن نكون مُمتنين أنه ليس كسراً كبيراً».

توجه نحو كُرة الزغبِ الساكنة التي حملتها إيلين أمامهُ، «سوف أحظى بزرزورٍ» قال برقةٍ وهو يعود للكلام بينما يضعُ إصبعه تحت أحد جناحَي الطائر ثم الآخر وهو يقومُ بفردِ كل واحدٍ منهما بالتتابعِ ويتفحص الطائر «سوف يتعلم ألا يتكلم سوى بلهجةِ المورتايمر و...».

رفع ديكنز نظره عن الطيرِ ونظر في عينيها للمرةِ الأولى، لقد كان منذهلاً لم يكن لونهما هو ما تذكرهُ فيما بعد.

وأعاد قوله وهو يتلعثم «و...»

«ونُعطيه له كي نُبقي غضبهُ مُستعراً» قالت إيلين تيرنان.

«هنري الرابع». تواطأ ديكنز معها.

«شخصٌ مزاجيٌ» ابتسمت إيلين تيرنان التي كان ذلك الشاعرُ مألوفاً لديها مثل بَقّ الفِراش.

نظر ديكنز إليها للحظةٍ، كان لاحقاً سيُدرك أن ذكرى تلك اللحظة كانت لا تختصِرها الكلمات.

«الناس ينسوّن أن شكسبير كان مُمثلاً في البداية» قال أخيراً وهو مرتاعٌ من تلك العينينِ، أشاحَ نظره بعيداً مرةً أخرى واستقر على الطائرِ في يديها «ثم كاتباً ثانياً، ذلك كان هو سِرُّ نبوغهِ، لم يكن يمتلك إحساساً بذاتهِ وكان يتحمسُ فقط عندما يُحاكي الآخرين».

وهنا فكر ديكنز بطريقةٍ غريبةٍ صادمة: لقد أعطيتكِ سرَّ كِياني.

خطف الطائر وقد أحسَّ أن كليهما كان مشلولاً من الرُعب، هو الذي كان يُؤَثِّرُ على الآلافِ دون أدنى مجهودٍ، شعر بأنه أخرقُ وواهنٌ وهو يُحاول إقامة حوارٍ مع امرأةٍ شابةٍ أو أكثر قليلاً من مُجرد طفلة، بينما تجرأت هي «نسرٌ للإمبراطور» قالت إيلين تيرنان وهي تواصل لعبةَ الاقتباس «صقرٌ للخادم» وتوقفت، رفع ديكنز عينيه للمرةِ الثانية وتجرأت أن تنظر مباشرةً في وجهه «زرزورٌ» وابتسمت «يُحاكي الكاتب».

استدار عائداً وهو مُرتبك نوعاً ما، لفت انتباههُ صندوقٌ صغير من خشبِ الصنوبر كان يُستخدم كدعامةٍ ما، تناوله ليُحرر نفسه من تلك الفورة العصبية التي كانت تعصِف بداخلهِ وليس لأيّ سببٍ آخر، أخرج منديلاً من جيبه وصنع منه عُشاً صغيراً داخل الصندوق، ثم وضع الزرزور المُصاب في طياته.

تلك الليلة وبينما كان ذاهباً لتناولِ العشاء مع كاثرين على مَتن عربة، قام بوضع يده عالياً على فخذ زوجته المُغطى بفستانها، استدارت ونظرت إليه باستهجانٍ ثم سحبت ساقها بعيداً.

خلال الأسبوعين المُتبقيين لتجاربِ الأداءِ قام ديكنز بقضاءِ وقت متزايد بالقرب من إيلين تيرنان، كان بقاؤه لوحده معها أمراً عسيراً، ولكنه افتعل لحظاتٍ كان فيها الآخرون غائبين، وكان هو موجوداً بشكلٍ غير متوقع، وكما يبدو الأمر كمجرد مصادفةٍ فقد ارتطم بها عدة مراتٍ في تلك الأوقات. كانت قد وجدته مسلياً، وجدته عطوفاً ومتعاوناً غالباً ومرحاً على الدوام، ولم تتساءل إطلاقاً لماذا كان يجدها دائماً أينما ذهبت. شعر بها ظريفةً ومحبوبةً، وكانت شخصيتها القوية التي ضايقت والدتها بشكلٍ ملحوظٍ قد خلبت لُبه، أحكامها المباشرة وآراؤها الثابتة، اهتمامها بالكتبِ والمسرحِ وبالسياسة، كل ذلك كان يجعلها تبدو

متحررةً من جهل كاثرين المطبق وغبائها وصمتِها الثقيل، لاحظ أن إيلين كان بإمكانها أيضاً أن تكون طفولية، مشاكسةً وعنيدة، وأن أفكارها كانت أحياناً سطحيةً وحمقاء. ولكن الشيء الذي كان يُضايقه في زوجته كان يُشعره بالبهجة في إيلين تيرنان، وقد برر الأمر بأنه ليس بإمكانهِ إلا أن يشعر بالسعادة تجاه تلك الأمور التافهة، ولم يُفكر لثانيةٍ واحدة ما الذي كانت تعنيه تصرفاته تلك لأنه لم يكن يمتلك أي إدراكٍ مُسبق، لكنه كان واثقاً بأنه لن يُسيء إلى أحد.

بدا عالم ديكنز مزدحماً، كان هدفُ المسرحية كما أخبر أصدقاءه وحاول إقناعَ نفسه ـ هو الإحسان، إنها فرصةٌ لمساعدةِ الآخرين مرتبطةً مع متعةِ رفع قيمة العمل إلى مستوى أعلى مما توقعه، اندهشَ أصدقاؤه من طاقتهِ اللامحدودة، كمية الوقتِ والاهتمام الذي يبذله لإعادةِ بعث المسرحية، والاهتمام الذي يُبديه في تمارين الأداء. في الأسبوع الثاني من التدريبات اختفى الزرزور، ربما كان قد استجمع قِواه وحلّق بعيداً لم يتمكن ديكنز من مقاومةِ إحساسه بأن ذلك كان فألاً حسناً لشيءٍ ما سيتحرر قريباً، لكنه كان ناقماً من قلة الاهتمامِ التي تُبديها زوجته تجاه ذلك العمل.

«لماذا تُضيع كل هذا الوقت على شيءٍ كان قد نجح مسبقاً» سألت كاثرين زوجها ذات صباح، كانت تقف أمامه في مكتبته وهي تحمل زهريةً مليئة بالورود، «انظر إليها» قالت «البيكونيا، الداليا وكل تلكَ الأزهار الموسمية الجميلة لأجلِ طاولتك» وعندما لم ينظر إليها قالت بنبرةٍ باردةٍ فجأة «تلك النسوة آل تيرنان إن كنّ محترفات حقاً فلماذا تزعجهنّ بالتدريب كل هذا الوقت؟».

تقدمت كاثرين كي تضع الزهرية على الطاولة ولكن ظهرها، والذي كان متضرراً منذ ولادةِ ابنتها الثانية، وخزها بشكلٍ حاد، فتعثرت

وأسقطت الزهرية والورد والماء على حُزمةٍ من الأوراق المُرتبة على سطح الطاولة.

قفز ديكنز عالياً وبعيداً عن بركة الماء وهو يحاول باهتياجٍ أن يُنقذ كتاباته، ثم تمتم كيف أنه ليس باستطاعتِها أن تدبر منزلها بشكلٍ صائب، وليس من الغرابة بأنه كان يشعرُ بالحرج من اصطِحابها معه خارجاً إلى المجتمع.

«لكنك لم تلِد كل أولئك الأطفال» كانت تتمنى أن تُجيبه بهذا، وهي تحاول استعادةَ اتزانِ ظهرها بشكلٍ مرتبك، «أنت لا تعرف ما الذي يفعله ذلك بك، تصبحُ أثقل وتتوهُ ذاكرتك ويرشحُ جسدك ويحترقُ ظهرك» ولكنها لم تقُل شيئاً من هذا.

«أنا آسفةٌ تشارلز» قالت بصوت مرتعش «أنا آسفةٌ جداً».

بينما كانت تقوم بمسحِ الطاولة بقطعةٍ من القماش، استمرت بالاعتذار، لوّح ديكنز بكتابٍ مُبلل كان مفتوحاً على طاولته وسألها هل هي حقاً بذلك الغباء؟ هي لم تكُن كذلك. لقد كان الكتاب هو تأريخ كارلايل للثورةِ الفِرنسية وهو مُهدى إلى ديكنز من قِبل المؤرخِ العظيم بنفسه، كانت تعلم أنه كان يفتخر كثيراً بذلك الكتاب فقد أخبر أحدَ الزوار ذات يومٍ أنه كان قد قرأه خمسمائة مرةٍ، لم تفهم هي شيئاً منه، بالتأكيدِ كان هو سيشعر بالمللِ من ذلك الكتاب الآن، كان ذهنها ينصرفُ إلى التفكير بشيءٍ موجع جداً مما اضطرها إلى ضربِ جبهتِها بيدها في محاولةٍ عقيمة لإعادة الاتزانِ لحياتِها المريعة، شاهدت بصمتٍ زوجها وهو يقرع الجرس للخادمة كي تقومَ بالتنظيف، ثم التقط مِعطفه واندفع خارجاً.

أدركت أنها لم تفهمه يوماً، لقد كان مندفعاً، لقد أعادَ تشكيل العالم

كي يلائم تصوراته وأحلامه، كما كان يفعل في كلِ شخصياته الروائية وقد كانت تُدرك أن دورها من الآن فصاعداً لن يكون بأكثر من ربةِ منزلٍ بدينة، عاجزة، عصبية وعديمة الجدوى، محض عجوزٍ سليطة اللسان.

ألم يكن هو في كل كتابٍ وفي كل خطابٍ وحوارٍ له يؤكد على أهمية العائلة والمأوى والمنزل، وهي ألم تُدمر جسدها وهي تهبهُ الأطفال وتحاول إرضاءه، ألم تُحبه، وفي كُتبه ألم يكن حبٌ كهذا ينتصر دائماً، لم تكن تتفهم لماذا كان يزدري حباً كهذا في منزله ويصفُه بالغباء.

عندما عادت إلى لملمةِ الأزهار المتساقطة، أدركت كاثرين فجأةً أنها هي قد كانت من ابتكارهِ الخاص كأي نسخةٍ من تلك الأوراق الضبابية التي تُغطي طاولته، كأيّ واحدةٍ من تلك المخلوقاتِ الغبية التي يُصنفها كنساءٍ في كتبه، لقد قام بتحويلها إلى غبية، لقد حَوّلَها إلى تلك المرأة المُملة في رواياته، لقد أصبحت بطلةً له، في ضَعفها وإذعانِها وغبائها.

الآن فقط وبعد أن قضى عُمره معها، لم يعد يرغب بتلك المرأة ويتمنى لو اختفت من الوجود، كانت تعلم أن في مقدوره قولبتها بِفطنته، بلسانه، بكلماتِهِ القاسية ولكل العالم كانت ستبدو تافهةً ومتحجرة القلب، العالم، كما أدركت، كان هو كل ما يرغبُ فيه تشارلز، ولم تكُن تمتلك أدنى اعتراضٍ.

كانت تحاول أن تُعيد تنسيق الأزهار، الداليا، أزهار الذرة، الفاصوليا الحلوة، البيكونيا، وزهرة أنفاس الطفل، كانت حازمةً جداً في كل هذا ـ المنزلُ القديم المغطى بأغصانِ اللبلاب، جوقةُ الأطفال، الخدمُ الذين يتوجب عليهم التحلي بالظُرف، وهو يخبر العالم في

مقالاتِه وخُطبه عن أوقاتِ رأس السنة الممتعة، الأوقاتِ المرحة على مائدةِ العشاء الفخمة المُعدة لكثيرين، كانت تقوم بحشوِ المحار باللحمِ وتتأكدُ بأن اليخنة كما يحبها تماماً، وأطباق الدجاج التي لا تخلو من الخيال، وأرجلِ الحمائم التي تبرز من سطحِ الفطيرة كأغصان شجرةِ البتولا في فصل الشتاء، كانت تشتركُ في كل الألعابِ والتمثيليات التحزيرية، وكل شيءٍ جيد حصل في ذلك المنزل، كان قد استنفدها بشكلٍ سلبي.

تذكرت كيف أنه في اليوم الفائِت فقط، قال إنها كانت تؤلبُ الأطفال ضِده، كان يقول أشياءَ سيئةً، بأنها لا تهتم بهم كما يجب أو إنها كانت مُختلة العقل، لقد كانت بلهاء، إنها تعلمُ هذا، ظهرها يؤلمها بشكلٍ حارق بينما ينزُّ قلبها ألماً، كانت تحاول قدر استطاعتها ولكن لم تكُن الأزهار تتسقُ بشكلٍ ملائم، وكان العالم حولها برُمته يسبحُ في الفوضى.

سمعت صوتَ الباب الأمامي يُصفق، جاءت كايتي إلى المكتبة لتجد والدتها وحيدةً هي وزهرية الورد، كانت الاثنتان على قدرٍ كبير من العشوائية، بدت نصفَ مجنونةٍ، كانت تلهثُ وكأنها تختنق وهي في غفلةٍ عن ابنتها.

خرجت كاثرين من عُزلتها السحيقة قائلةً بصوتٍ لا يبدو كصوتِ امرأة لكنه بعضٌ من ضياعٍ محقق، كأن شيئاً نفيساً كان قد استُلب منها، ثم صرخت بشكلٍ مُفاجئ.

«إن هذا يؤلِم».

ثم لم تقُل المزيد.

في تلك الليلة جاء ديكنز إلى الفراشِ متأخراً، واستلقى على ظهره

لبعض الوقت، لم يلمسها، عندما كانت نائمة تقريباً شعرت به يقوم بفكِ أزرار ردائها الليلي ببطءٍ وشرود، استدارت نحوه وأقحمت وجههُ بين ثدييها، تمكّن من استنشاقِ رائحة زيت الخُزامى الذي تعطّر نفسها به كل مساء، لم تشعر بدموعهِ، كان يسترجعُ قول دانتون «أنت لا تقوم بالثورة بواسطةِ ماء الورد».

بعيداً عن ضجيجٍ وزعيق المدينة التي كانوا يغادرونها الآن، شقوا طريقهم أولاً بين منازلِ الرجال، حيث تعالت الضجةُ والهمهمة وتفجرت كالأمواج، زحفوا خلالَ الأراضي الرطبة، اندفعوا بشكلٍ هادر خلال العتمة والهواء الثقيل، ثم انفجروا ثانيةً نحو النهار المُشمس، واسعاً ومتألقاً. يحلقون خلال القش، خلالَ الغابات، يمرون بأشياء كانت تبدو في متناول يدِ الناظر ثم تطيرُ مبتعدة، شعر ديكنز بتنامي فراغٍ خادع في داخله بينما شعرت إيلين بأنها كانت تنطلقُ نحو الحياة التي ترغبُ بها، البهجة، الإثارة والمرح.

في رحلة القطار تلك في شهر حزيران عام ١٨٥٧، بصحبةِ طاقم الأعماق المُتجمدة وحاشيتهِ التي تحتلُ عرباتٍ عدة، تمكّن ديكنز من جعل السيدة تيرنان تذرفُ الدموع من شِدة الضحك، وهو يلهو بالألغاز التي كانت أجوبتها تنتقلُ بين العرباتِ من شباكٍ لآخر، وهي تتكئ على المِظلات وعِصي المشي، عندما كانت الأجوبة تتوه في الرياحِ العاصفة كان هو يركضُ جيئةً وذهاباً وهو يتظاهر بأنه يقوم بشدِّ شعره من شدة غضبه محاكياً بهذا قائد الأوركسترا بصراخهِ «يا لها من حيرة، يا إلهي، يا لها من حيرةٍ مزرية».

وعندما تَصاحَب ذلك اللهو البريء مع بعضِ الغزل المتحمس، ماذا في الأمر، فإن إيلين كانت تستمتع باهتمامهِ كضريبةٍ أدركت بأن على

الرجال دفعها من أجل الجمالِ الفني، لكن كان هذا كل شيء، وديكنز من ناحيته كان متحمساً ومثاراً ومكتفياً بهذه العلاقة الشاعرية، والتي لم تكُن تسمح بأي تواصلٍ عاطفي آخر، وكانت ستنتهي لأن قلبه المُهذب لم يكن يُطالب بالمزيد، كانت حدود القدرِ القاتمة حيث ديكنز ترقصُ حوله. عندما انحرفَ القطار فجأةً حول جُرف منحني، قُذف ديكنز إلى الزاوية، وهو أمرٌ يستحق الضحِك ببساطةٍ، أي سقطةٍ أو هفوةٍ كانت لا تُقابل بالمزاح الجيد، لقد كانوا مُترعين بالمرح وغافلين عن كل شيء، حتى عندما بدأ العالم حولهم يتغير بدرجةٍ كليةٍ إلى شيءٍ مختلف تماماً.

عندما تدحرج أكثر الرجال الإنكليز شهرةً على أرضِ القطار كانت أعين الجميع مبللةً بالدموع من شدةِ الضحك، زمجرَ القطار بشكلٍ مرتفع ثم بشكلٍ أعلى وهو يمضي بلا مقاومة حتى استقام طريقه وسطَ الرَماد المُتطاير والذي أحالَ كل شيءٍ إلى سواد، مرّ القطار خلال غابةٍ مُتفحمة، كانت الإنسانية قد نُفيت منها وأصبحت من الآن فصاعداً غير صالحةٍ للحياة.

خارج نوافِذ القطار، تطايرَ الدخان القذر حول أسطُحه البالية ونوافذه المُهشمة وخلال الغرفِ البائسة حيث تقبُع أوجهٌ مختلفةٌ من العوز والحمى والموتُ موجود في كل مكان. استدار ديكنز محاولاً عدم التفكير فيما قاله ويلكي ذات مرةٍ في لحظةٍ من التجلي «بأنه يواصل الحياة وهو يحتفظُ بوالدٍ متوفّى في أحد جيوبه وابنةٍ متوفاةٍ في الجيبِ الآخر، وهو لا يتمكن من محوِ صورة أيٍّ منهما من مُخيلته».

«لم نتأخر مسبقاً مثل هذه المرة» كانت السيدة تيرنان تقول مراراً وتكراراً وهي تحُث إيلين وابنتيها الأخريين على التقدم وسط الدُخان وصخب محطة مانشستر بعد يومين، «من الذي يعلم بأنّهم ما زالوا هنا».

حثوا الخُطى بسرعةٍ خلال الزِحام، وبالرغم من أن استعدادات إيلين للخروجِ كانت قد تسببتِ في تأخيرهم جميعاً، وكانت قد كلفتها مجهوداً عظيماً، فضلاً عن رجائها وتوسلاتها، وبضع دقائقٍ من الدموع فقد كانت الآن تستمعُ وهي تتهادى عن قصدٍ خلال سديم الكاربون والسلفر، وهو عذبٌ تارةً ورطبٌ تارةً أخرى، وتمشي وسط صليلِ الحديد المثير والصافراتِ المُفاجئة فوق رصيفِ المحطة المُهتز.

على الرغم من أنه لم يكن هناك شيءٌ مما ترتديه إيلين يعودُ إليها فقد كانت تتلقى نظراتِ الإعجاب منذ اللحظة التي خَطت فيها نحو ردهة فندق الغراند ويسترن ذلك الصباح مع شقيقتيها، كان يبدو وكأنَّ الفستان الحريري الرُخامي، والذي استعارته من شقيقتها فاني مع أكتافهِ المنحدرة الجميلة وزخرفة الدانتيلا الأنيقة، قد صُنع خصيصاً لها، وكأنَّ الوشاح الأرجواني والذي كانت والدتها قد ارتدتهُ في شبابها والذي يستلقي الآن على كتفيها كان يعود إليها دائماً، شعرت بتوازنٍ متكامل بين هذا الزي المَهيب وحياتها، بين روحها وبين العالم، كانت مدركةً للنظرات التي تحظى بها ولكنها كانت قد نشأت على المَسرح ورحبت بالاهتمام.

ابتسمت برضا كامل عن مظهرِها وبسعادةٍ أيضاً عندما لمحت وجهاً ملتحياً على الرصيفِ المقابل وهو يهزُ رأسه ويبتسمُ نحوها، عندما التقت عيناهما ـ السيد ديكنز. في تلك اللحظة تصاعدت الضجةُ بشكلٍ غير محتمل وابتدأ الرصيفُ بالاهتزاز، عندما تحركت إحدى القاطرات، أخذ قضيبها المزدوج يَتباطأ، بينما برزَ منها مهندسٌ مسودٌ بالشحم، كانت عيناه البيضاوان تتألقانِ كالمصابيح، عندما تدحرجت الماكينةُ الضخمة حائلةً بينهما.

عندما أخفى القطار منظر السيدة الشابة، استدار رجلٌ ضخم الجسد

وثقيله نحو ديكنز وانحنى على أذنه وهو يصرخُ أكثر من كونه يهمُس «بكلمةٍ واحدةٍ، عِشق الفستان هو سببُ دمار كثير من السيدات اليافعات».

«قد يكون الخضوع هو الفلسفة الوحيدةُ المتبقية» قال ديكنز «ولكن عزيزي الماموث، هذا لن يكون الأساس الذي أخبر الآخرون أن يعيشوا حياتهم وفقاً له»، كان يقف وسط مجموعةٍ صغيرة من الأشخاص الذين قام باختيارهم لمرافقتِه في نزهةٍ إلى ما يعتبر أعظم معرضٍ للفنون في التاريخ، وهو عرضٌ بلغ من العظمة أن خُصصت له بنايةٌ كاملةٌ في أولد ترافورد إلى جانب محطةٍ للسكك الحديد للحشودِ الزائرة. «أنا أتضرع للألوان» قال ديكنز وهو يبتسمُ وينحني قليلاً لعائلةِ تيرنان القادمة «أنا أتشوقُ للألوان في هذه الأيام القاتمة»، مدّ يده ومشى إلى الأمام باتجاه الإمبراطورةِ المُتألقة «للحظةٍ ظَننتُكِ الإمبراطورة يوجين بنفسِها» قال وهو ممسكٌ بيدِ إيلين تيرنان وهو يعلم جيداً ـ لأنها قامت بإخباره ـ كيف أنها قد اقتدت في أزيائها بتلك الملكةِ الفرنسية الشابة.

ربما كان التحرر الذي أكسبه الطوقُ الفولاذي التحتي المُدهش لفستانها مقارنة بأميالِ تنانير زوجته التي تحافِظ بواسطتها على انتفاخ فستانها، ربما كان شبابها أو ربما، تساءل، قليلٌ من الخيال، لقد كانت روحها الرائعة، تحركت بشكلٍ حُرٍ ورشيق، حاضرة البديهة وسريعة، وبخصرٍ مُتناهي الدِقة. تذكّر كيف أن امرأةً ما كانت قد ماتت وهي ترتدي تنورةً مثل تلك بعد أن تلامست مع شمعةٍ فاشتعل فستانها ككومةٍ من القَش، ولكن الآن كان هو من يحترق، وهو مُدرك جيداً أنه لم يكُن مسحوراً فقط بل ومفتوناً كذلك، ترك ديكنز يد إيلين تيرنان وهو يجفلُ مبتعداً كطائرٍ فزِع، ثم سارع في صرف الانتباه عن هفوتِهِ الوقتية.

«سيدة تيرنان، يا للمرحِ الذي ينتظرُنا» ثم تحدث إلى ماريا، أثنى على فاني، أخيراً انفجرت إيلين غاضبة...

«سيد ديكنز هل يروقُ لكَ وشاحي الأرجواني أم لا؟».

«أحمر» قال ديكنز وهو لا يتمكن من تمالُك نفسه «إنه أحمرُ داكنٌ وليس إرجوانياً».

«لقد أخبروني بأنه اللون التقليدي للعرائسِ في الهند» قالت إيلين تيرنان وهي تلُف خصلةً من شعرها على سَبابتها ولا تُكلف نفسها عناء النظر إلى فورستر ولكنها تتأملُ ديكنز وتبتسم وهي تتحدث، «إنها موضةٌ لمَّا تنتشرْ بعد».

عندما شقُّوا طريقهم إلى معرض مانشستر للنفائسِ الفنية، انتبه ديكنز إلى التناقض المُذهل بين محطةِ السِكة الحديد المُعاصرة وعجائبِ مغارة علي بابا، لقد كان منظرُ أشياءٍ مثل الحشود، الدفء الإنساني، قد أثَّرَ في ديكنز أكثر بكثير من كل أساتذةِ الفن العظماء، المشاهير المُعاصرين، ستة عشر ألفاً من أعمالِ النوابغ، تراكمت صفاً فوق صفٍ في حُجرة تلو حجرة.

أصيب فورستر بالدُوار وكان على وَشك المُغادرة إلى غرفةِ المُرطبات لتناولِ بعض اللحمِ المشوي والشراب عندما توقفوا أمام لوحةٍ لأحد أساتذة الفن القدماء، وهي تُجسد ليدا والبجعة، معلقة حيث اجتمعت كل الأعمال الخلاعية القديمة، في الصفِ العلوي.

«يُعتقد أنها نسخةٌ عن لوحةِ مايكل أنجلو المفقودة».

قال ويلكي وهو يناول إيلين تيرنان نظارةَ الأوبرا التي جلبها لغرضِ مشاهدة تلك الأعمالِ الرفيعة بشكلٍ أفضل.

«لم أفهم يوماً تلك الأسطورة» قالت السيدة تيرنان «إنه شيءٌ سيئ يبدو صالحاً».

اندفع بجهدِ رجل فاقد لساقيه بمحاذاتهم، يرتدي ملابس مُهلهلة

وهو جالسٌ على نصف برميل خشبي يرتكز إلى عجلاتٍ، قام بدفعه نحوهم بيديه المغطاتين بلفائف مُشعثة، ذكّر مظهره ديكنز بالسماور الروسي وأثار اهتمامهُ أكثر من كل اللوحات.

«الانسجامُ والتناغمُ هما ما تعنيه» قال فورستر الذي شعر بحاجةٍ إلى إبداءِ تعليقٍ حول كل شيء، رفع ويلكي عينيه ونظر إلى الصّالة التّالية «إنه تنافرٌ على الأغلب» أكمل فورستر «نتيجة لجريمةِ زيوس فقد تخصّبت لليدا بويضتين، ومن كلّ بويضة نتج طفلان أحدهما هيلين طروادة ولا أتمكّن من تذكّر الآخرين، ثم ابتدأت حربُ طروادة بعدها، دمارُ الشّعوب، هذا ما عنتهُ»، بهذه الكلمات اختفى فورستر إلى غُرفة المرطّبات.

عطس السماور بشكلٍ عنيف فجأةً وأصاب بعض من رذاذِ عطسته المقيت ماريا تيرنان، ومن دون أن ينتظر للاعتذار فقد دَحرج برميله ومضى مبتعداً، ذهبت السيدة تيرنان وماريا وفاني إلى الطرفِ الآخر من الغرفة.

شاهدت إيلين أولاً من خلال المنظار زوجينِ من الأطفال، وقد فقس كلّ منهما من بيضةٍ، ثم تصاعد نظرها نحو الأعلى إلى الإوزّة الوديعة وهي سعيدةٌ في حجر امرأةٍ عارية هادئة، لم يكُن الأمر كما قال فورستر إطلاقاً، كل شيءٍ وكل شخصٍ في اللوحة ـ الأطفال، البجعة، العالم بدا أنه ينتصبُ في رهبةٍ لأجل المرأة العارية، توردت إيلين تيرنان خجلاً، بينما جذب ذلك اللونُ الطفولي الذي انبثق من خَديها عينَي ديكنز، عندما كانت تناوله نظارة الأوبرا.

«أنا أستطيع التهام هؤلاءِ الأطفال» قالت إيلين تيرنان، كانا لوحدهما الآن، في تلك العُزلة التي مُنحت لهما من ذلك الحشد الصاخِب، ديكنز المُمسك الآن بنظارةِ الأوبرا والتائه في أفكارهِ البعيدة، لقد كانَ شارداً للحظاتٍ وكانت تتمكن من سماعه وهو يمتصُّ لسانه.

«كانت ستكونُ في السابعة الآن» قال.

«من؟» تساءلت إيلين تيرنان.

وضع ديكنز النظارة جانباً ونظر إليها بحرجٍ.

«أنا آسف» قال «ابنتنا دورا، عندما ولِدت كانت رقيقة جداً حتى إنكِ كنتِ لتتوقعين أن تجدي قشر بيضةٍ يُتوج رأسها».

«لم أقابل دورا أبداً» قالت إيلين تيرنان.

كانت دورا شيئاً لم يكُن ديكنز يتحدث عنه حتى مع كاثرين، لم يكُن ذلك الأمر يحتمل التندر أو الجِدال السخيف، تجاه موتها بدا بأنهُ لم يكن قادراً على تقديم أي دفاعٍ أو حتى تبرير، ولكن في ذلك اليوم وجد نفسه يقوم بإخبارها بقصةِ حياتها القصيرة، بكلماتٍ مختصرة، وصولاً إلى كيف أنه كان قد تركها مريضة، في ذلك اليومِ المشؤوم الذي ألقى فيه خِطابه أمام المَجمع المسرحي العام.

«لدينا في حياتنا بعضُ اللحظات فقط» قال ديكنز وتوقف، أصبحت الكلمات لديهِ كالغناء أو كالتمثيل، لكنه لم يكُن يغني أو يُمثل الآن «لحظاتٌ متتاليةٌ من البهجةِ والتساؤل، سيقولُ بعضهم جمالٌ أو سموٌ» ابتلعَ ريقه، لقد كان يتحدث عن دورا لكنه أدرك الآن أنهُ كان يتحدث عن شيءٍ آخر «أو كِلاهما، ثم تصلين إلى عمرٍ ما آنسة تيرنان وتُدركين تلك اللحظة أو حفنة من اللحظات لو كنتِ محظوظة، كانت هي حياتكِ، تلك اللحظات قاطبةً كانت كل شيء، وما دُمنا نُصرّ على الاعتقاد بأن تلك اللحظات ستكون فقط ذات قيمةٍ لو تمكنّا من جعلها تستمر إلى الأبد، فيجبُ أن نعيش تلك اللحظات، نحن لسنا مُجبرين بالتأكيدِ على مُلاحقة أي شيءٍ آخرِ سواها، مع المستقبل، مع كل تلك المراسي التي تسحبُنا إلى الأسفل، سنكون منشغلين جداً، حتى إننا في

بعضِ الأحيان لا نرى حقيقةَ تلك اللحظات، حتى إننا قد نترك طفلةً مريضةً كي نُلقي خطاباً ما». توقف عن الكلام، وضع نظارة الأوبرا على عينيه ثم أزاحها جانباً، لم يكُن ينظر إلى إيلين تيرنان بل مباشرةً نحو الجدار.

«يكمُن الأمرُ في....» قال ولم يُضف المزيد.

في ذلك الوقت كانت إيلين تيرنان قد أخبرتْهُ بشيءٍ لم يُخبره به أحدٌ من قبل، شعر به كغفرانٍ، وكأنها سمِعت منهُ شيئاً تجاوز كلماتِه.

«لستَ أنتَ المُلام» قالت إيلين تيرنان.

٩

بعد سماعِ صريرِ الباب وهو يُفتح ـ كان قصرُ الحاكم مُتداعياً وكان يتحركُ نحو الأعلى والأسفل ونحو الجوانبِ بشكلٍ متتابعٍ، كل شيءٍ كان مرتخياً أو عالقاً أو بشكلٍ أخرق أو كِليهما معاً استدار السيد جون عن النافذةِ التي كان يشاهد منها عاصفةً تُشرع في الهبوبِ على ديروينت، كانت السيدةُ جين تنظر إليه بعينيها الزرقاوين الغريبتين والتي كان ذات مرةٍ ولو لفترةٍ قصيرةٍ يجدُهما فاتنتين ولكنهما ذواتا انطباعٍ غريبٍ أدرك أنه لن يفهمه يوماً.

«سوف تدفعُ الثمن» قال السيد جون.

«ما الذي»؟

«ماذا» انتفضَ السيد جون والذي استرجع للتوِ الأمرَ الذي كان يحاول تذكره في الدقائق السابقة «هذا الذي قاله لي مونتيك، هذا هو، بأنني سوف أدفعُ الثمن».

كان السيد جون ذات مرةٍ يفتخِر بكونه لا ينسى أي شيء، لكنه الآن يواجه مشكلةً في تذكُر شيء صغير قيلَ قبل دقائقَ معدودة، والغريبُ في الأمر أن الأشياء الكبيرة التي كانت تبدو بسيطةً وواضحةً أصبحت الآن مشتتةً وضبابية، وكما كانت التقاريرُ والمذكرات تُصبح مشوشة بشكلٍ

متزايد وهو يُطيل التطلُع إليها، شعر بانطباعٍ مقلقٍ، بأن زوجته تتشوش وتتلاشى الآن إلى شخصٍ غريب.

«متى قال مونتيك شيئاً كهذا» تمكّن من سماعِها تتساءل.

«عندما رفضتُ أن أمنح ابن شقيقته قطعة أرضٍ» قال السيد جون، «ذلك الوقت وبعد أن فشلَ نسيب بيدر في الحصول على عقدِ بناء رصيف الميناء، فقد قال شيئاً مماثلاً».

«كان ذلك قبل سنواتٍ طويلة» ـ ابتدأت السيدة جين، ولكن السيد جون كان يلوّح بيده أماماً وخلفاً كإشارةٍ على العبثية.

«والآن فقد انتصر هو وأعداؤنا» قال «إنه أمرٌ بعيدٌ عن التصور».

في الخارج هبّت عاصفةٌ قوية، غرقت قواربُ عدة في الفوضى، طارت أسطُح المنازل، اقتُلعت الأشجار، طارت العربات والمركباتُ في الهواء كأنها ألعاب أطفالٍ وقُتل حصانٌ كُمَيْتٌ يعود للسيد لورد عندما طُعن بوتدٍ اخترق صدره كعودِ الأسنان، وفي داخلِ رأس السيد جون كانت الغيوم الداكنةُ للقنوط المتصاعد قد استحالت إلى عاصفةٍ جامحة مثل أمانيه، رغباته وذكرياته المتناثرة هنا وهناك، وهي تحطّم إحساسه بنفسهِ كرجلٍ صالحٍ وقائدٍ نبيلٍ، كأنّه كان يُحاول مُحاربة ذلك الدمار الغريب الذي أحاقَ به ومحاولته لتبريرِ ذاته فقد تناول السيد جون بعضَ الأوراق الرسمية ولوّح بها أمام السيدةِ جين.

«لم يكُن الأمرُ كما يجِب» قال وقد بدا صوتُه لوهلةٍ ـ لوهلةٍ فقط ـ كأنه زمجرة «هنا» قال بينما تصاعد حفيفُ الأوراق، ثم رماها جانباً وكأنها كانت تحرق أنامله، «أوامر وصلت من ديوانِ مكتبِ المستعمرة هذا الصباح، موقعةٌ من قِبل السكرتير بنفسه» كان جسدُه ينتفِض بل يترنح تقريباً من فرطِ الغيظ «سوف يتم استدعائي».

بعد قولِ هذا شعر السيد جون بأنه مُنهك القِوى، حدجتهُ السيدة جين بنظرةٍ عرفها مباشرةً بكونها نظرة صدمةٍ مطلقة وازدراءٍ خالص، كيف يمكن، تساءل، أن أُلام على إهانةٍ فاضحةٍ كهذه، تذكّر استقبالهم المجيد لحظةَ وصولهم إلى هوبارت، العِناق، السعادة الاستثنائية، وكأنه كان يقوم بتحريرِ الناس من طاغية، في أعماقِ روحه بأن جريمتهُ تكمُن في فشله في تأسيسِ طغيانٍ جديد.

«لماذا» تساءلت السيدة جين وقد بدا صوتُها ناقماً.

«لقد كان أمراً مذهلاً» فكر السيد جون، ذلك الذي قاله كروزر عندما كان بصحبتِه، «لقد تمّ إرسالك لاستكشافِ أرضٍ جديدة، لأنك تشعر بأنكَ تائهٌ دوماً».

«لأنهم... يبدو أنهم قد نجحوا في إقناعِ سكرتير المستعمرة بأنني عاجزٌ وفاسدٌ و...»

«ولكن في حقيقةِ الأمر».

«الحقيقة؟ ربما لأنني لم أكُن فاسداً بل كنت أحمق».

«لو أخذتَ تلك العُمولة البائسة في هذه الجزيرةِ المنسية» قالت السيدة جين فجأةً وهي مُهتاجةٌ بشكلٍ غير مألوف «لما كان لديك أعداء، لقد كنّا ننشد بهرجةَ السلطة ولم نُعد العُدة لتضحياتِها الضرورية».

لقد كان صحيحاً إنه لم يكن يرغب في أيّ عمولة، وإن كل عمله كان من تخطيطِ زوجته ـ ولكن حياته منذ لقائهما كانت من تخطيطِ زوجته، لقد أعتقته من سُلطته السرية، من افتقارهِ اللامتناهي إلى الطموح، هل بالإمكان لومه على ذلك الاستسلام إليها بشكلٍ كامل، لقد سمع مونتيك يقول ذات مرةٍ إنه كان شخصاً مهزوزاً، ألم يكُن هذا

هو المعنى المُستتر في رسالة سكرتير المستعمرة والتي كتَب فيها «النفوذ غير المُلائم الذي مُنح للآخرين».

لقد أربكَ هذا السيد جون أكثر من أي شيءٍ آخر، هل تواءم ضَعفه مع ما تجلبه الحياة ـ معاناته وتضوره جوعاً في الجليد القطبي، إسعادُ شخص آخر بالامتثال لرغباته ـ أم كانت حِكمته.

«ثِق بهذا» قال مونتيك ساعة وصولهم، وهو يُشير بذراعه النحيلة تجاه العاصمة الخربةِ وما تحتها، الحزامُ النباتي المُتصل الذي يُحيط بالمدينة، الجبالُ المجهولة اللامنتهية، الأنهارُ غير المُعرفة بخرائط.

«لكن أثقُ بماذا»، أرضٌ غريبةٌ تعود لزمنٍ ما قبل التّاريخ، ألوانُ قوس قزح المبتذلة، الانحطاط، الغابات المُتسعة والحيوانات الغريبة التي يبدو أنها قد تاهت منذ نَفي آدم.

أم إن مونتيك كان قد قصد الناس ـ البهائِم الذين يقومون بخدمته، ينتظرونه، يعملون كموظفينَ وجلّادين وطباخين وحلاقين وكل شيءٍ آخر، لقد كانوا جميعاً من المُدانين، مسرحيةٌ ساخرة، ممثلون بشعون، إهانةٌ مقرفةٌ للذاكرة، وكل هذا في نظر السيد جون جعلهم أكثر سخافةً في تقليدهم الأعمى لكل ما هو إنكليزي، لقد لاحظهم يتحولون إلى شيءٍ آخر، برابرةٌ كالبرابرة، وفي الأقاصي البعيدة، كان يُقال إنهم كانوا يتراجعون إلى طريقة مماثلةٍ في الحياة، يرتدون جُلود الكنغر، يعيشون في قبائل، ينامون في الأكواخ، لا يعملون سوى على قتلِ الحيواناتِ المحلية كي يعتاشوا عليها، لقد وَثق بكلِ ذلك، حسناً فكّر السيد جون بمرارةٍ، وَثق بالكثيرِ ولمدةٍ طويلة، وكان الآن هو من يدفعُ الثمن، عندما مشت السيدة جين نحو الباب ثم توقفت وبدت وكأنّها تتأملُ شيئاً ثم عادت...

«الفتاةُ السوداء» قالت.

شعر السيد جون بأن عبارة كهذه كانت لا تُبشر بالخير، كانت السيدة جين تدعوها ماثينا عندما تكون مسرورةً منها وهذا أمرٌ نادر الحدوث، والفتاة السوداء عندما لا تكون كذلك والذي كان غالباً في هذه الأيام.

«أنا أرى أنكَ قد استسلمت في ما يخصها».

بدا السيد جون وكأنه يفكر.

«تلك الأوهام الغريبة التي تلبستها على مَتن الأيرباس في العامِ الماضي» واصلت السيدة جين «يبدو أنها قد أثّرت عليها بشكلٍ سيئ».

انتظر السيد جون.

«إنه نوعٌ من الاضطراب العصبي الذي بات يُلازمها» قالت «ألا تظنّ هذا؟».

لم يكن السيد جون متأكداً.

«عوضاً عن أن تتحسن بسرعةٍ كما هو متوقع من الطفلِ الأبيض» قالت السيدة جين «فقد أصبحت أسوأ».

عندما أضحت الأسابيع شهوراً فقد علم السيد جون أن ماثينا تعلمت أن تتجنب رؤية أيّ أحد، ولو حدث ذلك فقد تعلمت كيف تُسعده من دون أية إساءةٍ، لقد أصبحت أكثر شبهاً بالحيوانِ الأليف عوضاً عن طفلةٍ في ذلك المنزل.

«بليدة» قالت السيدة جين.

لقد علِم بأن ماثينا لم تعد تحُث نفسها على التقدُم نحو الأمام، تتمسك بالأرجل أو تختبئ خلفَ الأثواب، كل الذي تبقى من روتينها

اليومي كان قد انسحقَ تحت رفضِها العنيد في أن تتفاعل مع أيّ شيء كانت تراه أو تتعلمه، علِم أنها كانت مرتعبةً منه.

«ومتوحشة» قالت السيدة جين «إنها حيوانٌ يقوم بمُهاجمة الخدم، تضرب وتصرخ وتخمش، حتى إنها قامت بعضّ إحدى الخادمات، السيدة ويك، وعندما أُجبرت على مواصلةِ جدولها اليومي فقد كانت قذرةً وانطوائية، بدا الأمر وكأن المرض كان قد أثّر في روحها.

للمرةِ الأولى أدرك آل فرانكلين شيئاً في ماثينا وكأنهُ فشلٌ علني لهم في أرض فانديمون، لأن الطفلة السوداء لم تُصبح بيضاء.

«إنها حانقة» قالت السيدة جين.

«إنه أمرٌ لا يمكن تفسيره» أجاب السيد جون.

«الربُّ يعلم كيف ستتصرفُ في لندن» قالت السيدة جين وبهذا استدارت ثانيةً وغادرت الغرفة.

عاد السيد جون إلى النافذة وإلى السديمِ الرمادي للمطر.

عبر الشارع في الأسفلِ كان شحاذٌ قد خلعَ مِعطفه الرّث وحمله فوق رأس عجوزٍ شمطاء، وهما يُسارعان بالمشي، في تلك اللحظة حَسد السيد جون ذلك الشحاذ على إيثاره، على حياته، في هذا العالم الواسع المُفعم بالحياة، بالحبِ وبالأشياءِ الكثيرة، أدرك أنه كان وحيداً.

ظهر أحد الخدم عند الباب.

«فيما بعد» قال السيد جون.

لقد كان الأمرُ يتعلق بالجزيرة، بمركزهِ، بطموحه المُتلاشي والسمعة غير المبررة التي اكتسبها بكونهِ عبئاً ثقيلاً على الآخرين، شيءٌ لا يمكن احتماله وسخيفٌ إلى درجةٍ كبيرة، لقد كان جائراً، كما كثير من

الأشخاصِ الذين عرفهم، لقد كان تحت تصرفِ السيد جون نظامٌ مكونٌ من ستمائة جندي تقريباً، نصفهم كانوا غير ملائمين للخدمة، وبالرغم من هذا فإن هؤلاء الرجال الذين لا يُعتمد عليهم تمكنوا من استعباد عشراتِ الألوف من المُدانين أو ربما أن عشراتِ الألوف من المُدانين قدموا أنفسهم للاستعبادِ طواعية.

لماذا، لقد بدا الأمرُ غريباً وسخيفاً مثل أيّ شيءٍ آخر في هذا العالم، ولكن في خضوعِهم المُشترك ذاك فقد شاهد طبيعتَه تتجسد ـ فبعد كل شيء، كان قد قضى معظم حياته وهو حبيسُ رغبات وأحلامِ الآخرين.

عندما جلس السيد جون في مكتبته الكئيبة انهار على أريكةٍ متهالكة، لقد كان مستاءً من الفانديمونيين بشكلٍ عام، ومن كل شخصٍ عرفه، بالخصوص: زوجته، مونتيك وماثينا ـ خصوصاً ماثينا، لقد أبغضهم وازدراهم وأراد ببساطةِ الابتعاد عنهم، كم كان يتوقُ للهربِ إلى حلمه القديم المريح بأن يكون بصحبةِ مجموعةٍ من الرجال في الجليد، حيث يكون حراً من كل تلك الأشياء، جلس هناك لوقت طويلٍ، وحيداً، صامتاً، عندما انحسر ضوء النهار وزحفت العُتمة أصبح جلياً لديه ببُطء، من كان المُلام.

«البرابرة» همس لنفسه.

«بالتأكيد» فكّر، الشخصُ لديه أعداءٌ دائماً، كان هذا واضحاً، لقد كان يتوجب عليه أن يمنحهم الأراضي وعقودَ البناء وأشياء أخرى إضافية، ذلك كان أيضاً، في تلك اللحظة كانوا قد تسلّحوا ضِده.

ومن قِبل من؟ لقد تسبّب البرابرة بفشلهِ، كيف أمكنه ألا يرى هذا، لقد شاهد الوحش فرصةً للنَيْلِ منه وقام باستغلالها، وتصرفاتها كانت

خير نذيرٍ على ذلك ـ في البداية سحرته بشكلٍ واضح، بسحرٍ غريب ثم احتقرته ـ نعم، لقد كانت هي التي غذّت بتصرفاتها تلك الإشاعات وسلّحت أعداءه، وخلقت تلك الفضيحة التي أدّت إلى تسريحهِ المزري، ربما كان مونتيك هو من أطلق السِلاح ولكن السيد جون أدرك أن شعوذةَ ماثينا هي التي مهّدت لإطلاقِ تلك الرصاصة.

لقد تركت تلك الفكرة الرهيبة السيد جون بارداً بشكلٍ غريبٍ وهادئاً، في الخارج كانت العاصفةُ قد خمدت إلى رذاذٍ متقطع، وكل ما تبقى منها هو أصواتُ الحيتان المُتدافعة في الأنهر الواسعة في الأسفل، تليها الصرخاتُ البعيدة لقواربِ صائدي الحيتان وأصحاب الحِراب وهم يبدأون بالمجزرة.

بعد خمسة أعوامٍ من الآن، كان السيد جون سيتذكر هذهِ اللحظة وكأنها إحدى لحظاتِ السّلام المُطلق، عندما سيستلقي في حُجيرة كروزر على سفينة الأيرباس المُحاصرة بالجليد، وهو يستمعُ إلى صوتِ التحطّم البطيء وانفصالِ الألواح الرّهيب تحت ذلك الضغطِ المستحيل، كانت السّفينة قد طُرحت على جانبها بواسطةِ الجليد، كان سريره محشوراً بين الجدار والأرض، مع الخشبِ والجليد، والرياح تأنّ وتصرخ بمصيرهم المحتوم من دون انقطاع.

انتشر ضبابٌ غير محتملٍ عابقٌ بالرائحةِ النتنةِ السوداء للغرغرينا من حُجرته إلى وسط السفينة، وفي الداخل وعلى نفس السرير الذي استلقت عليه ماثينا أمامه بفستانٍ أحمر جميل، رفع المستكشف القطبي العظيم اللُفافات والأغطية القذرة بمزيجٍ من الذُعر والفضول كي يتفحص على ضوءِ المِصباح الصغير الذي يعمل بزيتِ الحوت، ذلك الجدع النتِن لما كان هو ذاتَ يوم.

في عذابِه الأخير كانت أفكارُ السيد جون تتمحورُ فقط حول الإمساكِ بالطيور مع فتاةٍ صغيرةٍ سوداء، والتي ما زالت تضحكُ له، امتلأ رأسه للحظةٍ بالرائحة غير المُحتملة للعالمِ الذي يراه الآن كجنات عدنٍ بعد هطول المطر، كان ذهنه عامراً بمزيجٍ من الأشياءِ الجيدة، الببغاوات الحيتان والأطفال. عندما أبصرَ فجأةً في الحُجيرة التي كان يتعذب داخلها والسرير الذي كان يُنازع عليه فستاناً أحمر مجعداً، ووجهاً مغطى بقناعِ الكنغر وهو يبكي، اقتحمت ذِهنه مشاعر تمثل هلعَه الخاص، كان البرد يعتصِر جسده ويمحو كيانه بينما كانت كسرات رقيقة من الجليد تحيق برئتيه.

الجنوب الغربي، ابتدأ يترنّم بسرعةٍ وكأن هذا الأمر سيتسبب بانعتاقه أو كأنه حجر مغناطيسٍ سيقوده إلى طريقِ الفرار، جنوب ـ جنوب الغربي، الجنوب الغربي نحو ـ ثم بدرت منه صرخةٌ مفاجئةٌ تُجسد الفزع المُطلق الذي تصاعد وملأ العُتمة الغريبة حوله، ثم تاه إلى الأبد. وفي الوقت الذي سارع فيه كروزر إلى حُجرته وهو يغطي وجهَهُ المرهق بمنديلٍ مضمخٍ بالكافور، كان المُستكشف العظيم في عصرِه قد مات أصلاً.

في ذلك المساء كان السيد جون قد ارتاح لكونِهم سيستقبلون ضيوفاً على العشاء ومن ضِمنهم «إدوارد كير»، وهو مُمثل لشركةِ أرض فانديمون، وهم مجموعةٌ من المستثمرين في لندن كانوا يمتلكون الرُبع الشمالي الغربي من الجزيرة، وصل كير على مَتن حصانٍ بري كَستنائي اللون وكل شيءٍ حوله قد اتّسم بقوةِ الشخصية والمنطق الذي احترمه السيد جون الباهت وعديم الأهلية، لم يذكر الحاكم شيئاً عن مصيره الخاص والذي حسبما ارتأى كان من المُمكن أن ينتظر إلى التصريحِ الرسمي في صحيفة «الغازيت»، كان تخلّي ماثينا عن اللياقةِ وثوبها القذر

يعني أنها لم تعُد مدعوةً إلى حفلاتِ العشاء الرسمية، فقد لمحها أحدُ الضيوف وهي تتدلى بشكلٍ مقلوبٍ من شجرة عند المدخل.

«أنا أعتقد» قالت السيدة جين بشكلٍ مُقتضب عندما ذُكر ذلك أمامها «بأن جهداً إضافياً كان يجب أن يُبذل في سبيل منعهم من الانقراض كما أعطينا نحن مثالاً على ذلك».

«لماذا سيدة جين، أنتِ مُدركة» قال صوتٌ آخر «بأن معظم قادةِ السود القساة كانوا قد تربوا كأطفالٍ مسيحيّين، انظري فقط إلى الأسود توم والذي عاد إلى قومه وأصبح متمرداً فائق الوحشية».

لقد كان ذلك الكاتب العدل، والذي كان السيد جون يخلُط بين اسمه واسم صديقٍ قديم، وتلك كانت نقيصةً أخرى في أعيُن أعدائه المتزايدين، «لقد كنت قد انسقتُ إلى الجِدال ولكنني جادلت من سبق زوجكَ الحاكم أرثر بأن لدى الحكومة مسؤوليةً قانونية تِجاه حماية المُدانين والذين كانوا عُرضةً للهجومِ وهم يعملون في المناطق النائية».

«وما الذي تقترحهُ سيد ثولي» سألت السيدة جين.

«لو لم تتمكن من القيام بالأمرِ دونَ الإبادة كما أقول فعليك أن تبدأ بفعل ذلك، ليس هناك أمانٌ للرجل الأبيض إلا من خلال تدمير غريمه الأسود، لقد وضعنا مكافأةً مقابل رؤوسهم لعدةِ سنوات، بمبلغ جيد خمسة باونات للرأس».

«كان هدفي الكُلي والأوحد طوالَ السنوات الفائتة هو أن أقتُلَهم» قال كير وهو يتناولُ مرق الكنغر في صراحةٍ مستكينة، شعر السيد جون بالحفاوة، في تلك اللحظة نهضت السيدةُ جين قائلةً إن يومها كان طويلاً واستأذنت للانصرافِ بابتسامةٍ، عندها أظهر كير نفسه كرجلٍ في منتصف العمر يُدرك المطلوب منه وسط حدثٍ اجتماعي بارد: متحدثٌ بارعٌ،

غافلٌ عن مشاعرِ الآخرين، فبعد أنْ نهض لوداعِ السيدة جين وهو يُقبّل يدها بسرعةٍ خاطفة ثم يعود للجلوسِ والاستمرار في توضيحِ آرائه.

«وهذا» قال كير وهو يشيرُ بملعقةِ الحساء وكأنه يلوّح بمسدسٍ «لأن قناعتي التامة بأن قوانين الطبيعة وقوانين الربّ وهذا البلد كانت كلها تتآمرُ كي تجعلَ من ذلك واجبي».

كان صوتُه اللطيف، هدوؤهُ وسلوكه المُتحفظ، صِباه، شعرهُ الأشقر المُجعد، انصهاره الكلي في تجربتهِ الشخصية ـ كل ذلك ممتزجٌ مع العُنف الصادم لقصته، كان يَهَبُ كلماته فعلَ التنويم المغناطيسي.

«بالنسبةِ إليّ فأنا أحتفظُ بثلاثةِ رؤوسٍ منهم على سطحِ كوخي، أنا أستطيع القول بأنها كانت ذات تأثيرٍ رادعٍ على رفاقِهم الباقين، كي نجعلَ موت أقرانهم حياً في أذهانهم، ويتخذوه عبرةً ومثالاً لما سيُفعل بهم».

أدرك فرانكلين أن كير كان رجلاً استثنائياً، لم يكن ليُدرك الأمر من دون أن يعيش على الجزيرة لفترةٍ طويلة كما فعل هو، ولكن كل شيءٍ أصبح واضحاً له الآن بطريقةٍ لم تكن سابقاً. كان ثمة صدقٌ بخصوصِ كير، والذي كان منعشاً ومثيراً ـ لقد علِم ذلك، لقد كان ينضحُ ويزفرُ ثقةً رهيبةً بالنفس ـ ألا يفعل ذلك رجلٌ لديه ثلاثة رؤوسٍ مُعلقة على سطح منزله؟ ومن خلال صراحته، فكّر فرانكلين كانت هناك حقيقةٌ مريعة تفرض نفسها، خليطٌ غريبٌ من الرغبةِ والحرية، بعض التقبُل ليس للسلامِ بل للعُنف الذي خَشِي السيد جون بأنه كان مجبولاً عليه، العنف الذي أدرك الآن بأنه كان يُمثل القوة الدافعةِ للعالم، العُنف الذي أحسّ به ولم يتمكن من الاعترافِ به لنفسه والذي كان في صميم ما حدث بينه وبين ماثينا، لم يكن العُنف هو الخطأ، فكر السيد جون بل

كان الافتقار للشجاعةِ اللازمة كي يأخذهُ إلى نهايته المنطقية كما فعل كير بشكلٍ صريح، حَسد السيد جون كير على هدوئه في تقبُّله لمصيرهِ البائس، لقد رغبَ بذلك الهدوء وتلك الثقة، لقد تحولَ من البطلِ الغريب في الحرب السوداء ودَفن مستقبله فيما أشار إليه كروزر «صحراء النسيانِ البلورية».

«نحنُ رُسل الربّ، العلم، العدالة» أكمل كير «نحنُ نعرف الرحمة والشيطان يعرفُ شيئاً آخر، لكن لا شيء يتغلب على ثلاثة رؤوسٍ مغروسة، ما الذي قاله عالم الطبيعةِ الشاب داروين عندما زار هذا المكان قبل سنوات عدة وجلسَ في غُرفة الطعام هذه بالذات «أرض فانديمون تمتلك ميزةً عظيمة وهي خُلوها من السُكان الأصليين»، هل تعتقد أن حريةً كهذه كانت لتُكتسب بسهولة، ربما تظنُّ أنه بالإمكان الحصول عليها دون بضعةِ رؤوسٍ مغروسة».

ابتسمَ كير، عيناهُ الشفافتان لم تكونا تغدران بأحد بل على العكس كانتا تتحدثان بكلِ شيء: كانت لديه الثقةُ المُروعة لرجلٍ لا يخاف من الرعب الذي اكتشفه في نفسه.

استشعر السيد جون من أحكامِ كير الراسخة بشيءٍ يتعدى حدود الخير والشر، لكن الرأفةَ المسيحية والفضولَ العلمي اللذين امتلكهما هو وزوجته، والذي قادهما إلى تبنّي ماثينا ـ ألا يمكن لفضائل كهذه أن تُكافأ؟

«أنا لا أعتقدُ هذا» قال كير وبدا وكأن ذلك الرجل الاستثنائي كان قد قرأ أفكارَ السيد جون.

ابتسم السيد جون، شعر بشيءٍ عديم الرحمة ولا يُطاق تستحثه الجزيرة لدى الرجال، الأراضي البرية، البِحار، كل ذلك بدا وكأنه

يسحبُ روح الرجل إلى مستوى يتعدى حدودها الطبيعية، بل ويتطلبُ ذلك، وفي هذه الليلة فقد أسعدته تلك الفكرة، شعر السيد جون بالانجذابِ والرضا المتزايد لكونِ الشخص روحاً حرةً لا تخضع لأيّ عقائد، لا تعرف القوانين، تمتلك القُدرة على أن تكون ربّاً صغيراً، ذلك الشيء الذي أحسه للمرةِ الأولى لدى روبنسون، والذي شاهده في المستوطنين الأحرار وأراضيهم المُغتصبة، والموظفين مع جوقةِ الحريم من النساء السوداوات.

«الناس يأتون هنا كيّ ينجحوا، كما ترى» قال كير.

لقد رأى السيد جون ذلك وبدا وكأنهُ يرى كل شيءٍ للمرة الأولى، لكنه كان متأخراً، لقد خُلِقَت الآلهةُ على أيدي قُطاع الطُرق والمُغتصبين بصورتهم الخاصة كي تخدِمَهُم وتُلبي احتياجاتِهم.

«إنهم لا يرغبون في تقبل تلك الأراضي المُجدبة ويضللون أنفسهم ولكنهم يستطيعون أن يثقفوا هؤلاءِ الذين عاشوا في ظُلمة الغاباتِ لمدةٍ طويلة». واصل كير وهو يضربُ الطاولة الآن بطريقةٍ عسكرية، بواسطةِ ملعقة الحساء «أنتَ تتفهم بالطبع».

لقد تفهّم السيدُ جون وهو الذي عقد العزم حول أشياء قليلةٍ في حياته فقد كان متأكداً الآن بأن السيدة جين سوف تتفهمُ الأمر أيضاً.

كان رحيلُ السيد جون فيما بعد مُبجلاً جداً، إذ إنه أكسبهُ الاحترام الذي لم يحظ به كحاكمٍ للمستعمرة، لم يُظهر أي علامةٍ على الغضب ولا العارِ ولا الاستياء حول كل ما قاله الآخرون بأنّ كل ذلك كان من المناوراتِ الخبيثة لزُمرة آرثر، كان يبدو وكأنهُ قد رحبَ بقدره تقريباً، وبدا في رحيله وكأنّه يُبرهن على شيءٍ كان غائباً طوال فترة إدارته.

لقد لوحظ باستحسانٍ كيف أن السيد جون كان حاسماً أخيراً مع زوجته في ما يتعلق بالفتاةِ السوداء، الذي كما قال هو لن يصطحباها معهما إلى إنكلترا، أوضحَ بعض الآراءِ الطبية ضدّ هذا الأمر: أثبتت التجاربُ أن أجساد البرابرة كانت غير قادرةٍ فطرياً على العيش في المناخ الشاق، لقد كان هذا الأمر مثبتاً علمياً وغير قابلٍ للشك، مثلما أثبتوا قبلاً بأن الميّزات التي تمتعت بها الطفلة كانت ستضمَن لها مستقبلاً لامعاً، لم يُشرك زوجته في موضوع المُذكرة التي كتبها مطالباً فيها بنقلِ الطفلة إلى ميتم سانت جون، لن يُصغي إلى احتجاجها لأنه أدرك بأنها من أكثر المؤسساتِ رقياً التي أنشأت هنا، وستتمكن الطفلة هناك من استكمالِ تعليمها بشكل مرضٍ للجميع، لن يخوضَ جدالاً مع السيدةِ جين عن كون تلك التجربة لم تنتهِ أبداً.

«لقد كان شغفاً غير علمي منذ البداية» قال السيد جون وبالرغم من أن الكلمة التي عناها كما أدرك الاثنان هي جنونٌ، لقد كانت في تصريحه ذاك نبرةٌ من الإدانة لا مجال لإنكارِها، عندما قالت السيدةُ جين بأنه يتوجّب عليها أن تقوم بتجهيزِ الطفلة وذهبت لطمأنتها بأن قدرها ما يزال واعداً، كانت متأخرة فعلاً، كانوا قد أخذوا ماثينا في صباحِ اليوم الفائت من دون إنذارٍ مُسبق أو تفسيرٍ، ولكن مع الحِرص على إعطائها فطوراً مميزاً من الجُبن والخبز المحمص، سواء أكان ذلك لتسكينِ الخوف الذي قد تشعر به أم لإزاحةِ الشعور بالذنب الذي استحوذ عليه. لم يكن واثقاً: لقد شعر بأن تصرّفه ذاك كان محض ضرورةٍ أكثر من كونه رأفة.

مشى السيد جون نحو النار المُشتعلة كي يدفئ نفسه، بينما كان مساعده يخبره عن التماساتِ الصباح وهو يومئ بالموافقةِ هنا ويهزُّ رأسه هناك، ويحلم بحبورٍ طوال الوقت بالجليدِ الذي علم بأنه سيعود

إليه، إن المناطق القطبية أكثر خلوداً من السياسة ومن التقدم، يُخامره الشك كل يومٍ لكنه لم يكن يمتلك خياراً سوى أن يغادر على عجلٍ، كان الفراغ يتطلب قراراتٍ بسيطة ويستدعي أن تُتوَج تلك القرارت بالشجاعة اللازمة لتنفيذها، كانت تلك القرارات وليدة اللحظة وغير معقدة، وبالرغم من كل ذلك الحديث حول الاستكشافِ والبقاء فقد كان ذلك عالماً من الأطفال التائهين الذين سيُحتفى بفشلهم كأمجادٍ للرجال.

عند تلك الفكرة المُسوغةِ للهرب من عالم البالغين والرجوع إلى العُزلة القاسية، كأنه يعودُ إلى الرحم، إلى نسيانٍ مُحتم، والذي سيتم تحويله بواسطة كيمياء غريبة إلى تأريخ وشهرة، ابتسم ثانيةً وطلب أن يُعاد ملء كأسه وهو يحاول طوال الوقت أن يوقف يده عن الارتعاش.

حلّ الشتاء على الجزيرةِ، غطت الثلوجُ قِمم الجبال، وبينما كان هنالك رجلٌ يحلم بالعودة طفلاً، كانت هنالك فتاةٌ مرتجفةٌ في مؤخرة عربةٍ مترنحةٍ وهي تُودّع البقايا الرثة لطفولتها خلفها إلى الأبد، كانت تتشبث بجلدِ حيوان الأبوسوم كي تحجُب عنها قطراتِ المطر المُتجمدة وتقوم بإنكارِ تلك العزلة التي تهاجمها وتستشعرُ بها كالموت، كانت تعلم قليلاً مما أخبروها به: كي تتوسعَ تجربتها لتشمل أطفالاً آخرين فقد تقرر نقلها لأيام عدة إلى مدرسةٍ قريبة، لم يكُن من المُفترض أن تأخذ معها شيئاً، لا ممتلكات ولا حيوانات أليفة، لقد كان أمراً غريباً كما أدركت الطفلة ولكن ما الذي لم يكن غريباً في حياتها.

استلقت ماثينا على أرضِ العربة والتفّتْ حول نفسها على الغِطاء القديم الذي يُبطنها ثم أغمضت عينيها تاركةً هيكلها الضعيف يُقاوم الاهتزازات والارتجاجاتِ التي تولّدها العربة، أخبرت نفسها بأنها كانت

تشعرُ بالدفء وآمنةً ثم واست نفسها بهذه الكذبةِ الضرورية، بينما ساعد الجبن والخبز المُحمص في معدتها على تغذيةِ ذلك الوهم، تمكنت بطريقةٍ ما من الاستسلام للنومِ وهي تحلُم بالركض على حشائش والابي.

عندما استيقظت كان عِنان الفرس يُسحب بقوةٍ في محاولةٍ لجرّ العربة للصعودِ على منحدرٍ يُفضي نحو بنايةٍ منعزلة انتصبت واقفةً من الأرض القاتمة كرأسِ سهم، كانت العُزلة القاهرة لميتم سانت جون تتضاعف بالغاباتِ الداكنة والجبالِ المُغطاة بالثلوج التي تُحيق به، كانت تنتصب في وسطه كنيسةٌ حجريةٌ ذات برجٍ طويل وعلى جانبَي البرج توزعت مهاجعُ الأطفال ـ الأولادُ على اليمين والفتياتُ على اليسار ـ وهي تتفرع من البرجِ كأجنحةٍ متكسرة.

معظمُ الأطفالُ هناك لم يكونوا أيتاماً لكنهم أبناءُ غير شرعيين أو أطفالٌ غير محظوظين لوالدينٍ مُهملين، بالرغم من أن سانت جون كان من المُفترض أن يكون للأطفالِ الذين لا يتمتعون بأيةِ مزايا، لكنه كان في حقيقة الأمر مخصصاً للأطفال الذين يفتقرون إلى حقِ الدفاعِ عن أنفسهم، أطفالٌ أزعجوا السُلطات بتجوالهم لوحدهم في شوارع مدينة هوبارت، يلهون ويُقلدون الكبار في ألعابِ الجلد والشنق وتشذيب الشجيرات، لقد تمَّ جمعهم الآن واحتُجزوا بعيداً في سانت جون.

كان كل يومٍ يبتدئ في الكنيسة، وكانت قاعةُ الكنيسة قد صُممت بطريقةٍ تمنع فيها التلوث الأخلاقي من أي نوعٍ، لم يتمكن الأولاد من رؤية الفتيات، وقد بقي المُدانون وكل الأشخاصِ غير المرغوب فيهم بمعزلٍ عن أن يراهم الجمع التَّقي من المستوطنين الأحرار من المقاطعة القريبة للأثرياءِ الجُدد، والتي سُميت بشكل ملائمٍ وبؤسٍ «المدينة

الجديدة» وبينما كانت المواقد تتوزعُ حول مقصوراتِ المستوطنين الأحرار فإن الأيتام كانوا يفتقرون حتى إلى المِساحة اللازمة للحركةِ والشعور بالدفء، لقد كانوا يقومون بالصلاةِ لأجل أولئك الأشرار والمُنحلين، التائهين والمُحطمين، المرضى والعَجزة، الأطفالِ المساكين الذين من دون آباء والأطفالِ التعساء الذين من دون أمهاتٍ، ثم يعودون بعد ذلك إلى السُعال والبرد وإلى الضرب تارةً أخرى.

في اليومِ الذي وصلت فيه ماثينا، كانت المراسيم الكُنسية قد تأخرت ساعةً عن موعدها لأن حُمى التايفوس كانت قد حصدت روح طفلٍ آخر في الليلةِ الفائتة، وبهذا يصل عدد الأطفالِ الموتى إلى خمسةٍ في الشهر المُنصرم. كان ثمة فتورٌ يحيط بذلك المكان والذي تغلّب على الرائحة النفاذة للعُنف المُباشر الذي يتغلغل بصورةٍ طبيعيةٍ داخل المبنى، لم تكُن ماثينا تدرك شيئاً عمّا سيحدث لها ولا عن ذلك المكان الذي تمشي فيه الآن بقلةِ اهتمام، وكأن قدرها كان قد رُسم من قِبلِ شخصٍ مجهول، اقتيدت عبر ممرٍ مظلم كان يخترق المبنى ثم ينتهي إلى شرفةٍ في الخلف وأُخبرت بأن تنتظر هناك.

نظرت إلى الخارج، إلى باحةٍ قذرة، بالرغم من كونها موحلةً في ذلك اليوم الشتائي فما زالت تستقطِب الأطفال الذين بالرغم من عدم شعورهم بالدفء كانوا سيتمكنون من التطّلع إلى الدفءِ القاصي للشمس البعيدة، الدفءُ كان بالنسبةِ لهؤلاء الأطفال عبارة عن فكرةٍ ما ـ إنهُ الفلسفة الوحيدة التي تعرفوا عليها في سانت جون ـ ومن زاويةٍ بعيدة وقف صَبِيّان قذران يحاولان التطلّع إليها والتعرف بشكل أفضلٍ على الوافدة الجديدة، عندما وقفت ماثينا هناك مُحاطة بجلد الأبوسوم وهي تشعر بالنُعاس والغثيان من رحلةِ العربة، لفت انتباهها ببغاءٌ ذو عُرف فضي، حطّ على وعاءٍ صدئ تحت الميزابِ الراشح، احتذّت عينا

ماثينا، كان من الواضح أن الطائر هو حيوانٌ أليفٌ هارب، كان يَثِبُ على قدميه ويصرخ أحبك، اللعنة عليك، لقد كان ببغاءً جميلاً ذا مشيةٍ رائعة وريشٍ ناعم.

ابتسمت ماثينا وكأنها لمحت صديقاً، تقدمت نحو الأمام وبسطت يديها مثل عُشٍ صغيرٍ أدار الطائر رأسه نحوها ورمقها بنظرةٍ من عينه السوداءِ اللامعة ثم طوّح عرفه الفضي عالياً كتحيةٍ لها، اتخذ خطوتين تجاهها ثم هوى بعد إصابته بحجرٍ، نظرت ماثينا نحو الأعلى فأبصرت صبيّاً يبتسم وبيده مقلاع، عادت بنظرها إلى الببغاء الذي كان ينتفِض في الوحل، انحنت للأسفل وبحركةٍ خاطفةٍ لوّت رقبته ثم استدارت وانثنت وهي تتقيأُ الجبن والخبز المحمص في ذلك الوعاء الصدئ.

اقتيدت ماثينا فيما بعد بصحبةِ رجلٍ عجوز ذي ساقٍ عرجاء، والذي كان يعرج ويشتُم طوال الوقت، أخذها نحو الطابق العلوي عبر سلالم عاريةٍ من خشبِ الصنوبر إلى مستودعٍ مليء بالملابس، وهنا أظهرت ماثينا علاماتِ المقاومة الأولى بعد أن حاولت السيدة «ترينج» وهي امرأةٌ ضخمة تتحدث وهي تلهث أن تخلع عن ماثينا قلادةَ الصدف الخضراء وثوبها الأحمر، وهي أفضلُ الملابس التي ارتدتها لهذهِ المناسبة، قامت ماثينا بعضّ يدِ السيدة «ترينج» حتى أدمتها، تم استدعاءُ المُراقب الذي كان يقوم بالإشرافِ على حرقِ الغابات خلف مبنى سانت جون والذي اعتقد بأن حُمى التايفوس كانت تنبعثُ منها.

غاضبٌ بسبب مقاطعةِ عمله المهم، حضر المراقب وهو رجلٌ في سنواته الأخيرة، ذو بنيةٍ ضخمةٍ ووجهٍ مُغطى بالدمامل، والذي قام بجلدِ ماثينا بواسطة غصنٍ من شجرة الشاي بسبب غطرستها، وعندما لم تتقدم الطفلة بأيّ تبريرٍ أو اعتذار عن تصرفها الحيواني فقد جلدها للمرةِ الثانية

بغرضِ إهانة كبريائها، ثم أخذها بعد ذلك إلى حُجيرة مخصصةٍ لأولئك المُعندين الخبثاء أمثالها وحُبست ما تبقى من اليوم والليلة، من دون سريرٍ ولا أرجوحة شبكية ولاحتى دِثار، فقد كان الأثاثُ الوحيد المتوفر في الغرفة هو وعاءٌ صدئ متصدعٌ بدا وكأن محتوياتِه كانت قد انسكبت على الأرضِ العفِنة التي نامت عليها الآن.

في الصباحِ التالي قامت السيدة ترينج بمساعدةِ اثنين من الحراس، والذي أمسك كل منهما بذراعِ ماثينا، ثم سحباها نحو غرفةِ الاغتسال، هناك وبينما طرحها الحراس أرضاً وهي تُجلد، قامت السيدة ترينج بتعريةِ الطفلة ثم أخذت تُديرها بعنفٍ بحُجة البحث عن القمل، ثم ألقت عليها دلواً من الماءِ البارد. بالرغم من أن ماثينا كانت قد خسرت القتال فقد أثمر نضالها، عندما قامت السيدة ترينج برمي قلادة الأصداف وفستانها الأحمر نحوها وهي تقول إن بإمكانِها الاحتفاظ بهما شريطةَ ارتدائها لشيءٍ آخر فوقهما، قاموا بحلاقةِ رأسها من الشعر المجعدِ الكثيف الأسود ثم ألبسوها رداءً أزرقَ ملطخاً بالبقع ومئزراً من قماش الشيت كانا واسعين كِفايةً لتغطية فستانها الأحمر وأكثر.

بسبب كونِ ماثينا مُتفردةً بطريقتها الخاصة، فقد قدّم إليها المراقب شيئاً ما كان لايُعطيه لباقي الأطفال وهو زوجٌ من نعلٍ خشبي كان يعود للصبي الذي توفي من الحمى في الليلةِ السابقة، كان ردُّ فعلها الوحيد هو رميّ النعلِ نحوه ثانيةً، وبعد أن جُلدت مرةً أخرى فقد أُخذت وهي حافيةُ القدميين إلى غرفةِ العقاب لليوم الثاني برفقة وعاء القاذورات المتصدِع ذاك.

بالرغم من أن المُراقب كان قد أمضى بقيةَ اليوم في حرقِ الغابات المُحيطة بالميتم، وبالرغم من أن الهواء كان قد أصبح مشبعاً بالدخان

الخانق عوضاً عن أريجِ الغابة الندي، فقد قام بحملِ طفلين آخرين بعيداً بسبب حُمى التايفوس ذلك المساء. لقد كان واضحاً لكل العاملين الذين سمعوا بالأمر من السيدة ترينج، ولكل الأطفال الذين سمعوا بالأمر من العاملين ـ الذين أدركوه كحقيقةٍ مؤكدة ـ بأن السّود كانوا يمتلكون قوىً خارقة، أكثر نفوذاً من الطعم اللاذع للرمادِ ومن الرُعب الذي سيطر على الميتم، أدرك الجميع بأن الطفلةَ السوداء العبوسة كانت تتدربُ على انتقامِها.

كان الاستنتاجُ الوحيد الذي صرّح به المراقب الحكيمِ في اليومِ التالي، بعد أن قام بجلد ماثينا للمرةِ الرابعة ثم سمح للطفلةَ المشعوذة بالنوم في المهجع مع بقيةِ الفتيات، بأن الطفلةَ السوداء كانت رسولاً للشيطان وبأن المراقب كان قد استحصل لهم جميعاً على انعتاقٍ من الموت، لكي يوقِف الوباء المُميت والذي كان واضحاً أن الغابات المُحترقة لن تمنعه، فقد أوقفه ذلك التصرف الرّباني.

في المهجع، تصاعدت رائحةُ الأمونيا النفّاذة من الأسرّة الرّطبة للأطفال الذين يُبلّلون فراشِهم، تلك الخطيئةُ التي لا تُغتفر والتي تُبرّر كل أنواعِ الضرب، وامتزجت في تلك الليلة المُقمرة مع دواماتٍ من الحشراتِ التي كانت الجزيرة تُسهم في تكاثرها بشكل مقدرٍ ـ النملُ الطائر، فراشات بحجم طيورٍ صغيرة وبعوض ـ كانت السُمعة الشيطانية للطفلة السوداء قد تضاعفت عندما كانت ترفض تناولِ الطعام خلال النهار وتقوم باصطياد الفراشات بحركةٍ خاطفة ثم تقتاتُ عليها ليلاً.

على الرغم من إخبارِها من قبل السيد جون بأن زياراتٍ من أي نوعٍ لن تُسهم إلا في زيادة توترِ الطفلة، ولن تساعدها على أن تتكيف في حياتها الجديدة، فقد ذهبت السيدة جين إلى الميتم بعد ثلاثةِ أيامٍ وهي

تعتزم استعادة ماثينا، كانت مُندفعة نوعاً ما بسبب كبريائها الجريحة وبدرجة أقل باهتمامٍ ملائم وبرغبةٍ في تذكير زوجها أن تصرفاً كهذا من دون مشاورةٍ كان غيرَ مقبولٍ إطلاقاً.

لكن كان هنالك شيءٌ آخر، شيءٌ مدفونٌ بعمقٍ داخل السيدة جين والذي اتخذ صفة الألم الجسدي، ولم تكن تجرؤ على البحث عمّا يُلائمه من كلمات، هي لم تكُن مهووسة، كانت ترفض أن تفتح ذاتها على تلك الأحاسيسِ المريضة، كما شاهدت النسوة ذوات الشخصياتِ الواهنة يفعلن وهُنّ يعانقن عللهنّ الذهنية، ولكن الأمر ما يزال يُداهمها كالأمواج الهادرة ويتركها وهي مُنقطعة الأنفاسِ ومشتتة، عندما قادها المراقب في جولةٍ خلال غرف الميتم العديدةِ استجابةً لأوامرِ السيد جون المُسبقة، بالنسبة إلى السيد جون والذي عايشَ إرادةَ زوجته لفترةٍ طويلة فلكي يتأكد من أنه سيُطاع، وبحِسّ ضابطٍ بحري مُحنك قام بتهيئةِ خط دفاعٍ ثانوي ماكر.

كان الأطفالُ يهربون بعيداً عن السيدة جين كالحيوانات وهم يشعرون بالخوفِ من جهة وبلهفةٍ على الطعام والحياة من جهةٍ أخرى، كان الشيءُ الوحيد المُرضي الذي شاهدته في بُستان الشقاء ذاك هو قطٌ أصفر ضخمٌ، بدينٌ بسببِ اعتياشه على الجرذان التي كانت حتى في تلك الساعة من النهار تتجولُ بحريةٍ في زوايا المبنى المُستترة. حاولت السيدة جين أن تتحدثَ مع أحدِ الصبية لكنه بدا غير مكترثٍ لها أو لأيّ شخصٍ آخر أو شيءٍ آخر، لكأنّه كان منعزلاً عن الحياة، سألت أطفالاً آخرين: هل يتناولون كِفايتهم من الطعام؟ هل كانوا جميعاً بخير هناك؟

لكنهم بدوا لا يُصغون إليها وغير مُدركين لوجودها، كانت وجوهُهم باهتةً وفارغةً وبشرتهم مشققة ومصابة غالباً بالجرب، كانت تعابيرهم

خاليةً من أي انطباع، لاحظت السيدة جين غياباً غريباً للهمس، لشدّ الشعر أو للقهقهة، بدا الأطفالُ مُنهكين جداً على القيام بشيءٍ آخر غير السُعال والهرش، وهم مُحاصرون بكل شيءٍ، ابتداءً بالسّل، إلى الزحار، إلى تقرّح الأطراف والجروحِ المؤلمة التي كانت تُغطي أذرعهم الجرباء كأزهارٍ دموية.

بالرغمِ من أن الميتم كان عمرهُ بضعة أعوام فقط، فقد كانت هنالك رائحة عفنَة تغلفه، تمكنت السيدة جين من تمييز رائحة واحدة وهي رائحةُ التعفن، ولكنها ستصفها فيما بعد في مُذكراتها بتعابيرَ مبهمة: كان المكان يفوّحُ برائحةٍ ـ كتبَت ـ «رائحةُ شيءٍ خاطئ» كانت الرائحةُ متغلغلةً وسط الأفرشةِ الكِتانية الزّنخة التي كانت تمر بجوارها الآن في المهاجع الآسنة. كان النسيجُ البُني لتلك الأغطية يبدو مُبقعاً بأزهارٍ من البول أو الدم، وكان مدفوناً في إحداها كتلةٌ من اللحم الأحمرِ المُصفر، وهي مستلقيةٌ على سريرٍ خشنٍ في الزاوية، مغطاةٌ بالضِمادات المُزيتة مثل قطعة بطاطسٍ مشوية.

«حريقٌ في منزل» همسَ المراقب «لقد احترقت الأمُ إلى الموت، الطفلة نجَت فقط».

فضلاً عن الأنينِ الخافت الذي كان يصدر عن الطفلة فإنها لم تكُن تُبدي أي علامةٍ من علاماتِ الألمِ أو الاهتمام، لقد كانت تُحدق إلى السقف بحدةٍ من خلال عينين زرقاوين براقتين بدتا وكأنهما دُفنتا في ذلك اللّحم المُتفحم، كأنها كانت تتساءل لماذا تستغرقُ كل هذا الوقت قبل أن تُدفن، في كفنٍ صغير مدهونٍ باللونِ الأبيض كان ينتظرها في السرداب المجاور، إلى حيث أُخذت السيدة جين لاحقاً، «إنه رائعٌ ومصنوعٌ بشكلٍ يدوي كلياً» قال المراقب وهو يرفع المصباح النفطي داخل السرداب الجنائزي ذاك «لقد صنعهُ أولادُنا بأنفسهم».

بعد أن غادرت غُرفة الكفن، طلبت السيدة جين أن يتم إعفاؤها من بقية الجولة، ولهذا فقد ذهبا عوضاً عن ذلك إلى الدور الثاني في غرفة الطعام التي يتناول فيها موظفو المؤسسة وجباتِهم ويتمكنون من مراقبةِ الباحة الخارجية حيث يقضي الأطفال أوقاتَ فراغهم عبر كوةٍ خلفية، خلال تلك النافذةِ المستديرة تمكّنت السيدةُ جين من النظرِ إلى الباحةِ الموحلة.

ابتلعت السيدةُ جين ريقها.

لو لم يكُن لونُ مائينا المُميز، لما تمكنَت السيدة جين من التعرُف إليها، فقد كانت جرباء البشرة وحليقة الرأس، تلبس رداءً باهتاً وتجلس وحيدةً ساكنةً في الوحلِ في الأسفل، وعندما رُشقت على وجهها بالوحل من قبل طفلٍ آخر فقد كشّرت مائينا عن أسنانها وأصدرت هسيساً خافتاً، كان غريباً ولكنه كافٍ لإنهاءِ الهجوم.

كانت السيدةُ جين قد حضرت كي تصطحِبها إلى المنزل، لم تكُن تكترثُ بما يُفكر فيه أو يفعله زوجها الأحمق أو ما الذي سيقوله مُجتمع المستوطنةِ البائس. كانت قد عقدت العزم على التصريحِ برغبتها ثم المغادرة مباشرة مع مائينا، لكن منعها شيءٌ ما من قول ما تمنت قوله، ومن فعلِ ما رغبت فيه، وعوضاً عن ذلك فقد قالت إنها تتمنى أن تكون مائينا تأكلُ جيداً.

«تأكُل» قال المراقب الذي أتى للوقوفِ بجوارِ السيدة جين عند النافذة «إنها لا تأكلُ شيئاً سوى الحشرات».

كان هنالك صمت طويل، حتى الكلمات كانت تبدو رفاهيةً غير ضروريةٍ في سانت جون.

«عزيزي المُراقب» ابتدأت السيدةُ جين، ثم توقفت وهزّت رأسها،

كانت ترغبُ فقط في المغادرة، انحنى المراقب مقترباً منها «نعم سيدة جين».

«سيدي كيف أقولُ هذا، إن الطفلة لم تأكُل الحشرات مطلقاً طوال سنوات مُكوثها معي».

«لقد ارتدّت إلى أصلها» قالت السيدة ترينج التي انضمّت إليهما الآن.

«هل هي كذلك حقاً» تساءل المراقب «هل كانت تُخفي طبيعتها الحقيقية عنكِ كل تلك السنوات؟ هل ما نراه في الأسفل هو حقيقةُ هؤلاء القوم»؟ تطلّعوا لعدة لحظاتٍ من دون كلامٍ إلى الطفلة المُغطاة بالوحلِ، بدا نظرُ السيدة جين يتشوش ثم استدارت كي تواجه المراقب.

«لقد هاجمتني مثل...» قالت السيدةُ جين، ولكن شيئاً من التأكيد ومن الإدانةِ كان غائباً عن صوتها وعن الكلمات التي كانت تنسابُ من فمها، مسحت عينيها بإصبعٍ مُغطى بالقُفازات «على الأقلِ لقد بدت ذكية في البداية، بدت...».

«ذكية»؟ قال المراقب وكأنه أمرٌ يستدعي التأمل، بدا وكأنه يتفهّم الأمر بعمقٍ، وكان تفهمُه ذاك قد بدا مروعاً ومستحيلاً للسيدة جين، فاحت منه رائحة الدخان وتكلم بصوتٍ كصليل الحديد «كلا» قال المراقب أخيراً «ليسَ ذلك».

«إنه شيءٌ أشبه بمكرِ الجُرذان» قالت السيدة ترينج.

«غريزةُ الحيوان» قال المراقب «مكرٌ مضاعفٌ كما أشارت السيدة ترينج التي خبرت الأمر مع البرابرة، هل نرتكبُ نحنُ نفسَ خطأ روسو، ونحن نظنُّ أن مكرَ الجرذان يتساوى مع الإنسانيةِ والتحضر؟ كلا، لماذا لأنهم حين يُكافؤون، فإن الطفلة تتظاهرُ بشيءٍ واحدٍ، ولكن هنا نحن

نُدرك أنهم يمتلكون القُدرة على الخِداع الجسيم، وتحديداً لأن التقدّم لديهم مستحيلٌ فهم يتراجعون بسرعةٍ». نظر في عيني السيدة جين وانبرت عن شفتيه الرفيعتين ابتسامة ألم وتعاطُف، «هل يؤلمكِ سِماعُ هذا سيدتي؟ كيف لا يمكنكِ ذلك، ولكن بالنسبة إلينا في ميتم سانت جون فإنهم جميعاً أولاد الربّ، من أي مكان أتوا، ذوو أصلٍ رفيعٍ أو وضيعٍ، لا يهُمنا الأمر».

كان المراقب مؤمناً بحبِ الرّب ورحمته، حبٌ مريعٌ ورحمةٌ رهيبةٌ، وفي مقابلِ ذلك الإيمان وكل هذا الحُب وتلك الرحمة، ومُقابل كل الأسئلة التي تمّت الإجابةُ عنها، فإن روحاً منيعةً مثل السيدة جين كانت قد تداعَت.

عادت تارةً أخرى إلى الكوةِ الزجاجية ومنظرُ ماثينا في الأسفلِ وهي تقارع أمواجَ الذكريات وفيض المشاعر، حتى اعتقدت بأنها ستغرقُ تحت وطأتِها، كيف أنها تاقت مرةً أخرى لسماعِ رنينِ جرس الطفلة وهي تتحركُ في أرجاءِ المنزل، إلى أذرعٍ تلتف حول قدميها وخصرها، تمسكُ بها وتحتضنها، لماذا دفعت الطفلة بعيداً بينما كانت تتحرّق سراً لأن يتم الإمساك بها واحتضانها.

لم تعُد تتمكن عندئذٍ من السيطرة على كل تلك المشاعرِ الدفينة، لم يعُد بإمكانها إنكارُ ذكرى إجهاضاتِها الثلاثة، لم تتمكن من نسيان حزنها ثم الاستفاقة القاسية على جسدِها العقيم ووحدتِها وشعورها الذي لا مهرب منه بالعارِ كامرأة، رغبتها اليائسة للحصولِ على طفلٍ، كبرياؤها الذي أنقذها مراراً ثم حطّمها وجعلها تسعى بشكل مستمرٍ وبلا هوادةٍ في محاولةٍ يائسةٍ لرفعِ مستوى نفسها وزوجها إلى الأبد، وكأنهما بهذا سيتمكنان من الهرب من جاذبيةِ حزنها.

حتى ذلك اليوم على جزيرةِ فلاندرز، عندما شاهدت ماثينا وهي ترقُص مرتديةً جلد كنغرٍ أبيض، فقد كانت السيدةُ جين توهم نفسِها بأن الأمر كان يتعلق بالعلم، بالمنطقِ، بالمسيحية وبأن خُدعة التجربةِ النبيلة تلك كانت ستجلب إليها الميزة التي كانت توهب لباقي النسوة، لكنها لم تعترف ما الذي كانته هي حقاً، ذاك الذي تاقت للحصولِ عليه: حب الأمّ لطفلٍ.

كانت تتمنى أن تهرع نحو الأسفل، إلى تلك الباحةِ القذرة، تمسك ماثينا وتختطفُ تلك الطفلة المُرتعبة بعيداً عن كل ذلك الحُب وتلك الرحمة، هذا التفهم الشامل بأنه من الضرورةِ أن تُعاني. كانت تتمنى أن تُحممها، تُهدئها، أن تهمسَ إليها بأن الأمور ستكون على ما يرام، بأنها ستكون آمنةً الآن. أن تقوم بتقبيلِ قوقعة أُذُنِها الرقيقة، تحتضنها، تُطعمها الحساء الدافئ والخبز، كانت تودُّ أن تكون الأمّ التي طالما حاولت أن لا تكونها، أن تُقحم أنفها في شعرِ ماثينا الأهوج وتُريحها وتَحميها وتستمتع بكونِها مختلفة، ولا تحاول أن تدمرِ ذلك لأنها كانت تُدرك في تلك اللحظة أن محاولاتها لتدميرِ ذلك الاختلاف كانت ستؤدي في النهايةِ إلى تلك الباحة الرهيبةِ في الأسفل، والكفن الأبيض في الدورِ التحتي.

لكن تم استبدالُ تلك الأفكار جميعها بصوتٍ مختلف، صوت همس، كيف أن كل تلك الأشياءِ كانت مؤسفةً ولكن لا مجال لتجنُبها، وبأنه وبطريقةٍ ما فإن الأسّرة النتنة والجرذان والوحل البارد والأطفال المُحترقين كانت مصيراً ضرورياً، إنه أمرٌ غير منطقي. ولكن نجح رأسها في النهاية في السيطرةِ على قلبها القلِق، وأدركت السيدة جين الحقيقةَ خلف ما أخبروها به: بأنّ تجربتها العظيمة كانت عبارةً عن فشلٍ ذليل، وبأنه لا يتوجب عليها أن تُعاني المَزيد من الإذلال، وذلك بأخذ ماثينا

معها إلى إنكلترا، في تلك اللحظة، كل شيءٍ في تلك الحجرة، وفي سانت جون بدا لها ذا رائحةٍ شبيهةٍ بالحجارةِ الرطبة.

استدارت بعيداً عن النافذة وعن منظرِ ذلك المخلوق الرثّ القذِر، أخذت نفساً عميقاً، لا يُمكن لأحدٍ أن يستخِفّ بجرأتها.

«الذي تقوله يتماشى مع المنطقِ السليم» قالت ببطءٍ وهي تتعثرُ فوق الكلمات، وكأنها اعترافٌ يُنتزع منها بوسائلٍ مريعة «أنا أرى أنها ارتدّت ببساطةٍ إلى طبيعتها الحيوانية».

«إنه أمرٌ عمِلنا عليه مسبقاً» قال المراقب بلطفٍ «لدينا أماكنُ لكل هؤلاء في مطابخِ المستعمرة وفي حجراتِ الغسيل سيدتي، لكنك لن تتمكني من إنتاجِ الغزلان من الجرذان».

تمكنّت السيدة جين من أن ترى بأنه أياً كان السحرُ الذي تمتعت به ماثينا على جزيرةِ فلاندرز، فقد تلاشى الآن، إنها لم تعُد جميلة ولكن قذرةً ومُنفرة، لم تعُد مشرقةً وسعيدة بل ناقمةً وبائسة، في الحقيقة، فكرت السيدة جين أنها قد تراجعت إلى الخلف تحت رعايتي لها، ولا يُمكنها الآن سوى الانحطاطِ أكثر، لقد كانت الرقصةُ قد غادرت الراقص.

عند رؤيةِ عربةِ السيدة جين وهي تقفُل راجعةً، ومُشاهدتها وهي تدخل إلى منزلِ الحاكم بمفردها، تمنّى السيد جون بأن يراه الآخرون قاسياً أكثر مما تفعل زوجته، هذا سيُساعد ـ ولو بطريقةٍ طفيفة ـ في استرجاعِ مكانته وسط المستعمرة، وبهذا فإن بمقدورهِ أن يستعيد قدراً ضئيلاً من كبريائه، لقد ازدرى نفسه على ذلك وازدرى الإنسانيةَ برُمتها، لقد أدرك الأمر بكونه جدالاً حاسماً لعودتهِ إلى شيءٍ كان من كل النواحي غير ملائمٍ له ـ وزنه، عمره، شخصيته ـ العالم الأبيض من الاستكشافِ القطبيّ، لقد كان الفراغ الوحيد الأعظم من ذاتِه الذي عرفه.

في اليوم الذي تلا إبحارهم من أرض فانديمون، وعندما كان هنالك ما يكفي من البحرِ ليحول بينهم وبين الطفلة، وفي تصرفٍ نمَّ عن ندم ودهاءٍ معاً، فقد قدّم السيد جون هديةً لزوجته، وهي عبارةٌ عن لوحةٍ لماثينا رُسمت من قبل المُدان بوك قبل تلك الحفلةِ المشؤومة بفترةٍ قصيرة.

كانت ترتدي فستانها الأحمر المُفضل وقد كانت الصورة مشوهةً بتفصيلٍ واحدٍ فقط: قدميها العاريتين.

بالنسبة إلى ماثينا، وكتصرفٍ طبيعي منها، فقد قامت بركلِ حذائِها أثناء التموضعِ للرسم، وقام بوك برسم قدميها حافيتين، ولأنها كانت رسمةً بالألوانِ المائية، فلم يشعر بأنه سيتمكنُ من رسم الأحذيةِ فوق القدميين، وعندها وتحت إرشاداتِ السيدة جين، فقد قام بوك برسم نسخة أخرى مع الأحذية، والتي فَقدت بشكلٍ ما التلقائية البهيجة للصورةِ الأصلية، ولهذا فقد لُفت الرسومات وخُزنت بعيداً ثم نُسيت، حتى قام السيد جون بالبحثِ عن النسخةِ الأصلية وقام بوضع إطارٍ لها، «إنها فعلاً شبهٌ دقيقٌ للطفلة وهي في أوج روعتها» قال عندما سقطت الورقة المُلتفة على الأرض «إنها تؤرّخ انحدارِها المؤسف».

رغبت السيدةُ جين في أن تصرخ.

بواسطةِ قطعةٍ من الإطار الخشبي، تمكّن العامل من أن يُحقق خلال دقائقٍ ما فشلت هي في إنجازهِ بإرادتها خلال السنوات الخمسِ الفائتة، قام إطاره البيضاوي بقطعِ صورة ماثينا عند كاحليها، وغطى أخيراً قدميها الحافيتينِ.

خرجت السيدةُ جين من عتمة حُجرتها إلى ضوءِ النهار الساطع على سطحِ السفينة، كان ثمة انتعاشٌ جميلٌ حول الشمس، السفينة، الرياح

والبحر، بدا وكأنّ العالم كان قد وُلِدَ للتو، سطحُ السفينة المغسول حديثاً والضوء الذي يتكسر فوق البحر إلى ملايينِ القِطع الماسية.

استدارت نحو مُقدمة السفينة وبحركةٍ عنيفة، غير متوقعةٍ، رمت الرسمة في البحر، لقد انغمست في الهواء وطارت وهي تهوي، ولوهلةٍ بدا وكأنها سوف تطير، ثم ارتطمت بالبحر، انجرفت بعيداً بسرعةٍ ووجهها نحو الأسفل، وعندما استدارت كان السيد جون يقفُ خلفها، كانت هنالك خطوط سوداء على جبينه عندما قامت الرياحُ بتطييرِ خُصلات شعره الطويل المُزيت وحوّلتها إلى علاماتٍ للاستفهام.

لقد كان عام ١٨٤٤ وقد قُتل للتو آخر زوج من طائر الأوك، وُلِد فريدريك نيتشه، وقام ساموئيل مورس بإجراءِ أولُ اتصالٍ كهربائي في التّاريخ، لقد كان عبارة عن برقيةٍ تُقرأ «ما الذي انطوى عليه الرّب»

«لقد أحببتُها» قالت السيدة جين.

١٠

وقفَ ديكنز على الحلبةِ التي ستنقُله قريباً إلى المنطقةِ القطبية، ونظر حوله إلى ذلك المسرح الساحر الرائع، مانشستر فري ترايد هول، كان متميزاً مثل أيّ شيءٍ آخر في تلك المدينةِ المُذهلة، والتي كانت بمصانعها الضخمة، معاملها، مطاحنها، سباكة المعادن فيها، بؤسها وثرائها، كانت إحدى أعاجيبِ العالمِ المُعاصر، كان المسرحُ مزوداً بكل الأدوات والأجهزةِ الحديثة، وفوقه كان عاملُ الغاز يجلس على سقالةٍ ترتفع فوق طاولته وهو يقومُ بتركيبِ مجموعةٍ من أفضلِ المصابيحِ الغازية الجانبية والأرضية التي رآها ديكنز، بينما يقعُ على يساره عمودٌ، ينتصبُ عليه آخر ابتكاراتِ المسرح وهو المصباحُ الكِلسي.

وقف رجلان بجانبِ ذلك الصندوقِ الكبير للكلسِ المشتعل، وكان عملهما يقتضي بالمحافظةِ على اشتعالِ النار بواسطة منفاخينِ عملاقين، تمنعُ الماكنة المُهتاجة من الانفجارِ، بينما يعمَدان طِوال الوقت إلى تحريكِ المخروط اللامعِ للضوءِ البراق الأبيض هنا وهناك في الحلبة، كان ديكنز قد سمعَ فقطَ عن هذا الاختراعِ المدهش، وها هو يوشِك الآن على أن يُمثل تحت بريقهِ الأسطوري.

وضع طاولةً في وسط المسرح وجعلَ المصباح الكِلسي يتمركزُ على وجه الرجل الذي أجلسه على الطاولة، كانت قوةُ المصباح فائقةً، لقد

محت الألوانَ كلها، أبرزت التجاعيد، الفكينِ والشفتين، لقد كان واضحاً لديكنز بأن تبرُّجَهُ يجب أن يكون أقوى وأكثر وضوحاً كي يحظى بأفضليةٍ كاملة، ذهب إلى المقاعدِ الخلفية وجعل العامل يحني رأسهُ ويرفعه، يُحرك رأسهُ إلى داخلٍ وخارجِ الضوء وهو يُتابع بدقةٍ تأثير الضوء والظل، كيف بإمكانه أن يتحرك مثلَ الشيطانِ بنفسه بين الليل والنهار، إنها آفاقٌ جديدةٌ فُتحت أمام مشهدِ موت واردور، عاد ديكنز إلى الحلبة ووقف وسطَ الضوءِ الأبيض البرّاق، وكما كانت الموضةُ الرائجة الآن فقد توجب أن تكون الصالةُ معتمةً تماماً خلالِ الأداء، نظر إلى الأسفل، إلى تلك الهّوة، وشعرّ بالفرح لإدراكهِ بأنه لم يتمكن من رؤية أيّ شيء.

شعر بقوةٍ آنيةٍ مجهولة وبقدرةٍ على التمويه في ذلك البريقِ الأبيض الذي كان يعومُ فيه، وأدرك أن ما ابتداه كأداءٍ مسرحي للهواة قد ذهب الآن إلى مكانٍ غير متوقعٍ واستثنائي، بعض الكُتاب من رفاقه لم يوافقوا على الأمر ـ لقد ذكر ثاكيري بأن أيةَ غطرسةٍ كانت ستُعتبر مُشرفة لو كان هدفُها هو الإحسان، اللعنةُ على ثاكيبري، فكّرَ ديكنز، كان لديهِ أتباع بينما لا أمتلكُ أنا سوى الليلة، اللعنةُ عليك، اللعنةُ عليهم، اللعنةُ عليهم جميعاً، هو الذي كان مدفوناً، قد بُعث من جديد، هو الذي كان يحتضِر مغطىً بالصدأ وبالجليدِ سيعيش الآن ـ ولو للحظةٍ واحدة ـ في ذلك العمى المُضيء للمصباحِ الكلسي، وهو محميٌ بذلك العمودِ الساطع مع العالم أسفله، أخيراً لا يُرى، لقد تعهّد أن يسبغ على واردور كل ما يملك، بأن يدع روحه أخيراً تسير عاريةً.

من المُريح للجميعِ في ليلةِ الافتتاح أن الصالةَ كانت قد امتلأت بالكامل، كان أداءُ ديكنز مذهلاً في قوّتهِ وتأثيره، وهو يُراقب، كان ويلكي كولينز يقف مصعوقاً خلف الكواليس، كان يتمكنُ من رؤيةِ

مئاتٍ من النجارين يرتعشون وعمال المسرح ينتحِبون، وفي الخارج، في الصالةِ كان آلافُ من الحضور يسبحون في دموعهم، كانت عينا ويلكي رطبتين، انحنى نحو جون فورستر «إنهُ رائع» همس له «لكن ثمة شيءٌ في ذلك الأداء».

نظر فورستر إليه وهو محتار في أمره، كان صديقهُ العظيم ينتصر وقد ارتفع إلى قمةٍ جديدة ـ ما الذي سيكون أفضل.

«شيءٌ مريعٌ» همس ويلكي «ألا يمكِنكَ أن تراه، إنه ليس تمثيلاً، إنه انسلاخٌ».

«تعالَ ويلكي» صاح صوتٌ غريب «إن دوركَ على وِشك أن يبدأ».

وعلى جانبهم كان هناك رجلٌ ملتحٍ، بائسٌ ومجنون، ليس ديكنز بل ريتشارد واردور، مستحوذٌ عليه تماماً، لقد توّجه إلى ويلكي وسحبهُ من ذراعيه وهو يحمله عائداً إلى الحلبة، حيث حيّتهُ ماريا تيرنان كحبِّ حياتها فرانك الديبرسلي، والذي تصورت أنهُ قد مات.

بعد الأداء ذهب ديكنز إلى غرفةِ نسوة تيرنان لتبديلِ الملابس كي يُهنّئَهنّ، كانت إيلين تيرنان منذهلةً من الاهتمام والتبجيلِ اللذين مُنحا لهذا الرجل، والذي لم تُعره اهتماماً في لقائهما الأول، حيث كانت تنتحِب أمامه، لقد سمِعت عنه بالتأكيد، وكانت قد قرأت لهُ «مذكراتُ بيكويك» وبعضاً من كُتبه الأخرى ـ ومن الذي لم يفعل ـ لكنها كانت غير مستعدةٍ للطريقة التي يتفرق فيها العالم وينحني لهُ أينما ذهب، شعرت بأنها أكثر أهميةً من العائلة الملكيةِ في مانشستر، لقد أقاموا في فندق غراند ويسترن، كانت المجموعةُ قد مُنحت غرفاً للعشاء وللمعيشةِ خاصةً بهم، حيث احتست إيلين تيرنان مع شقيقتها ماريا في الليلةِ

الأولى قليلاً من البراندي أكثر من المُعتاد وهي مغامرة أشار إليها ديكنز بتلميحٍ مَرَضِيّ.

بعد أن غادر غُرفة تبديلِ الملابس، انتبهت إيلين تيرنان إلى وجود كتيبٍ صغيرٍ على طاولةِ زينتها، والذي كان ديكنز يحملهُ في يدِه، نظرت إليه ـ لماذا، لقد كان دفتراً للملاحظات، فكّرَتْ، السيد ديكنز يمتلك دفتراً للملاحظات، إنها لن تقومَ بفتحه، إنه من الأمورِ الشخصية كما علّمتها والدتها، ولكن فكرت، ماذا لو لم يكُن يعود للسيد ديكنز، كيف ستعرِف من دون أن تفتحه، ولهذا فقد أخذَته معها إلى الفراش في تلك الليلة، كان ظهر الكِتاب مُحكم الإغلاق ولونُ صفحاتِه رمادياً بُنياً، وقد فُتح أمامها ولكأنه طيرٌ جريحٌ يأمل الشفاء.

لم يكن هنالك اسمٌ على الغِلاف الداخليّ للكِتاب، ولكن تعرفت إيلين تيرنان على خطِ اليدِ من الملاحظاتِ التي كانت تُكتب على نصِها، ولهذا فقد تحولت إلى الصفحةِ التالية ثم التي تليها، حتى تصفحت الكِتاب بأكمله، كانت هنالك أنواعٌ مختلفةٌ من القوائم والعناوين والعباراتِ الغريبة «القلب غير المُهذب»، لعقت الصفحة، كانت تبدو عديمةَ الطعم كعصيدةِ البازلاء «أفكارٌ جديدة لقصةٍ أتت إلى رأسي وأنا مستلقٍ على الأرض كواردور بقوةٍ مفاجئة وبألمٍ».

لم يكُن هنالك من طريقةٍ لجمع تلك القطع إلى وجبةٍ متكاملة.

فقرأت بعض الأشياء ـ وخمّنت بأنها تعود إلى روايةِ السيد ديكنز المقبلة، لقد كانت كئيبة غالباً، بالرغم من وجودِ واحد أو اثنين من الحواراتِ الساخرة والعديد من الجُمل المثيرة للفضولِ «الريحُ تلحقُ بنا، الغيوم تطيرُ بعدنا، القمرُ يلاحِقنا والليلُ الجامِح بأكمله يُطاردنا إلى حدِ الآن فنحن لسنا ملاحَقين من قبل أي شيءٍ آخر»، أسماءٌ غريبةٌ

لأشخاص «ميريام دانيال»، «سعداء حقيقة»، «ماري ماك كويستشن»، حِكَم غريبة، بإمكانك الحصول على كل ما تريده ولكنك ستكتشفُ فقط أن لكل هذا ثمناً، السؤال هو ـ هل ستتمكنَ من الدَفع، كلُ شيء فيه بدا غريباً ومملاً على الأغلب، وكان يبدو الأمرُ مدهشاً لو تمكنَ السيد ديكنز من صناعةِ أي شيءٍ منه أو لو رغِب في استعادته أصلاً.

وجدته في مكتب المدير قبل ساعة من بَدء العرض وهو يعمل على مخطوطتِهِ المستعجلة.

«سيد ديكنز»

نظر ديكنز نحو الأعلى، كان يضعُ التبرُج الجديد الذي ابتكره ذلكَ اليوم كي يُلائم ضوء المصباح الكِلسي والذي أبرز وجههُ المُتغضن.

«لماذا؟ بإمكانكَ أن تكونَ لوسيفر بنفسِهِ سيد ديكنز».

رفع رأسه فجأةً ووضع إصبعاً على كل جانبٍ من جبهته وبوجهه المُخيف زمجر على حين غرة، تراجعت إيلين تيرنان وهي تصرُخ وأوشكت على الاصطدِام بالطاولةِ التي كانت خلفها لو لم يُمسكها ديكنز من رِسغها.

«أنا آسفٌ آنسة تيرنان» لقد اعتذر، نظرت إيلين تيرنان نحو الأسفل حيث أمسك رِسغها بقبضةِ الكاتِب المتينة «إنها مزحةٌ، مزحةٌ بائسةٌ».

«لا عليك فحتى لوسيفر بنفسهِ لن يتمكّن من إزعاجي» قالت إيلين تيرنان، حرر رسغها «أنا امرأةٌ إنكليزية».

«يا للروعة» قال ديكنز «لقد توهمتُ بأنكِ تُحفة إيطالية».

لم تعرف ما الذي تقوله لشخصٍ شهيرٍ مثله، وعوضاً عن ذلك فقد نظرت في عينيهِ، كانتا داكنتين وكان التبرُج الغريب قد أبرز سوادهما،

شعرت في لحظةٍ واحدة بأنها خائفة منه ومنجذبة إليه، وعلى أملِ أن ينظر إليها بجديةٍ فقد شعرت بأنها مُجبرةً على قولِ شيءٍ جاد.

«لقد أعجبني ما قُلته للسيد هاوفير عن الحكومة والحرب» قالت وهي تُشير إلى اليومِ الذي اعترض فيه ديكنز على تعليقٍ ذكره مدير الصالة حول أهميةِ الفوز في الحرب في أوكرانيا، كان عليها الاعتراف بأنها وجدتهُ أنيقاً نوعاً ما، حول كيف من المُمكن أن يكون الجنرال الإنكليزي المُبهرج أحمق بالكامل ولكن كوارثه ستكون دائماً عبارةً عن نجاحٍ، خاصة عندما تكون كوارث تُخترع لأجلها كلمات مثل البسالة، هذا ما يجعلني أضحك».

ابتسم ديكنز وابتسمت له إيلين تيرنان وأظهرت من خلفِ ظهرها دفتر ملاحظاته، وهي تلوّح به أمامه وهي تهزُّ رأسها وكأنها تُعاتبه.

«لو توجّب الدمار فليأت لأجلِ شيءٍ يستحقُ ذلك» قالت من دون أن تُدرك أن هذا لم يكن تمثيلاً، وضعت دفتر الملاحظاتِ على طاولةِ الزينة ودفعتهُ نحوه، وعندما أوشكت أن تسحب يدها مدَّ يده وتلامست أطراف أصابعهما، لم يلتقِط ديكنز الكتاب، كما لم يُحرك أصابعه بعيداً، «إن الأمر لا يسيرُ على ما يُرام» قالت إيلين تيرنان، كان جسدها واعياً فقط للمسته ولكنها لم تسحب يدها بعيداً هذه المرة بل تطلّعت إليه.

«الحربُ» قالت «أنا أعني الحرب».

«الحروب» قال «قلّما تفعل».

شعرت وكأن البرق كان يخترقُ جسدها، وفي نفسِ الوقت أحسّت بالحماقةِ الكاملة بسببِ شعورها على هذا النحو.

«يجبُ أن تكون السيدة فرانكلين ممتنةً وكذلك السيدة جيرولد».

وبعد أن قامت بتسميةِ النساء اللواتي تحصلن على خدمةٍ من الرجل العظيم، لم تتمكن إيلين تيرنان من مقاومةِ رغبتها في أن تكون هي الأخرى جزءاً من تلك المجموعة، كانت تُحاول أن تُبقي تنفسها مستقراً سحب ديكنز يده ودفتر الملاحظات ثم ـ هل تخيلت ذلك ولكن لو فعل ذلك تساءلت فهل عَنىَ به أي شيء.

بعد أن أمسك بدفترِ الملاحظات، قام ديكنز بتتبُع الخطِ الرقيق على سَبابتها بواسطة سبابته وبينما كان يفعل هذا كان إصبعها يشتعِل، كان في ذلك الاشتعال شيءٌ شائنٌ وشيء ماكرٌ وشيء رائعٌ أيضاً، تحدث ديكنز عن المسرحية وكأن شيئاً لم يحدث، ولكن ما يزال إصبعها يشتعل ويشتعِل ولم تكن متأكدةً إن كان قد حصل شيء أو لم يحصُل، كل ما كانت تعرفه بشكلٍ مؤكد أنها كانت ترغبُ في البقاء إلى جواره، تجعله يرشدها، تكون برفقتهِ حتى نهاية اليومِ وإلى ما بعد ذلك.

تلمّسَ رأيها في أدائه.

أخبرته أنه كان قوياً جداً، ولكن لو كان يقول أسطُرَهُ بشكلٍ أبطأ ويدع الكلمات تتنفس مع فتراتِ صمته فسوف يكون هذا مذهلاً، لم تكُن متأكدةً لماذا كان سيأبهُ بأفكارها أصلاً، ولكن عندما رأته ينظرُ بحدةٍ إليها فقد استجمعت شجاعتها وواصلت.

«دع يديكَ ووجهكَ تُخبر جمهورك عمّا تشعر به، شدّ الناس إليك سيدي، مع كل حركةٍ اسحبهم نحوك وكأنكَ ستحتضِنهم، وعندها وعندها فقط دعْ كلماتك تنطلقُ إليهم وكأنها مدفعٌ مصوّبٌ إلى القلب، لقد عرفتُ هذا سيدي، وذلك عندما تتمسك باللحظة لفترةٍ مطولة ـ فإن هذا سيعمل بشكل جيدٍ بصورة فاخرةٍ»، لم تكن متأكدةً مما تعنيه كلمة «فاخرة» ولكنها شعرت بأنه من الأفضل أن تدعم كلماتها بشيءٍ فاخر،

وعندما كانت تتحدث كانت تطوّح بيديها وذراعيها كأنها كانت تقوم بتوضيحِ نقاشها.

«آنسة تيرنان» ابتدأ ديكنز.

«نيل» قالت «الجميع ينادوني نيل».

«نيل» قال «حسناً إذن»، وفي خيالِه كان يعتريه شعورٌ غامر عن تلك الذراعين، عاريتين وتلتفان حولَ رقبته، وتلكَ اليدين تحديداً تتحركان خلالَ شعره، خلفَ رأسه ثم تلتقيان معاً كأنهُما تتضرعانِ «من الأفضلِ أن تناديني تشارلز».

ابتسمت له.

في الليلةِ الثانية كان الناسُ يتهافتون بالمِئات، في ذلك المساء، التقى ديكنز مع إيلين تيرنان لشُرب الشاي في صالةِ الطعام في الفندق، كان من المُفترض أن تأتي السيدة تيرنان ولكنها اعتذرت في اللحظةِ الأخيرة لأنها التقت بصديقةٍ قديمة، والتي كانت قد عمِلت معها ذات مرةٍ في المسرح، والتي تزوجت الآن من أحدِ أقطابِ القُطن «إنها كونتيسةُ مدينة القُطن» قالت إيلين تيرنان «إنها دعوةٌ لن يتمكن أحدٌ من رفضها».

وبهذه الطريقة فقد كانت إيلين تيرنان وتشارلز ديكنز لوحدهما للمرّةِ الثالثة، عوضاً عن الكعك فقد طلبت إيلين تيرنان الكرز، والذي أكّد لها النادل أنهُ من أفضلِ الأنواع القادمة من كينت، ولكنها لم تأكُل وهي تتحدثُ عن المسرح والذي كانت إيلين تمتلكُ كثيراً من الحكايات الطريفة الجديدةِ عنه، السياسة، والتي كانت آراؤها فيها أقل تحرراً من آراء ديكنز، والذي كان لا يرى سوى إمكانيةٍ ضئيلةٍ للتّطوّر الجيّد، ولكنه شعر بأن المعركة في سبيلِ تقدم المنطق يجب أن تستمر، الأدبُ والذي كانت تشتركُ فيه معه بحبِها للأساتذةِ العظماء، فيلدنك

وسمولييت، وكانت تستمتعُ بثاكبيري، ولكنها أسرّت لديكنز بما أسعده، عندما قالت بأن الرجل العظيم ذاك كان قد صدمها مؤخراً مثل حصانٍ في سباق الديربي، ثم ضحكا على أشياء كانت قد حدثت خلال اليومين الفائتين، ذكر كثيراً من الطرائف، حتى ومن دون سببٍ تجمّد الحوار بينهما، وأصبحَ الحديث مستحيلاً مثلما كان سهلاً قبل لحظاتٍ قليلة، بعد صمتٍ لم يتمكنا من ملئه، فقد تحدث إليها بطريقةٍ خرقاء ومُتعثرة «لمدةٍ طويلة عرفت أنني أبخسُ قدر نفسي واستسلمتُ لما تجلبهُ لي الحياة، ولكن في الأيام القليلة الفائتة، حسناً أنا أتفهم نيل، لقد رأيتُ بأنني قد كنتُ على خطأ»، لم يكن أي مما قاله يبدو منطقياً لدى إيلين تيرنان، ونتيجة للتوترِ المفاجئ وليس بدافعِ الشهية، فقد التقطت قطعةً من الكرز كانت تُدحرجها بين إصبعيها إلى فمها، امتصّت عُصارتها للحظةٍ وكأنها سُكَر، ثم أدارت النواة برقةٍ إلى حافةِ شفتيها وتناولتها بين إبهامها وسَبابتها وألقتها في الصحن.

نظر ديكنز إلى تلك النواةِ المُهملة والتي كانت محاطة بالشعيراتِ الرطبة الحمراء، وقد حسدَها على حظِها الجيد ثم بحركةٍ مفاجئة، غير متوقعةٍ له وكذلك لها، فقد التقطَ تلك النواة وابتلعها سريعاً، وهو ينظر ثانيةً إليها وقد التقت أعينهما.

انفجرت في الضحك وشاركها هو، يُقهقهان على سخافتِهِ تلك، وفي تلك اللحظة لم يكُن يشعر بالخِزي بالرغم من أنه تمنّى بشدةٍ أن يشعر كذلك أو أن يشعر على الأقلِ ببعضِ الخوف أو الاهتمامِ، ولكن على العكس فقد كان مُخدر الحواس.

بعد وقتٍ ليس بالطويل على عودةِ إيلين تيرنان إلى غرفتها، كان ثمة طرقٌ على بابها من قِبل رسولٍ يحمل مظروفاً، في داخله كانت هنالك

بطاقة تحمل شعار الفندق ورسالة بخطٍ يدٍ مميز، عرفته بكونه يعود إلى ديكنز.

عزيزتي الآنسة ن..

ابتداءً أريدك أن تعرفي بأنكِ الحُلم الأخيرِ لروحي، خلال تلاشيّ فإن منظرك كان قد أثارَ فيّ ظلالاً قديمةً ظننت بأنها كانت قد ماتت بداخلي، منذ أن عرفتُك وأنا أصارع الندم الذي ظننتُ بأنه لن يواجهني ثانية، وكنتُ أسمع همسَ أصواتٍ قديمةٍ تحثُني نحو الأمام، كنتُ أظنّها قد صمتت إلى الأبد، كانت لديّ أفكارٌ أوليةٌ عن الكفاحِ من أجلِ بدايةٍ منعشةٍ جديدة، لأنضو عني الكسلَ والشهوة وأواصل المعركة التي كنتُ قد تخليتُ عنها، إنه حلمٌ، مجرد حُلم، والذي سينتهي بلا شيء، ويترك النائمَ حيث استلقى، ولكنني أتمنى أن تعرفي أنكِ أنتِ من ألهمه.

أحرقي هذه البطاقة.

ت.

قرأت إيلين تيرنان البطاقة ثم أعادت قراءتها ولم تحرِقها، إنها في حقيقةِ الأمر لم تفهمها، إنها لم تكُن منطقيةً أكثر من الكلمات الغامضة في وقتِ الشاي، لقد أربكتها، أثارتها وسيطرت عليها، لقد أدركت أنها تعني شيئاً ما، شيئاً كبيراً ومنذراً بالسوء، لمن؟ ما الذي كانه ذلك الشيءُ الكبير والمنذر بالسوءِ؟ هذا ما شتتَ أفكارها.

ألم يكُن هذا حواراً شخصياً من أكثر الكُتاب شُهرةً في كل إنكلترا معنوناً إليها ـ نيلي تيرنان؟ ألم يكُن ذلك أكثر الأشياءِ روعةً وتميزاً واستثنائية، ألم يكُن ذلك الكاتب الشهير في إنكلترا يعتقدُ أنها مُثيرة للاهتمام، ذكية ومُلهمة؟

أمسكت البطاقة قريباً من قلبها وهي تتوقُ لأن تهرع للغرفةِ المجاورة وتخبر ماريا بالأمر، لكن شيئاً ما منعها من فعلِ ذلك، لقد كان أكثر الأشياءِ روعةً وتميزاً واستثنائية ـ ولهذا فعوضاً عن إخبار شقيقتها فقد أخفت البطاقة في قعرِ حقيبتها القُماشية، هل كانت تلك الكلمات «احرقي هذه البطاقة»؟ لم تتمكن من معرفةِ ذلك، لم يكن العُمر فبعد كل شيء كانت كثير من صديقاتها ـ المحترماتِ كلياً ـ قد تزوجنّ في الخامسة عشرة والسادسة عشرة برجالٍ يفوقونهنّ عمراً بثلاثة أضعافٍ، كلا، إنه أمرٌ آخر، السيد ديكنز مُتزوج، لقد أخفَت البطاقة ـ لماذا فعلت لم تكُن تعلم، ولكنها بفعلِ ذلك فقط وليس بأيّ شيءٍ آخر قد كانت حكيمة.

في تلك الليلة كان ديكنز قد أصبح واردور مرةً أخرى، كان واردور ممسوساً أكثر، ملعوناً أكثر ومفعماً بالندمِ وبالتضحية، مرّةً أخرى لقد ضحى بنفسه في سبيلِ الحُب، كان نحيب الصف الأول يُسمع بوضوح، عندما لعب الدور فقد كان ديكنز عاقد العزم أكثرَ من ذي قبلِ على أن يتصرفَ بشكلٍ نبيلٍ وغير أناني مثل واردور، لن يتمكن من الاستمرار، يجب أن يُبعد نفسه عن إيلين تيرنان مهما يكُن الثمن، الغضب، البؤس أو حياته التي ستتحولُ إلى موتٍ حيٍّ فيما بعد.

«لقد كان من أعظمِ الأداءاتِ المسرحية الذي أمكنني تخيُلها» أخبر ويلكي ديكنز فيما بعد «لقد استحوذتَ على الجمهور فعلياً».

لم يكن بإمكانِه أن يعرف هذا، وعندما أمطرهُ الجمهور بهتافِ الاستحسان في نهايةِ المسرحية، فقد تنامى شعورٌ غريبٌ داخل ديكنز حتى استحالَ إلى خوفٍ مُروعٍ، كان ينحدرُ عبر نفقٍ ضيقٍ خلال عتمةِ ذلك الصخب الهادر إلى مكانٍ لن تتسنى لهُ العودة منه.

١١

بعد أشهرٍ عدة على رحيلِ آل فرانكلين، أصبحت السلطات مُهتمةً مرةً أخرى بالحفاظِ على أرض فانديمون خاليةً من السود المُتمردين، وتلك البادرةُ المُروعة كانت قد طُبقت على الساكنِ المحليّ الوحيدِ المُتبقي: طفلةٌ في الثانية عشرة، والتي كانت قد توقفت عن الكلام، والتي بطريقةٍ خبرتها في حُجيرة كروزر، ثم كرّرتها بصحبةِ الأطفال الآخرين في الميتم، تعلمت أن تكونَ غائبةً عن حياتها.

«يعتقد بعضهم أنها قد ألقت بتعويذةٍ شيطانية على الحاكم السابق» قال مونتيك عندما كان الحاكمُ الجديد يُدقق المُذكرة المطالَبة بعودةِ ماثينا إلى ما تبقى من الأشخاصِ المنفيين على جزيرةِ فلاندرز.

«أنا أنجليكاني» قال الحاكمُ الجديد وهو يقومُ بنثرِ الرمل على توقيعه السريعِ الرطب «ولهذا فقد تخلّصت من عبءِ الاعتقاد بأيّ شيء».

لأنّ كثيراً مِنهم كانوا قد غادروهم إلى الأبدِ فقد شعرَ سُكان وايباليَنا بالإثارةِ لعودةِ طفل واحدٍ، كان وصول ماثينا حدثاً مهماً، فقد قاموا بزرعِ نقاط مراقبةٍ على طولِ تل فلاكستاف وتسارعوا إلى الشاطئ وهم يلوّحون عندما رسا المركبِ الشراعي، وابتدأوا بالصُراخ عندما أبصروا القاربَ الصغير ينزِل مع طفلةٍ سوداء نحيلةٍ تجلس في مُقدمته، أحاطوها بأذرعِهم عندما ترجّلت ماثينا من القارب، بدا وكأنها أصبحت أميرة

هوبارت السوداء مرةً أخرى، كان الأمرُ أشبه بالعروضِ المسرحية التي كانت تزور هوبارت في بعضِ الأحيان، والتي اصطحبتها السيدةُ جين إليها، ولكن الآن، كانت هي الممثلةُ والجمهور معاً.

لم تُظهر ماثينا أية بهجةٍ أو سعادةٍ، حتى أدركت أنه لن يُجبرها أحدٌ على ارتداءِ النعل مُقابل ألم الضربِ لو لم تفعل، خلعت عنها نعليْ الصنوبر الثقيلين، كانت بشرةُ قدميها تبدو طريةً بيضاء ومُتقشرة، وكانت نهايات أصابعِ قدميها تبدو وكأنها مُغلفة بعجينةٍ طرية، اعتصرت أصابعها نحو الأمام والخلف في الرمالِ الرطبة لشاطئ وايبالينا. خلفها كانت الأمواجُ تهدر، كان الهواءُ مُفعماً برائحةِ أشجار الشاي والملح والحياة، وأمامها كان طائرُ النمنمةِ الخُرافي يخترقُ الحشود، أزرقَ برّاقاً فوق أعشابِ البحر المتلألئة، ألقت بنعليها إلى بستانٍ من أشجارِ الشاي، ضحِك الحشد وهدر بالموافقة، لكنها كانت خارج حماسهم وصُراخهم وتساؤلهم، لم ترجع مع الأبوسوم الأبهق الذي كان يتغوطُ كُرياتِ الرصاص على كتفيها، لم ترجِع إليهم مع ضِحكة، غرزت أصابعها عميقاً في الرمل، كانت مُدركةً لاحتكاكها الرملي بالحياةِ، لكنّها كانت أشبه بعمياء تحاول أن تُبصر، غرزت قدميها أعمق وأعمق ثم أدركت أن الأمر صحيحٌ: لم تكُن تشعرُ بشيء.

بعد وقتٍ قصيرٍ كانت إثارةُ سُكان وايبالينا قد تبخرت، وجدوا ماثينا غريبةً عنهم، كانت ترى أنَّ البِيْضَ هم عشيرتها وليس هؤلاء.

«لقد تركتنا ماثينا» قالت كوسييري «وما تزالُ غائبة».

وجدت الفتاةُ أن السكان الأصليين القِلة المتبقين الذين قابلتهم عند عودتها، كانوا قذِرين، جهلة وخاملين، لم تُظهر أيّة علامةٍ على الصدمة عندما علمت أن الآخرين قد ماتوا ودُفنوا كلّهم في مقبرةِ روبنسون،

حتى روبنسون بنفسه كان قد رحل إلى أستراليا بصحبةِ عددٍ من السود المروضين كي يبسط حِمايته على سكان بورت فيليب.

«إنهم غرباءُ عني»، أخبرت الدكتور براينت وهو الرجلُ الذي كان يُدير المستوطنة الآن أمام عددٍ من هؤلاء الذين كانت تشتُمهم، «إنهم غرباءُ قذرون».

لقد فعلت ما كانت تفعله دائماً ببساطةٍ: صرفت ذهنها بعيداً، وبعد قليلٍ كان يُحلق فوق المقبرة، وهي تنظرُ إلى الأسفل، إلى كثير من المحليين الذين اصطحبوها إلى هناك، تنظرُ إلى نفسها ـ وهي لم تعُد طفلةً جميلة بملابس جميلة، ولكنها غصنٌ مكسورٌ لفتاةٍ ترتدي تنورةً بُنية قذرة وكنزة زرقاء مُمزقة.

أحياناً كانت الفتاةُ النحيلة تقول شيئاً ما، لأنه كان يتوجبُ عليها ذلك، أدركت وهي تُحلق في الأعلى بأنها تتكلمُ بطريقةٍ لم تكُن تعود إلى البيض ولا إلى السود، لكنها طريقة غريبة مع كلماتٍ غريبة لا تمتلك أيّ معنى لأي شخصٍ. من كانت هذه الفتاة، لماذا تتحدثُ بهذه الطريقة، لماذا هذا الصوتُ المُتذبذب الغريب.

أحد المحليين، رجلٌ شابٌ يُدعى «والتر تالبا بروني»، كان غاضباً، كان يقول إنه لا يفهم لماذا يحدثُ كل هذا، كل ذلك الموت، أشارَ إلى القبور وصرخَ في وجهِها، وكأنهُ كان خطأها، وكأنها عادت إلى وايبالينا مع بعضِ الأجوبة، مع رسالةٍ ما، تفسير ما، أو أمل ما.

لكنها لم تكُن تمتلكُ سوى فستان أحمر ما عاد يُلائمها، والذي قامت بتحويلهِ إلى وشاح.

لم تكُن تعلم أن شغفَ «والتر تالبا بورني» كان يؤثرُ في بعضهم،

وقد اعتَقد أنهُ كان سيؤثر عليها، لم تتحركْ ولم تهتم، لقد فهمَت أن لا شيء من هذا كان يعني أي شيء.

«إذن اقتلني أنا أيضاً» قالت.

لم يكن يمتلكُ قوةً توازي هذه الفتاة.

كان هؤلاءِ الذين لم يموتوا ويبلغُ عددهم المِئات في قنوطٍ تام، وكانوا يستمرون بالموت، في الصباحِ كانت النُسوة يصعدن إلى قمة تل فلاكستاف، ويجلسن هناك طِوال اليوم، وهنّ ينظرن نحو الحدود، ستين ميلاً إلى الجنوب، السواحلُ البعيدة لوطنهم الأمّ، أكواخهم المتداعيةُ هناك تنتظر عودةً لن تحدث، فسحات غاباتهم ازدحمت بالشُجيرات وآثارهم بالنفايات، وأراضي صيدِهم كانت قد سوّرت وامتلأت بالأغنام.

كُنَّ يستدعين أسلافهنّ القدماء الذين واصلوا الغناء كي يعيدوهم إلى المنزل، حتى لا تضيعَ أرواحهم إلى الأبدِ، ولكن لم يكُن هنالك من جواب.

لم تذهب ماثينا إلى تل فلاكستاف في البداية، كانت تقضي معظم وقتها مع المعلم «روبرت ماكماهان»، لقد كان قذراً جداً إلى درجة أن الدكتور براينت أخبر زوجته بأنه لو نفدت المؤونةُ من الجزيرة فإن بالإمكان طهي قميص ماكماهان، والاستفادة من الطعام المُختزن في ثناياهُ المُشحمة السوداء.

«أنا لا أدّعي التهاون ولا أدّعي الغباء» قال ماكماهان للدكتور براينت كتوضيح عن سببِ وجوده هناك «أنا ألتمسُ الغُفران فقط»، استمر بقول هذا وكأن هدفهُ الأساسي في الحصولِ على وظيفةٍ عاديةٍ وآمنة في المستعمرة كان قد مهّد الطريق بصورةٍ معقدة لذنبٍ غريبٍ غير مرئي،

لقد كان صحيحاً أن ماكماهان واجه مع الدكتور براينت المهمة العسيرة للحفاظِ على نوعٍ من النظام فيما سمَّاه ابن الوصي «منزل الموت»، والذي كان مسروراً لمغادرته.

في البداية كان ماكماهان فضولياً وقلقاً، وقد تعلّم شيئاً من لُغة المحليين وقام بترجمةِ بعض النصوص المقدسةِ إليها، ولكن هذا لم يمنعِ الآخرين من الموت، ولم يمنع الحكومة من التقنين والاستمرار بتقنينِ النفقةِ السنوية المُخصصة للمستوطنة، كان هنالك دوماً طعامٌ أقل وملابس أقل، قليلٌ من كل شيء. عمَد براينت وماكماهان مع مرورِ الوقت إلى خزن الطعام والتفكّر في إمكانيةِ إطلاق النار على بعضِ المحليين للحفاظِ على السلام، لكنهم كانوا مُستمرين بالموتِ بكثرة، كان ماكماهان أكثر قذارةً من أيّ شخصٍ أسود، مع قُدرة مُذهلةٍ على الاقتباسِ المغلوطِ من النصوص المقدسة، وبدا للحظةٍ أنه يقف إلى جانبِ السود وفي نفس الوقت يحتقرهم، بالنسبة إلى ماثينا فقد أُضيفت إليه ميزة أخرى بكونهِ غير محبوبٍ لدى المحليين، والذي عنى لها أنه كان رجلاً صالحاً، ولكي تؤثر عليه فقد قامت بكتابةِ الملاحظات في مذكراتها بحضورهِ، كما كانت ترى السيدة جين تفعل غالباً.

طالب ماكماهان برؤيةِ ما كانت ماثينا تكتبه، أرتهُ ذلك وهي تعتقدُ بأن هذا سوف يرفعُ من تقديره لها فوقَ باقي السود الذين كانت للأسفِ تُصنف من ضمنِهم، على الرغم من أنها كانت قد قدّمت عرضاً عظيماً في الكتابة فقد اكتشف أنها كانت قد كتبت القليلَ فقط، لم يكن يعلم أنها كانت ترى الكتابة كأمرٍ موازٍ للمُكافأة، عرض على التصرف الجيدِ مثل الاغتسال بالصابون ـ وأحد أنماطِ القوة، لو أدرك ذلك لكان قد ضحِك منها.

كانت في بعض الأحيان تستنسخُ النصوص المقدسة، إعلانات القطن أحياناً، الخيول، الصابون أو الأدوية من مجلةِ مدينة هوبارت الحوليّة، وعندما أخذ «روبرت ماكماهان» مذكراتها فقد قرأ بصوتٍ مرتفعٍ...

«يجبُ عليهم ألا يُبدوا الصابون الذي يمتلكون كثيراً منه، الصابون شيءٌ جيدٌ كي تغسل نفسك به، وهم لا يأبهون به، حتى إنهم سوف يدّعون لاحقاً أن الطين الخام الذي كانوا يستخدمونه غالباً ويُفضلونه هو أفضل على وجوهِهم من الصابون».

توقف قليلاً بين الكلماتِ بينما كان اللُعاب اللزجِ يلوّث شفتيه على طولِ غليونه الخشبي ثم واصل القراءة...

«أنتَ ترى الآن، إنه ليس هناك كثيرٌ من الأناسِ الصالحين على قيدِ الحياة، يقول والتر تالبا بروني أن هذا أمرٌ إلهي، وبأنهم ذهبوا جميعاً إلى الفردوس، كلا أنا أظنُ بأنهم قد ماتوا وانتهوا، يقول والتر تالبا بوروني إنه حين أموت فسوف أستيقظُ مرةً أخرى في الأعلى، حيث الصيدُ مع كثير من الكناغر وحيوانات الإيمو، حيث لا توجد أسئلةٌ، كلا أنا لن أتمكن من رؤيةِ وجه والدي، أنا أحلُم بأنّ الأشجار تعرِف كل شيء وتخبرني بكلِ شيء، كلا أنا لن أتمكنّ من رؤيته والأشجار التي أحلم بها تعرف كل شيء».

قام «روبرت ماكماهان» برمي مُذكراتها إلى النار. بعد ثلاثةَ أعوام أتى صيفُ النيران، القصَص حول طبيعته التي لا تنتهي، كيف إنه كان يُدمر مساحاتٍ واسعةٍ من أرض أستراليا البعيدة. وصل ذلك الصيف على مَتن سفينةٍ أبحرت مع شروقِ شمس كانون الأول، مع فريق روبنسون من السودِ المروضين، عادوا من الفترة التي أمضوها برفقة الوصي على

الأرضِ الرئيسة، لقد تمكنوا من الإفلات من روبنسون ثم هربوا مع سُكان أستراليا المحليين، وهم يُخبرونهم بأن يقتلوا الرجل الأبيض أو سيُقتلون بدورهم، لقد أطلقوا النار على حُراس المخازن، سلبوا أكواخَ الرُعاة، أحرقوا المنازل وقتلوا اثنين من الصيادين، قامَ الرجال البيض بالإمساكِ بتيمي وشنقه، كما أمسكوا بيفي وشنقوه أيضاً، ولكن المحليين الستة المتبقين ـ ثلاث نساءٍ وثلاثة رجالٍ ـ أُنقذوا بتدخل من الوصي وأعيدوا إلى وايبالينا.

تلك النسوة الثلاث كنّ مختلفات عمّن يجلسن على تل فلاكستاف، لقد علّمن باقي النسوة رقصةً جديدة، رقصة الشيطان، خلالَ النهار كانت ماثينا تواصل كتابة مذكراتها ولكن عند المساء كانت تُشاهد رقصة الشيطان حولَ نيران المخيّم الكبيرة. في وقتٍ ما، أخبرت النّسوة العائداتِ بأن طريقتهنّ تلك كانت فظّة وغير حضارية، ولكن في الليل كانت تُصغي بدهشةٍ عندما كانت النّسوة الأكبر سناً يخبرنها القصص حول كل ما رأينه ـ على أيدي الصيادين، رجال الحكومة ورجال الإرسالية، بالنسبة إليهنّ فقد توصلنّ إلى اكتشافٍ مميز: العالم لا يديره الرّب بل الشيطان.

كان الكونُ مخضباً بسديم من الدُخان الذي لا ينتهي أبداً، والذي جعل السماء أوطأ، ولطّف مَن عُزلة الجبال الرائعة وحوّلَها إلى شيءٍ غير مؤكدٍ، لم تعُد الشمس راسخةً وواثقة ولكنها حمراءُ ومرتعشة.

خلال النهار كان الهواء مفعماً بالرائحةِ النفاذة للنيران على بعد مئات الأميال، لكن الليالي كانت مُفعمة بصوتِ الصرخات لرقصةِ الشيطان، في مساءٍ ما قررت ماثينا أخيراً أن تنضمّ إليهنّ، كانت مُغطاة بالأوراق المُتفحمة والأغصان المسوّدة التي حملتها الرياح من أراضي أستراليا كي تستقر أخيراً في أرض وايبالينا.

كانت قد عقدت صداقةً مع «والتر تالبا بروني» والذي وجدتهُ أكثر غرابةً منها، كان في الثانيةِ والعشرين وعلى الرغم من ميلهِ إلى البدانة لكنهُ كان ما يزال وسيماً، ويُعتبر من قبل البعض كأحدِ رجالهم العِظام، والتر تالبا بروني كان مدركاً لعدةِ أشياءٍ فقد تمّ تعليمه من قبل الوصي والذي كان يعتبره ذات يوم تلميذه المُفضل، وكان على ما يبدو على توافقٍ مع كل من البيضِ وقومه الأصليين، كابنِ أحد الزُعماء، فقد كانت لديه قدراتٌ سحريّة، فقد كان يتمكّن مثلاً من الكتابة.

كانت كتابته مؤثّرة جداً، حتى إنها اعتبرت كأحد ضروبِ الشعوذة، لقد هدّد ذات مرةٍ بأنه سيقومُ بوضع أسماءِ الأشخاص الذين لا يُطبقون نصائحَ الوصيّ في مجلة فلاندرز الحولية، وهي ورقةٌ واحدةٌ مكتوبةٌ باليد كان هو مُحررها، كاتبها، مصممها، مالكها ومؤسسها، كان ذلك التهديدُ قد ألقى بالذعرِ وأسفر عن فترةٍ قصيرة من الطاعة.

بعد اليوم الذي رقصت فيه رقصةَ الشيطان للمرةِ الأولى، سبحت ماثينا باحثةً عن جرادِ البحر مع والتر تالبا بروني، ثم قاما بطهيها فوق نارٍ صغيرةٍ على الشاطئ؛ ثم استلقيا على الرمال وحلّ بينهما غسقٌ من الحكايات عمّا رأته من جنونٍ وغرابةِ الناس البيض.

أخبرها والتر تالبا بروني بأنه لم يكُن خائفاً من الأشخاص البيض، وبأنه كان يعتنقُ أفكاراً ما وكانت تلك الأفكار تعود لمُعلّميه البيض، وقد تغيرت الآن، سوف يقومُ باستعادةِ الأرض، سوف يتعاشون على قمحِهم وبطاطسهم، على لحومِ طيورهم وبيضهم وخرافهم، لن يكونوا بحاجةٍ إلى الأشخاص البيض كي يحكموهم، سوف يكتب للملكة. لقد كانت الساعةُ التي تسبِق مُنتصف الليل عندما اكتشف «روبرت ماكماهان» ماثينا على الشاطئ تحتَ ضوء القمر، وهي تُعطي لوالتر تالبا بروني الشيء الذي استلبهُ منها شخصٌ آخر.

في سورةِ غضبٍ قام بجلدهما معاً بواسطة غصنٍ من شجرة الشاي، كان يحتفظُ به لهذا الغرض، كان يرغبُ في أن يفكر والتر تالبا بروني في الرّب والجحيم وبالعقاب، وللمساعدةِ على ذلك فقد قام باحتجازه لمدة سبعة عشر يوماً، ولكي يُنقذ روحها الملعونة فقد جعل ماكماهان من ماثينا خادمَته.

في منزله، كان يصرخ دوماً، أخبر ماثينا بأنّه قد وقع عليها الاختيار، كان يقوم بضربِها بشكل يوميّ تقريباً، وكان ينتقدها في كل مناسبةٍ على تخاذلها، تلك كانت الفعالية الوحيدة التي يبدو بأنها تُسعده، عندما تفجّر الدمُ من ظهرها الأسود فقد ابتدأ هو بالكلام، كان كلامه مُتسقاً مثل ضرباته.

«أنتِ تفهمين» قال وهو يواصل جلدها باحتراسٍ «لقد كانت في عامها التاسع عشر ومع طفلٍ، لقد عاشت كمثالٍ لكل مسيحي ولكل فضائل المرأة، وماتت مع تأكيدٍ كامل على حياةٍ أفضل بعد القبر».

لقد كان ذلك كما فهمته ماثينا نوعاً آخر من التعاليم الكاثوليكية.

كانت النسوةُ اللاتي جلبن معهنّ رقصة الشيطان قد جلبن معهنّ مؤونة جديدةً من أوكسيد الرصاص الأحمر لاستخدامهِ أثناءَ المراسيم. لقد رفضن أن يعملن في الحدائق إلا بعد أن يدفع لهُنّ أو يُنظفن بيوتهنّ إلا بعد أن يحصلن على ثيابٍ أفضل، لقد حثثن الرجال على القتال.

«كان يسوعُ خدعةً شيطانية» قُلن، «الشيطانُ هو من يدير العالم، ليس هنالك من نورٍ في النهاية، ليس هنالك من خلاصٍ ولا عدالة، الرّب، الفِردوس، الرّجال البيض، كلّها كانت من خِدعِ الشيطان، لم يكن هنالك من أحلامٍ للسود ولا فردوسَ للبيض، ذلك التافهُ الشيطان فقط وهو يُسَفّهُ كل شيء».

لقد عشن ذلك، لقد رأينه وليس هناك من جدالٍ بأنهنّ لن يتمكنّ من التخلص من حياتهنّ البائسة، ربما هنالك في النجوم، في الأعلى كانت مواسم صيدٍ لا تنتهي، والتي تحدّث عنها القُدماء، لكن عليكَ القتال كي تصل إلى هناك، اذهب مع الشيطانِ - استمتع بالشيطان - ما الذي تملكه غيرَ ذلك، هل تعتقد بأنَّ الشيطان سيخسر، هل خسِر الشيطان يوماً، أخبرني أنت، أخبرني متى لم يُدمر الشيطان حياتنا. أنتَ ترقُص معه، أنت تستمتِع بالشيطان لأنه سوف يأخذنا جميعاً عما قريب مهما حدث، ثم كُنّ يضحكن: ضحكةٌ رهيبةٌ مصحوبة برائحةِ أعشاب البحر المتصاعدة، رائحةٌ غامرة لجماعٍ نديّ، تتصاعد من القرون الجلدية لمئاتِ الأقدامِ الخضراء الملتوية للأشناتِ التي تُغطّي الشاطئ تماماً. كانت الرائحة تهبُّ من الساحلِ مع الرياح الغربية في الليلة التي كانت تقوم فيها مائينا بوضعِ كثير من الأغصان الميتة بصمتٍ على الجهةِ المواجهة للرياح من منزلِ المعلم، وهي تعمل بصبرٍ وأناةٍ وكأنها تُرتّق التنانير في الميتم.

تذكرت أوراق مذكراتها وهي تصفرّ وأحلامها عن الأشجار وهي تتجعدُ وتستحيلُ إلى رمادٍ في نارِ المعلم، وقد كانت تعلم ما الذي يتوجبُ عليها فعله، وضعت طبقةً بصورةٍ أفقية حتى تكون فِراشاً تستقرُ عليه النار وبهذا يصعُب إخمادها ثم عززتها بطبقةٍ عمودية حتى تلتقِف الرياح ألسنةَ اللهب وتتصاعد بسرعة، ثم واصلت ورقصت رقصةَ الشيطان، وعندما انحسرت النار وأصبحت جمراً وقد انتبه كل السودِ لهذا الأمر بينما كان البيض يغطّون في النوم، فقد عادت إلى تغذيةِ النار بغصنٍ من شجرة الشاي وبحزمةٍ من السرخس.

عندما هربَ روبرت ماكماهان من النارِ المُستعرة وهو حيٌّ وسليمٌ من الحرق، يرتدي قميصاً قذراً فقط كي يُمسك بمائينا وهي تُلقي بحزمٍ

السرخس فوق المنزلِ المحترق، هو لم يسأل إن كانت مُذنبة وهي لم تتظاهر بالعكس، جعلها تنحني على رُكبتيها ثم ربط يديها وجلدها بغصنٍ من شجرة الشاي.

قام بعض الرجال المُحتفظين بالسحرِ بلعنِه، ولم يؤثر فيه ذلك، لقد جلد ماثينا أكثر، لقد كان خالداً كما النمل، لا يهم كم ستدهسهُ فإنه يعود دائماً، لقد نجا من اللهب، نجا من اللّعنات والتمائم والعِظام الحادة العائدة للموتى، لكنه لم ينج عندما رُمي من سطحِ مركبٍ على بُعد ميلٍ من جزيرة بلك دوك من قِبل مُواطنه المراكبي، ولكن ما زال المحليون مستمرين بالموت، كانت مقبرة روبنسون قد امتلأت بمزيدٍ من جُثث المحليين.

قلقَ بعضُ البيض من احتماليةِ انقراضِ ذلك النوع بينما صلّى آخرون بحماسٍ لحدوثِ ذلك، ولكن اتفق كلا الفريقين على القنوطِ والفتور اللذين يسودان الآن بين من كانوا من المُحاربين والأشخاص الحيويين: كانت ماثينا تستفيقُ صارخةً، طلب منها القُدماء بأن تقصُ عليهم ما تراه في كوابيسها، لم يكن هنالك ما يُقال، لا مزيدَ من الأحلامِ السعيدة، قالت.

كان عزاؤها الوحيد المُتبقي من أيامها في مدينة هوبارت قد تلاشى، هي لم تَرغَبْ في قولِ إن والدها لن يأتِ لرؤيتها، لأنها لم تكُن ترغب بأن تُشعره بالعار، تفهّمت بأنه لا بد من وجود سببٍ، ولا بد أن تكون هي السبب، لم تتمكن من القولِ إنها لم تعُد تتذكرُ وجه والدها الآن.

أخيراً، عندما تبقّى سبعة وأربعون شخصاً من آل فانديمون فقط، وعندما أصبح واضحاً بأنهم لم يعودوا يُشكّلون أيّ تهديدٍ، وعندما أصبح واضحاً بأنهم كانوا يُكلفون كثيراً من النقودِ للحفاظِ على البقية

المُتبقية من نوعِهم في الشقاءِ الذي اعتادوا عليه، فقد قال الحاكم الجديد إن بإمكانِهم العودة والعيش في شقاءٍ أكبر في وطنهم الأمّ، قاموا بدفنِهم في خليج أويستر جنوب مدينة هوبارت في أكواخٍ مهشمةٍ كانت تُستخدم كثكناتٍ للمُدانين، وهناك اعتاشوا على شرابِ الرام وعلى حصةِ الحكومة، بباوندين من اللحم في كلِ يوم.

أما الأطفالُ الستة المحليون الباقون على قيدِ الحياة ومن ضِمنهم ماثينا، فقد تم إرسالهم إلى ميتم سانت جون، لقد وصلوا إلى هناك عند المساء، خبأت وجهها بيديها وكأنها غير واثقةٍ بأنها والميتم ما زالا موجودين، نظرت نحو السماء، تَسَرّبَ ضوء فضي من بين فتحاتِ أصابِعها.

«تاوتيرير» همست.

كان ثمة صدعٌ في كلِ شيء، فكّرَت، كانت في الخامسةَ عشرة، وكانت قد بقيت على قيدِ الحياة عن طريق تشبُثها بالتفاصيلِ الأصغر حجماً.

بعد ستة أشهرٍ في الميتم، أرسلت ماثينا للعملِ لدى إحدى الخياطات، السيدة ديلاكورت في شارع سالامانكا، كانت الأميرةُ السوداء بحدّ ذاتها ولفترةٍ قصيرة عنصراً جذب اهتمام الآخرين، شهرةٌ أدركت السيدة ديلاكورت منذ البداية بكونها ذات قيمةٍ دعائيةٍ، كانت الخياطةُ ذات جمالٍ آفلٍ، تُفضل الشعور المستعارة الحمراء اللون، والتي كان مظهرها محتجباً خلف خمارٍ من المسحوقِ الأبيض الذي شكّل قناعاً شبحياً غطى وجهها، كانت تجني أموالها ليس من تصليحِ الثياب خلالَ النهار، ولكن من محلِ الخمور الفاسدِ في الليل، وهناك كان من المُتوقع أن تعمل ماثينا، وهي تُقدم أقداحَ الرام والليمون، الجِن

والسكر للصيّادين الأمريكان، لسكانِ نيوزيلندا والجنود المُسَرَّحين وأحياناً لبعضِ السهارى الذين قاموا باستلافِ ما يكفي من النقود لابتياعِ شرابٍ آخر.

«بإمكانكِ أن تتناولي ما تشائين» قالت الخياطة «ولكن فقط، لا تخذُليني».

أدركت مائينا، ذلك يعني أن بإمكانها هي أيضاً أن تُدلل نفسها، بالسعادةِ الدافئة لشرابِ الرام والشاي المُعطر بالقِرفة والذي اكتسبت شهيةً قويةً له بسرعةٍ.

السيدة ديلاكورت وكلبتُها الباج «بياتريس» كانت تحكُم الخمارة بقسوةٍ جليدية، أياً كان من يُضايق السيدة وكلبتها لن تتم مُخاطبته مرةً أخرى وعند صدور إهانةٍ ثانيةٍ فسوف يُرمى خارجاً، عندما لا تكون بياتريس في حُضن السيدة ديلاكورت أولا تتجولُ حول أسطُح الطاولات وهي تلعقُ بقايا الطعام عن الصحون بلسانِها البشِع الملتوي الطويل، والماهرِ جداً، فإنها كانت تجلس على جلدِ حملٍ قذرٍ عند مدخلِ ردهةٍ معتمة طويلة وهي تلهثُ أسوأ من مسلولٍ يُحتضر.

في الردهةِ المعتمة تلك كانت توجد ممتلكاتِ السيدة ديلاكورت الثمينة، حيث تنتصبُ على الأرضِ المتربة: طاولة بليارد ذات رجل مكسورة تستقر على لوحٍ قديم لتقطيع اللحم. تتدلى فوق الموقد لوحة للسيدة ديلاكورت كامرأةٍ شابة ذات جمالٍ متوسط وهي تنظرُ نحو الطاولة وكأنها في حالةِ تضرُّع أخير ـ من أجلِ الحُصول على شيءٍ أفضل؟ الغفران؟ الحُب؟ بالنسبةِ للسيدة ديلاكورت، والتي عاشت في كونٍ لا يعرف الحُب، كانت تتغلبُ على الذُعر المُتبقي منهُ بما تحتفظُ به على حافةِ النافذة مع ما هو منتشرٌ على طاولةِ البليارد المغطاةِ باللُباد

الرّث: تذكارات وهدايا من حبيبها الأخير، وهو زيرُ نساءٍ مسرفٍ، ادّعى أنه من نسلِ عائلةٍ ألمانيةٍ عريقة.

كانت هنالك أغمادٌ بلا سيوف، بوصلاتٌ بلا إبرٍ وحتى إسطرلاب معوج مع بعضِ الجرائد التي كُتبت بلغةٍ غريبةٍ لا تُمكن قراءتها، والتي قالت السيدة ديلاكورت بأنها اللغةُ الهنغارية، والتي زعمت أنها كانت تصوّر بطولاتِ زوجِها في عديدٍ من الحروبِ المنسية، كان كل ذلك يُعرض لكل ضيفٍ تعتبره ذا مكانةٍ وأهمية، كي تُظهر نفسها كامرأةٍ تمتلك مركزاً متميزاً بالإضافةِ إلى الشغف، كانت تلك الآثارُ المُقدسة على أيةِ حالٍ خارج اهتمام أي شخصٍ آخر عداها.

مهما كان نوعُ الصفقة التي تمّت بين الميتم والخيّاطة، والتي كان من المُفترض أن تعتني بمائينا حتى تبلغَ الثامنةَ عشرة، فلم يتدخّل بين مائينا والخياطةِ أيّ أحد، لقد كانت تختلِس بقايا الطعام وتسرق المشروبات ولا تتقاضى أي أجرٍ سوى بعض البنسات والخُبز مقابل ما سرقه منها السيد جون، هي لم تعُد تتذكر هذا، لم يكُن ذلك الأمرُ جالباً للمسّرة ولكن ما الذي في حياتها كان كذلك؟ لقد كانت تلك دُنيا الشيطان بعد كلِ شيء، كانت في بعض الأحيانِ تجد راحةً غريبةً في هذا الفعل، لا يُمكن أن يسوء الأمر أكثر، كانت تُخبر نفسها بذلك بينما كانوا يلوثونها بلعابِهم ويشخرون ويدفعون.

ولكن، كان الأمرُ الأسوأ هو عندما تتزاحمُ الذكريات معاً، ذكريات قومها، لُطفهم، ضحكاتِهم، الغناء والرقص حول نارِ المخيم، كانت تذهب إلى كوين دومين بين هذين السّوءَين، حيثُ أمسكت بعددٍ من الببغاوات الحمراءِ والخضراء وقامت ببيعها إلى أولئكَ الذين يفضّلون أكلها في الفطائر.

لاحظت وجود سيلانٍ ما بين ساقيها مع حكةٍ شديدة، أدركت أنها كانت قد أُصيبت بالزُهري، لقد بدا الأمرُ غير ذي أهميةٍ ولكنه مزعجٌ أحياناً ومؤلمٌ أحياناً أخرى كالقمل الذي أصابها أيضاً، قامت إحدى صديقاتها بإعطائها قارورةً من الزِئبق كي تشربها، لقد تقيأت، تساقطت كل أظافِرها وبعد مدةٍ اختفى منها السيلانُ والحكة.

كانت تتوقُ غالباً إلى النوم، إلى غفلته الحُلوة، في اللحظةِ التي كانت تصلُ فيها إلى سريرها، وتجدُ طريقها تحت جلدِ الأبوسوم فقد كانت تشعرُ بالأمان.

ذات ليلةٍ حضر رجلٌ فارع الطول ونحيلٌ جداً يرتدي معطفاً فاخراً إلى غرفةِ الأرملة الخلفية، كان كما أخبرت إحدى الفتيات ماثينا قد جَنى ثروتِه من المُضاربة وقد استخدم ميراثهُ الضئيل في شراءِ نصف حصةٍ في قاربٍ لصيدِ الحيتان والذي تضاعفَ الآن إلى كثير من السُفن، ابتسم عند رؤيتها، كان قد تحدّث إليها لعدةِ دقائق قبل أن تُصرّ على أنه لو كان يرغبُ فيها فعليهِ أن يدفع كأيّ رجلٍ آخر، اختفت ابتسامَته وفتحَ أصابعه النحيلة على منظرِ بعضِ العُملات النقدية.

كانت ليلةً مُمطرة مطراً متجمداً، لم يذهبا إلى محل عملِها المُعتاد وهي حُجيرة فارغة في الحظيرة أُعدّت لهذا الغرض، لكنهما تسللا إلى ردهةِ السيدة ديلاكورت للذكرياتِ المقدسة، الأقل برودةٍ، ولكن عندما شرعت ماثينا بخلعِ تنورتها استوقفها هو، وأجلسها أرضاً وأعطاها عملةً نقدية أخرى مع سؤال...

«آنسة ماثينا ـ هل تذكُرينني»؟

فقط عندما التقط أكورديون قديم من حقيبتهِ الجلدية تمكنت من التعرُف عليه، لقد كان السيد فرانسيس لازاريتو، وعندما عزف أغنية

سفينة قبرص فقد أسرها صوته للمرةِ الأخيرة، وعندما تباطأتِ الأغنية وندّت عن تلك الآلةِ الباليةِ أصوات غريبة حزينة جميلة، كانت ماثينا تدور هنا وهناك في محاولةٍ بطيئةٍ لاستعادةِ ذكريات الرقص البهيجِ على أنغامه التي ألهمتها ذاتَ مرة، وعندما قرر الانصراف فقد نطقَ بجملةٍ واحدة فقط ولم تكن تعني لها شيئاً...

«أنماطٌ مختلفةٌ من الاكتِمال».

وعند تلك اللحظة فُتح الباب واندفع خلاله كلبُ باج لاهث وقد تدلى لسانه الطويل، تتبعه السيدة ديلاكورت، ألقت نظرةً واحدة على الفتاة السوداء الجالسةِ على طاولةِ البليارد والتي تبدو كأنها قد دَنست مزارها النفيس، عندما فرّت ماثينا ببطءٍ خلف فرانسيس لازاريتو أخبرتها السيدة ديلاكورت بألا تُزعج نفسَها بالعودة.

بينما كان راكباً عربته للقاءِ بيدر ومناقشةِ عرض عملٍ مغرٍ ـ عملٌ ريفي في المستعمرة النامية في بورت فيليب ـ شاهد مونتيك امرأةً محلية شابةً تترنحُ باتجاهه.

«تعرفتُ عليها بصعوبةٍ لقد تغيّرت كثيراً ـ وليس نحو الأفضل» قال مونتيك لاحقاً.

لقد عانى من سكتةٍ دِماغية، تدلى أحدُ جوانبِ فمه بسبب الشلل وكانت كلماتُه مبهمة «كان وجهها متورماً وهي تنزُف من عثرةٍ أو جلدةٍ ما، بينما بدا جسدها وكأنهُ قد جُلد بالكامل».

«أخبروني بأنها تتجولُ في المدينةِ وتشربُ من البِرك الآسنة» أجاب بيدر.

«لقد قُدت العربة بسرعةٍ نحو الأسفل» قال مونتيك وانحنى هنا نحو الأمام وهو يتظاهرُ بأنه يتجسسُ على شخصٍ ما خلال منظارٍ زجاجي ـ

«حسناً أنتَ تتفهم»، ضحكا على فكرةٍ أن يشعر بالحرج من تلك الصعلوكة، «لكن هنا كان الأمرُ الأكثر غرابة ـ لقد ميّزتني وابتسمت فقط، هل يُمكنك تصديق هذا؟ كان يبدو وكأن كل شيءٍ حولها كان حقيقياً تماماً وفي نفسِ الوقت من دون أي أساسٍ ـ ومن ضِمنهم أنا، لقد بدا ذلك الأمر وكأنه يُزكيها وهي التي كانت مُهانة دوماً ومحط سخرية كل من تقعُ عليها عيناه، لقد أخبروني بأنها كانت تُرشق بالوحل أو الحجارة، لقد بدت بتلك الهيئة المُبتسمة وكأنها تمتلكُ رُقياً غامضاً».

«لقد رأيتُ ذلك بنفسي» قال بيدر «إنها تهيمُ في الشوارع وكأنّها في حلم».

ولكن كان هنالك شيءٌ ما بخصوصِ انحدار ماثينا والطريقة التي أوقعت نفسها فيها في المشاكلِ مع الرجال، إنهُ من الصعبِ معرفة هل كان تقبّلها لذلك هو نوعٌ من الخنوع أم قِلة عقلٍ ببساطة أم تمردٌ كامل أم ازدراءٌ عظيم، أعظمُ مما يجتلبه أي زائرٍ مُصاب بالزُهري، جنديٌ راعٍ أو موظف مسرح.

«لقد كانت تُجسد أشياءً كثيرة» قال مونتيك وهو تائهٌ في أفكاره «لكنها لم تكُن بسيطة العقل يوماً»، وسال من شفته لُعابٌ بشكلٍ علامة تعجب.

في بعض الأحيان كانت ماثينا تبدو مُتكبّرةً بصورةٍ فطريّة، وكأن تاريخها المتميّز أورثها نوعاً من العَظمة التي كانت قد وُعدت بها ذات مرة، وكأنها من قامتها البالغة خمس أقدامٍ كانت ترى كل شيءٍ عن الآخرين، وتقفُ بصورةٍ ما فوقهم، وهي مدركةٌ لفشلهم ولكن من دون أن تحكم عليهم. كان بعضهم في مدينة هوبارت يعتبر ذلك نوعاً من غباء السود بينما اعتبره الآخرون عجرفة، قال بعضهم إن السبب يكمُن

في الشراب المُسْكر وذكر آخرون حكايات قديمة عن شعوذتها، لقد كانت تغضبُ بسهولةٍ ويضحكون عليها وأحياناً يبصُقون عليها، ولكن صورتها العامة كانت قد سيطرت على أذهانِ الجميع.

استمرت في مقايضةِ جسدها لأنهُ مع القليلِ من الكِتابة وإتقانِ الرقصة الرباعية، فقد كان هذا هو الشيءُ الوحيد الذي تعلمته، وأدركت أخيراً أنه وسيلتها الوحيدةُ للبقاءِ على قيد الحياة، بالرغم من القرف الذي قدمتهُ لها السيدة ديلاكورت فقد وفَرت لها فِراشاً جافاً، ناراً، وحتى لو كان الطعامُ سيئاً، فهنالك بالتأكيدِ ما يكفي منه، وأسوأ الرجال كانوا يُلقَون بعيداً لو تصرفوا بعنفٍ مع الفتاة.

كان البحارةُ والجنود يحصلون عليها الآن وهم في حالة سُكرٍ أكثر، بلا أملٍ، بعنفٍ، بألم وغضب ودموع، مع أفواههم المُحطمة العفنة، ورائحة أنفاسهم الكريهة، وهم يلعقونها بشكلٍ بغيضٍ ويطلبون الغفران، نادراً ما يكونون فضوليين وغالباً يائسين للتخلص منها في اللحظةِ التي ينتهون فيها، ذلك وبشكلٍ ما قد لاءمها.

بالإضافة إلى هذا فقد أدركت أن ما كانت تبيعهُ لم يكُن ذاتها، وإنما قوقعة خارجية فقط، والتي كانت ستتحررُ منها ذات يوم، كان بعضهم يعرفون قصتها أو بما يكفي منها كي يتهكموا عليها، لكّنهم لم يُدركوا أنها لم تكن هي من كانوا يُسيئون مُعاملتها، بكلماتهم المُهينة وأصابعهم الخشِنة وأجسادهم الخسيسة، لأنها لم تكن موجودةً هناك، في ذلك الامتزاج الغريب والاهتزاز وتلاحُم الأجساد، في الأزقةِ المُوحلة أو في الأجَمَات خلف المدينة.

«لقد كانت أميرة الحاكم الأليفةَ كما تعلم، تلك الابتسامةُ اللؤلؤية والبريق الأسمر» لقد سمعت صوتاً يقول ذلك ذات مساءٍ مُعتم وهي تعبر زقاق كات وفيدل «لكنها الآن قد فقدت جاذبيتها».

«لقد كبرت لتُصبح واحدةً منهم» قال صوتٌ آخر واهنٌ وذليلٌ «إنها قردٌ أسود آخر الآن» عندما أدركت بأنهما كانا يقفان عندَ الزاوية فقد توقفت ماثينا.

على الرغم من أنَّ ماثينا لم تفهم تماماً ما الذي قُصد من تلك المحادثة، فقد أدركت بأنه شيءٌ لن تتمكن من أن تحوله إلى أفكارٍ: وبهذه الكلمات كان هناك شيءٌ لا مجال لإنكاره قد قام بنفيها بعيداً.

«لقد نزف يسوع كرجلٍ أسود» قالت لاحقاً في تلك الليلة لنجارٍ وهو يأخذها بعُنفٍ من الخلف.

«حاشا لله» قال «ليسَ أنتِ».

لم تكُن هي، بل كان ثمنها هو ما يتناقص، كان شعرُها يتساقط بشكل خصلٍ متعددة وقد ربطت المتبقي منه بوشاحٍ أحمر، معظم أسنانها كانت قد سقطت أو على وَشك أن تسقُط، وكانت جرباء البشرة، لقد قايضت لحمها المُهترئ مقابلَ بضع بنساتٍ، روبيات أو دولارات إسبانية وأحياناً بعض الشلنات عندما يحالفها الحظ، ومقابل قطعٍ من اللّحم المُخلل أو جرعاتٍ من أي شيء عندما تكون يائسة. بعضَ الأحيان كان ذلك يحدث مراتٍ عدة في الليلةِ الواحدة، خلفَ محلاتِ الخمور، بعض الأحيان كانت المُقايضة تتمُّ بسرعةٍ على طول الطريق المُنحدر من مدينة هوبارت باتجاهِ التلال ثم نزولاً نحو خليج أويستر حيث دُفنت حفنةٌ من الناجين من سكان وايبالينا، والذين كانت تقضي بصُحبتهم المزيد والمزيد من الوقت.

لقد توقفت عن نصبِ الفِخاخ للطيورِ، كانت تشربُ أكثر، كان واضحاً لها ـ وإن كان بطريقةٍ غبيةٍ ومشوشة وَجَدَتْهَا خارج أي كلماتٍ تعرفها سواء أكانت بلغتِها أم باللغة الإنكليزية ـ أنَّ الأشخاص الآخرين

كانوا يُعربدون ويستمتعون بالغرضِ من الحياةِ والعالم، لقد وجدت السيدةُ لسببٍ ما، لمئاتِ الأسباب ذات المُسميات المُختلفة مثل التعليم، التطور، التمُدن. كان المُدانون يرغبون في الفرار، والجنود بأن يُصبحوا مستوطنين، والمستوطنون بجني مزيد من الأموال، حتى القُدماء في خليجِ أويستر فقد تمسكوا بأملِ العودةِ إلى الوطن إلى أسلافهم ولو لم يكُن في هذه الحياة ففي الحياةِ التالية.

تاقت ماثينا إلى بعضٍ من جذوةِ الحياة، ولكن في الوقتِ الراهن فقد عقدت العزم على الاستمرار بما يُساعدها على الصمود، بما يُمكنها من البقاء على قيد الحياة، وغالباً ما يكون ذلك هو الخَمر، كانت ما تزال تضعُ يديها على عينيها في بعضِ الأحيان وتتطلع إلى الضوء المُتسرب من شقوقِ أصابعها، ولكن كلما احتست أكثر كلما انحدرت إلى العتمة.

لقد تم استدعاءُ «جورج أوغسطس روبنسون» إلى خليج أويستر في طريقِ عودته إلى إنكلترا، كي يُلقي خطاب وداعٍ لما تبقى من هؤلاءِ الذين كان يقوم بحمايتهم، لقد كان مرتبكاً لأنه كانَ لديهُم القليل لقوله، كما لم يكُن هنالك أي حماسٍ لزيارته، لقد كان مهتماً بلقاءِ ماثينا خاصةً ورؤية ما الذي انتهت إليه تجربةُ الأميرةِ السوداء ولكن كل ما سمعه عنها كان إشاعاتٍ مؤسفة.

لقد استعاد غرابة ذلك اللقاءِ الأخير بعد أعوامٍ عدة في مدينة باث، والتي كان قد تقاعد فيها، عندما قام بغلق سجلٍ كبيرٍ مليء بالأوراق التي كانت توضح تفاصيل تاريخهُ الغريب في مواجهة البرابرة في أستراليا وأرض فانديمون، كان روبنسون يأملُ أن يصنع منها شيئاً، كتاباً، شهرةً، تكريماً، نقوداً. أعظمُ الأوسمة زيفاً. لم يهتم بالأمرِ أحد ولا

حتى هو كما أدرك ذلك، كان السببُ الرئيسي لندمِه هو عدم مُطالبته بمزيدٍ من الأموال عندما أحضر آخر المحليّين أخيراً، النقود، النقود، النقود وما الذي يُمكن للنقودِ أن تصنعه من الحياة.

كان طموحه مثل جسدِه يتداعى، كان توازنه صعباً. رغب بلوحةٍ نحاسية تُثبت على منزله بعد موتِه. لم يكُن واثقاً ما الذي سيُطالب بكتابته أو حتى يقترحه، حتى عندما حَظي بشرفِ لقاء بعض ممن تباهوا بأنفسهم كأناسٍ مُتنفذين في مجلس الوصاية في بعضِ المناسبات النادرة. ما الذي كان هو يُحيي ذكراه؟ كانت أفكاره مشوشةً، سمع ترنيمةً غريبة، شاهد رجلاً يرقص عارياً بين النجوم والأرض، تذكّر الأنهار وطفلةً صغيرة تقف عند بابه، أصابع لزجة تستخدمُ منشاراً، لقد استيقظ مبكراً في الثامن عشر من تشرين الأول في عام ١٨٦٦، أدار رأسه نحو جانب واحدٍ من سريرِهِ الدافئ نظر إلى ضوءِ الخريف أحمر وغامر، يتساقطُ برقةٍ عبر النافذة، شعر بسكونٍ عظيم يلُفه، تمطّى جسده بسلامٍ وثقة وهو يعلمُ أنّه كان رجلاً صالحاً وقد قامَ بمساعدةِ كثيرين، ثُم مات.

١٢

كان من المُستحيل تأمينِ المقاعدِ في الليلةِ الخِتامية، كان الناسُ الذين قدموا بالقطار مِن أماكن بعيدةٍ مثل لندن يستعطفون السماسرة للحصولِ على التذاكر، كانت السيدة جين أكثر حظاً، بعد أن فاتتها رؤية المسرحية في لندن بسببِ التزاماتٍ مالية في مكانٍ آخر، فقد كانت مبتهجةً لاستلام دعوةٍ لعرضِ ذلك المساء، مع رسالة امتنانٍ من السيد ديكنز بنفسه.

كان السفر إلى قلبِ مانشستر في ذلك النهار الحارّ على غيرِ العادة في حزيران قد أشعر السيدة جين بأنها تنحدِر نحو فُوهة بركانِ فيزوف، كان الضوء مصفراً والهواء عابقاً برائحةِ السلفات المُنبعثة من حدوات الخيل والعجلات الحديدية للحافلاتِ والعربات والمركبات، كانت ترعد حولها ضجة متنافرة مثل صوتِ عشرات آلافِ الحدادين، ومثل المُتفرج على البركان كانت تستمتعُ بتلك الأحاسيس الرائعة لأكثرِ المدن تحضراً، قام سائقها باتخاذِ طريقٍ جانبي لتفادي جثة حصانٍ مسروءٍ بالذباب عندما اعترضت طريقهم عربة للدفن.

لقد جابت العالم الآن، لقد تحوّلت نقمتها على عِناد زوجها إلى حزنٍ نبيل، وكان دورها كأرملةٍ مخلصة قد أعتَقها من الرجال، وسمح لها بنوعٍ من الحرية قلّما تتخيلهُ باقي النساء، استمتعت بمذاقِ الحُزن

الزائف في حياتها، رغم أن الاعتراف بالسعادة كان أمراً غير ملائم، لكن عندما وجد سائقها طريقاً جانبياً فقد آمنت بأنها مُكتملة.

أدارت رأسها، تمكنت من رؤيةِ أنها كانت جنازة طفلٍ مع نعشٍ صغير مصبوغٍ بالأبيض، مؤطر بالنحاس ومُبطن بريشِ النعام، كان الماء ينضحُ من الثلج الذائبِ تحت ذلك الصندوق الصغير وهو يقطرُ من مؤخرةِ العربة المُهتزة، كانت حباتُ الماء تتناثرُ على بِلاط الشارع ثم تتلاشى إلى بخار، وجدت السيدةُ جين أن سعادتها قد تبخرت.

«أسرع» حثت سائقَ العربة «أوصِلني إلى هناك بسرعةٍ».

في فندق الغراند ويسترن لم تكن معنويات إيلين تيرنان في أفضلِ حالاتها، لقد أحسّت طوال اليوم بأن ديكنز كان يتجنبها، خشيَت أن تكون قد خسِرت احترامه، لعنت نفسها لأنها رفعت الكُلفة بينهما، فيما بعد استيقظت ماريا تيرنان وهي متوعكةً وعند المساء كان زُكامها من السوء بحيث أدى إلى اختفاءِ صوتها تماماً، مقابل تلك الخسارة لم تتمكن ماريا من عملِ شيء، وكان من الواضح أنها لن تتمكن من تأديةِ دورها في تلك الليلة كحبيبةِ واردور، كلارا بورنهام.

قبل ساعةٍ ونصف الساعة على فتح الستارة استلمت إيلين تيرنان ملاحظةً مقتضبة من ديكنز يقول فيها: إن السيد هاوفير كان قد وجد ممثلةً محلية ستقوم بتأديةِ دورها وبهذا تتمكنُ هي من لعِب دور شقيقتها في الصدارة. انفجرت دموعها دون أن تعلم هل كانت من الراحةِ أم الذعر أم كليهما.

وعلى الرغم من أنّ أداءَ ديكنز في كل مساءٍ كان أكثر تميزاً ولكن، حتى الطاقم كانوا غير مُستعدين لقوةِ مشاعر ديكنز وحدّتها وهو يمثل في ذلك المساء الختامي.

«يبدو أنها لم تعُد مسرحيةً بعد الآن ولكنها الحياة برُمتها» قال ويلكي لفورستر وهما يقفان في الأروقةِ الخلفية بانتظارِ أن تتمّ مناداتهما.

«أنا سعيدٌ حقاً بانتهاءِ تلك الحماقة» أجاب فورستر من دون أن يستدير «لو استمرت أكثر فسوف ينتهي الأمرُ به تائهاً أكثر من السيد جون بنفسِه».

وهي تجلسُ في أفضلِ مقصورةٍ في المكان شهقت السيدةُ جين من هولِ الصدمة مع باقي المُتفرجين في المشهد الختامي، حيث قدّم ديكنز ظهوره النهائي كواردور المُحتضر، رفعت منديلاً معطراً بماء الكولونيا إلى أنفها كي تتجنبَ رائحة الصوف المُتعرق الزنِخة، والرائحة الحيوانية التي تتصاعد من الحشدِ المُشتعل في الأسفل، وهي تُصبح أسوأ مع التطوراتِ المُثيرة للمسرحية، لقد استحال ديكنز إلى مخلوقٍ رهيب، تلتمع عيناهُ مثل حيوانٍ بري، بشعرٍ فُضيٍ طويلٍ ولحيةٍ كثة، وملابس عبارة عن أسمالٍ مُثيرة للشفقة.

«من التي ترغبُ في العثور عليها» تساءلت إيلين تيرنان «زوجتُك»؟

هزّ ديكنز رأسه بشدة.

«مَن إذن؟ كيفَ تبدو».

على الحلبةِ تمكن ديكنز أخيراً من التطلّع إلى عينيها، وجنتيها، أنفها وشفتيها، لم يتمكن من التوقفِ عن التطلّعِ إليها، قليلاً فقليلاً رقّ الصوت الأجوفِ الأجشِ الذي كان يستخدمه للدور.

«شابةٌ» قال «ذات وجهٍ مُشرق حزينٍ وعينان حنونتان لطيفتان، شابةٌ ومحبوبةٌ ومتسامِحة»، كان يصرخُ الآن ليس للجمهور بل لأجلِ إيلين تيرنان، لم يعُد الصوت هو صوتُ واردور بل كان بشكلٍ غريبٍ صوته هو.

«أنا أحتفظُ بوجهِها في مُخيلتي لأنه ليس بإمكاني الاحتفاظ بشيءٍ آخر، يتوجبُ عليّ أن أتجول وأتجول وأتجول ـ قَلِقاً، أرِقاً، مُشَرَّداً ـ حتى أجدها، فوقَ الجليد والثلوج، أتسولُ في بِقاع الأرض، مستيقظاً طِوال الليلِ والنهار، أتجولُ حتى أجدها».

كانت السيدة جين تنظر إلى الأسفل من مقصورتِها وتفكر مثل كلارا بورنهام بأنها قد شهدت على نقاءِ وطهارةِ الحب، وعوضاً عن شعورها بالرضا عن حياتها، وعوضاً عن التفكير في السيد جون بنُبلٍ، كانت المسرحية تأخذها إلى سنواتِها الأخيرة في أرض فانديمون، كان ثمة شيءٌ خاطئٌ حول أمرٍ ما، أمرٌ غير صائبٍ بشدةٍ حتى خشيَت أن تصرُخ.

استدار ديكنز وأحسّ بالجمهور خارجاً في العتمة، لم يعُد واردور موجوداً، كان ينجرِف بعيداً مع الأبخرةِ المُتصاعدة من جسدِهِ الساخن، وعلى الرغم من هذا فقد شعر بحرارةِ الحشد وهم يرغبون بالمزيد، على الرغمِ من أنه لم يعلم ما الذي سيكونُه ذلك، لكنه أدركَ بأنهُ سوف يستمرُ بالعطاء حتى لا يتبقى شيءٌ، يتبقى الموت فقط، الموتُ الذي طارده هنا، الموتُ الذي كان يلتهمه هُناك على المسرحِ حتى، فجأةً سقط أرضاً ـ شهق الجُمهور وصرخ أحدهم بذعرٍ، انحنَت إيلين تيرنان نحوَه ووضعت رأسه بلطفٍ في حِجرها.

كان يستطيعُ الإحساس بفخذيها تحت رقبته وهي تحتضِنه، شعر بالضوءِ الأبيض يحيقُ بهما وعندما أحاطته أخيراً بذراعيها، رغبَ في البقاءِ هكذا في ذراعيها وفي الضوءِ إلى الأبد.

وهو يتابعُ من خلال عدساته السميكة، وجد ويلكي نفسه ليسَ مُستثاراً فقط وإنما مصعوقاً، بينما يموت واردور الآن بين ذراعي كلارا

بورنهام، وهو يُدرك أخيراً أنها حُبه الضائع منذ عقود، والذي كان قد ضحى لأجلِها بكل شيءٍ حتى يتمكن حبيبها فرانك الديرسيلي من البقاءِ على قيدِ الحياة، لم يشهد ويلكي شيئاً مماثلاً لهذا طِوال حياته.

كانت إيلين تيرنان تنظرُ إلى ديكنز وهي تهزُّ رأسها وتعضُّ شفَتيها، ولشدة دهشته تمكّن ويلكي من رؤيةِ أنها كانت تنتحِب، ليست دموعاً مسرحيةً بل بكاءً من القلب. في الصفوفِ كانت مجاميعُ من الناس تنتحب معها، كان المنديلُ المُعطر ملتصقاً بقوةٍ إلى وجهها، شعرت السيدة جين بالعاطفةِ تتصاعدُ داخلها على شكلِ ذعرٍ راسخ، في الأسفل رأت خلال دموعها باحة ميتمٍ قاتمة، تقفُ في وسطها فتاةٌ وحيدةٌ شعثاء تنظرُ إليها.

«أنتِ» قال ديكنز بصوتٍ مُرتعش.

انحنت السيدة جين نحو الأسفل بينما اشرأبّت أعناق الجمهور من أجل رؤيةٍ وسَماعٍ أفضل، كانوا يبدون مثل مخلوقٍ واحدٍ، حيوان واحد ينتظر مستعداً، أدرك ديكنز أنه لم يعُد يتحدث نصّاً ولكن النصّ أصبح يصِف روحه بشكلٍ غير ملائم، عنيدٍ ولا مفرّ منه.

«أنتِ» قال مرةً أخرى وبصوتٍ أعلى لأنه رغب في أن يملأ فمهُ منها، رغبَ أن يضيعَ نفسه في ثديي إيلين تيرنان، يدفِن نفسه في بطنها، يعضّ فخذيها، أن يتخلصَ من كل ذلكَ الصمت وتلك العُزلة التي طالما خافها، كان يلهّث، كان في ذعرٍ مُطلق، كان يرتجفُ بعمقٍ، صوته يرتعِش، كانت كلماته عبارةً عن اعترافِ «لقد كانت دائماً أنتِ».

«توقف» قالت إيلين تيرنان، نيلي خاصتُه، كلماتٌ لم يكتُبها ديكنز ولا ويلكي ثم أدركت خطأها، هزّت رأسها بينما كان يتملك جسدَها

هاجسٌ مرعبٌ عن قدره، حاولت الرجوعَ إلى أسطرها وهي تُتمتم بشكلٍ مشوش وبطريقةٍ فُهمت خطأً على أنها تمثيل.

لكن ديكنز كان يسحبها نحوَه، نحو مصيرٍ غريبٍ، مرعب، ولم تتمكن من التوقفِ عن التهاوي، كانت مرتعبةً لأجلِ كِليهما، نظرت حولها بيأسٍ، لكن كل مكانٍ خارج هالةِ الضوء التي تُحيق بهما معاً كان معتماً، الليلُ الجامح بأكمله يُطاردنا إلى حدِ الآن فنحن لسنا مُلاحقين بشيءٍ آخر، تجمع أفرادُ الطاقم حولهما وقد خلعَ الرِجال قبعاتهم، كانت النهايةُ وشيكة، تمكّن الكُل من رؤيتها.

«قبّليني يا شقيقتي، قبّليني قبلَ أن أموت».

كانت كلماته تُوَجَّهُ إلى قلبها مثل إطلاقاتِ مدفعٍ لامتهية.

انحنت إيلين تيرنان نحوَه وقبّلت جبهته، لقد قبلته ليسَ لأن ذلك كان جزءاً من النَص ببساطةٍ، لكن كان ثمة منطقٌ راسخٌ لقبلتها له، والذي كانت تُصارعه ولا تتمكنُ من إنكاره، السؤال هو هل ستتمكنُ من دفعِ الثمن، استطاعت الآن أن تُدرك أنها كانت روايةً، تلك التي تضمّنها دفترُ ملاحظاته، ولكنها لم تتفهمها حتى تلكَ اللّحظة، عندما أصبحت هي قلبها اللامكتوب.

تمكّنَ من الإحساسِ بشفتيها على جبينه، تمكّنَ من الشعور بالتوتر الإنساني الهائل لدى الجُمهور المُظلم، فراغٌ معتمٌ كان يشعُ بالطاقة التي سمحت له بالبقاءِ على قيدِ الحياة لفترةٍ أطول، تمكّنَ من الإحساس بهذا، الإحساس بهم وهم يحثُّونه على الاستمرار.

لقد أتى إلى هنا مصادفةً، كانت المُصادفات تقوده إلى قدرِه، وعلى الرغم من هذا ففي قِصصه كان يعلم جيداً أنه لا توجدُ مصادفات في هذا العالم، وأنَّ الغرض من كل شيءٍ كان سيتضحُ في النهاية سواءً أكان

جمجمة بربريٍ أم السيد جون وهو تائهٌ في الجليد الطافي أم ديكنز وهو ضائعٌ، حتى تلك اللحظة ظنَّ أن بإمكانِه أن يجُرَّ نفسه نحو المَشي منوّماً بشكلٍ غريبٍ خلال الباقي من حياته، والتي أصبحت عذاباً غريباً، ولكن ربما لَم يكُن الأمر كذلك.

«ما هو» تساءل ديكنز بكلماتٍ لم تسمعها إيلين تيرنان من قبل، كلمات خارج النَص، نظرت إليه مصدومةً، غير مدركةٍ للذي يحدث، «الطريقة التي ننكرُ فيها الحب» أكمل ولكنها، والجمهور، تمكّنت من معرفةِ كم كان الأمر صعباً عليه لقولِ تلك الكلمات، «والطريقةُ التي نكتشفُ فيها أنه كان قد وَهَبَ إلينا بكل ألمه وتفطُّر القلبِ الأزلي المُصاحب له، الطريقة التي نقولُ بها لا للحب».

لم يتمكّن من رؤيةِ السيدة جين تنهض فجأةً وهي شاحبة الوجه، تستديرُ وتغادر مقصورتها، في الخارجِ وخلال اندفاعِها للهربِ من المسرح، فقد وطأت بشكلٍ عرضي على قناةٍ طافحة بشيءٍ لزجٍ وكريه، أسقطت منديلها، كان فمُها وأنفها مغمورين بتلك الرائحةِ النتنة للمدينة، الهواء المُعتق بالحرارة: مياهُ البالوعات الرطبة التي تنسابُ خلالَ الشوارع والغُبار الجاف لروثِ الخيول وهو يعصِف في الهواء، الرائحةُ النفاذة لآلافِ المدابغ، الورش والمصانع ونتانةِ ملايينِ الأجسادِ غير المغسولة.

شعرت السيدة جين بالضياع وبأنها على وَشك أن تتقيأ، لقد حصل ذلك لها ربما لأنها أدركت أنهُ قد يوجد شخصٌ واحدٌ من بين الجميع يُحبك، لم تتمكّن من العثورِ على عربةٍ أو حتى مركبة ملائمة، هل قالت لا للحُب في ذلك اليوم الذي نظرت فيه إلى الأسفلِ نحو الباحة؟ نادت على مركبةٍ ونادت بصوتٍ أعلى ولكن لم يأتِ أحد، ولو أنك

أدرتَ ظهركَ للحب، هل يعني هذا أنك لم تعُد موجوداً، هل هي كذلك، شعرت بأنها تائهةٌ وميتة مثل السخام الأسودِ الناعم الذي كان يدور حولها، كانت تصرخُ بصوتٍ أعلى وأعلى ولكن ما زال لم يأتِ أحد، في الداخلِ كان الصوتُ الوحيد الذي يُسمع هو لُهَاثُ المِنفاخين العملاقين وهما يحاولان جَهدهما الحِفاظ على توهُج مصباح الكِلس وكأن ناراً باهتةً واحدة كان تتنفسُ لأجلِ ألفَين من الجمهور المُتبقي، المنوم مغناطيسياً.

«لا تمُت» قالت إيلين تيرنان.

كان رأسه يستقرُ في حِجرها، كانت دموعها تتساقطُ عليه كالمطر وكان الكونُ يتدفق خلاله، كان منفتحاً على كل شيء، كانت فكرةً مذهلة وشعوراً مريعاً، شيئاً من خارجِ ذاته كان قد اخترقه تواً، شيئاً ماكراً وبهيجاً، بدا وكأنه كان قد استيقظ مفزوعاً من حُلم، لقد بقيَ على قيدِ الحياة، شعر وكأنّه كان ينحدرُ من على جبلٍ، حيث كان الثلجُ المتراكِم يُصبح أكثر رقةً ثم يفسح المجال للجنائنِ، لوادٍ عظيم أخضر كان يدعوه إليهنّ، مكانٌ شاسعٌ وحُرٌ، شعر بنفسِه يشهقُ بتأمّله فيه، مشى ومشى، كان الهواءُ لطيفاً والتنفس أشبه بشربِ الماءِ في يومٍ قائظ، لقد كان يعودُ إلى المنزل، لم يكن هذا منطقياً، لقد كان يتجاوزُ الإدراك، لقد كانت تحتضِنه وهو يشعرُ بها تتنفس، كان يتذوقُ دموعَها، كان صوتُ النحيبِ المُتصاعد من العُتمة أمراً لا يُحتمل.

«أرجوكَ لا تمُت» توسّلت إيلين تيرنان.

كانت وجنتاهُ تضغطان على بطنِها، كان يتمكنُ من الإحساس برقّتها وهي تنبضُ داخلاً وخارجاً، لم يكُن يعلم أنه خلال عامٍ سوف ينتهي زواجه وأنّه خلال الأعوامِ الثلاثة عشر المُتبقية من حياتِه سوف يكونُ

مخلصاً لإيلين تيرنان، ولكن علاقتهما ستكون غامضةً وقاسية، وأن حياته وكتاباته سوف تتغيرُ بلا رجعة، وأنّ الأشياء التي تُكسر لن يُعاد إصلاحها، حتى طفلهما المُتوفَّى سيبقى سراً، وأنَّ الأشياء التي تاقَ إليها ستُصبح وهميةً أكثر، وأن الحركة والحُب كانا سيخيفانِه أكثر فأكثر، حتى إنه لن يتمكن من الجلوسِ في القطار من دون أن يرتعِش، لقد كان يشعر بها: ساخنة، مُعتَّقة، وعذْبة.

«نيللي» همس ديكنز.

وفي تلكَ اللحظة أدرك ديكنز أنّه كان قد عَشِقها، لم يعُد بإمكانهِ أن يُهذب قلبه غير المُهذب، وهو، كرجلٍ قضى حياته معتقداً أن الاستسلامِ للرغبات هو دليلٌ على البربرية، ، أدرك الآن أنهُ لم يعُد بإمكانِه أن ينكُر الرغبةَ مُطولاً.

١٣

«نحنُ من أعطينا للموتِ فرصةً» قال والتر تالبا بورني «ولكن إلى متى؟»، كان والتر تالبا بورني سكيراً الآن، بديناً ويُعاني من المُشكلتين، كان في أواخرِ العشرينيات لكنه يبدو أكبر بكثير، لقد انتهت الحَرب ولكن ابتدأت حربٌ أخرى داخلَ والتر تالبا بورني ولن يُفلت منها، عندما يكون مخموراً يكونُ غاضباً من الرّب، وعندما يكون صاحياً فقد كان يُصلي إلى الرّب كي يُساعده ليثملَ مرةً أخرى، وعندما يكون مخموراً مرةً أخرى كان يصرخ بأنه لو حَظيَ بفرصةٍ فسوف يطعنُ الرّب الصالحَ بحربةٍ ويُلقّنه درساً.

بالنسبة للرّب لم يكُن لدى ماثينا رأي محدد ـ ربما وكما أخبرت رفاقها شاربي الرام حول النار أحياناً، فإنهُ بسببِ كونها راسخةَ الإيمان ولكنها أخبرت والتر تالبا بورني بأنها تكرهُ حديثهُ عن الموت.

«كُل السودِ يموتون في وايبالينا» قال والترتالبا بورني وهو يتجاهلُها «نحنُ نتصور بأننا حين سنعود إلى وطننا، فسوفَ نُصبح أصحاءَ وصالحين ولكننا عُدنا إلى هنا وما زِلنا نموت، إن الشيطانَ بداخلنا، الشيطان يقتلنا، الرّب يقتلنا، لماذا يعملُ الرّب والشيطان معاً.

كان ثمة خمسةٌ منهم يعاقرون الرام الممزوجِ بالسُّكر في تلك الليلة: مع اثنين آخرين من المحليين وبورلي توم، والذي كان صياداً

ذات مرةٍ ثم أخذ يعتاشُ على تصليحِ الشباك ولكنه أنكر فيما بعد وجودَه هناك.

أدارت ماثينا الحِوار نحو الفساتين التي تُرتدى الآن في لندن، وهنا فقد كانت تكررُ ما سمعته قبل أعوام عدة فقط، حاولت أن تقودَ الحوار كما كانت السيدة جين تفعل مع ضيوفِها عن طريقِ تقديم موضوعٍ ما ثم الالتفات إلى شخصٍ آخر لمعرفةِ رأيه، لكنها حين حاولت أن تنظر في عيونِ مُرافقيها أدركت ماثينا أن هذا لم يكُن منزلَ الحاكم، ولكن محل ايرا باي لبيعِ الخُمور المغشوشة ـ وهو طابقٌ أرضي في كوخ من الألواحِ الخشبية المُهترئة، مكونٌ من غرفتين في الخليج الشمالي الغربي ـ وإنَ تلك لم تكُن حفلةً ساهرة، وهم لم يكونوا يشكّلون نُخبةً من المُجتمع بل جماعةً نتنةً من الأغبياءِ السود العاجزين، تمنّت لو أنها كانت تمتلك عصا البامبو العائدةِ للأرملةِ مونرو كي تضعها تحتَ ذقونهم حتى ينظروا إليها مباشرةً، ليس هنالك شيءٌ جيد، لا شيء جيداً لأولئكَ البرابرة الذين لا يفقهونَ شيئاً.

وبسببِ الفراسة الذهنية التي امتلكتها في منزلِ الحاكم فقد استوعبت أهميةَ وجود نموذجٍ لهؤلاءِ الأدنى منزلةً، ولأنّ هذا كان يُصيب قلبَ الهدف فإنّ ماثينا تحدثت عن الرقصاتِ الجديدة في ذلك الموسم في لندن، على الرغم من أن معلوماتها هنا أيضاً كانت بائسةً تماماً وقديمة، عندما سألت جوسبيري عما تظنُّهُ قامت بإصدار صوتٍ يشبه الحازوقة في قدحِها المُتصدع وهي لا تعرف أي شيء إطلاقاً عن رقصاتِ البيض الجديدة، انتقلت ماثينا نحو الموضوع الوحيد الذي ظنّت أنها كانت تمتلكُ مقدرةً ما للخوضِ فيه: لماذا كانت ترغبُ في اصطيادِ الثعالب، شيءٌ ما كان قد توحّد بين إرثِها وتربيتها.

«نحنُ نُعامَل بشكلٍ شائن، أسوأ من القُدماء ساكني الأحراش» قال

والتر تالبا بورني «وهم برابرةً وليسوا مسيحيين صالحينَ مثلنا، إنهم برابرة لن يتعلموا شيئاً» لقد كان يُغمغم الآن ثم احتسى مشروباً آخر، وقام بتغيير رأيه، شعر بأن الرّب كان قد عادَ إلى جانبه الآن، عندما نظر والتر تالبا بورني نحو ماثينا فقد رأت دموعاً كانت تهطلُ من الشقينِ الضيقين المُتبقيين من العينين في وجههِ المُنتفخ، وقد تساقطت مع دموعه قملة.

كانت ماثينا تعلمُ أن والتر تالبا بورني أضحت لديه زوجة الآن، وكان يحاول أن يكون محترماً، لكن الحكومة كانت قد استولت على خِرافه عندما غادروا جزيرة فلاندرز وهو يرغبُ باسترجاعها الآن، وكلما رغب في الأرض كانوا لا يعطونه شيئاً حتى يُقلع عن الخمر، ولكنهُ ولمعرفتِهِ بأنّ تلك كانت كذبةً أخرى فقد كان يشربُ أكثر فأكثر.

«نحنُ نعرف أن البيض كما السّود، حين نموتُ فإننا نُولد مرةً أخرى ببشرةٍ بيضاء، ولكن لماذا» لقد كان تائهاً الآن في مكانٍ ما بين الرّب ويسوع والبرابرة والتحضُر، وكل ذلك الموتِ الوشيك، وذلك التأكيد المستحيل المُروع المُشوق بأنهم سوف يولدون كأغبياءَ مثل البيض، «لماذا» قال مرةً أخرى «لماذا».

«أنا لستُ بربريةً ولا عبدة» قالت ماثينا «إنهم أشرارٌ وسودٌ أغبياء، إنهم يزدرونني، سوف أتزوجُ من رجلٍ أبيض، انتظر وسترى، سأُصبح سيدةً عظيمة».

قال والتر تالبا بورني وهو ينساقُ ثانيةً إلى الحِوار «من الأفضلِ أن تثملي برفقتِهم».

لكن ماثينا كانت تثملُ مع والتر تالبا بورني لأنه باستثناءِ بعض عمال القُطن البائسين فلن يُجالسها أحد، وبالرغم من كونهم دأبوا على مضايقةِ أحدهم الآخر فقد كان المحليّون يشتركونَ في شيءٍ مميز، حتى إنه في

بعضِ الأحيان كان يستحوذُ عليهم، كانوا عند صعودِ وهبوط أقداحهم المُتصدعة وأكوابهم الصدِئة خلال تداخُل عالمِهم القديم والجديد، يلتمسون بعض الأجوبةِ عن مكنونهم وما الذي سيصيرون إليه.

أياً كان من تشربُ معه ماثينا فقد كانت تشربُ أكثر فأكثر، ولهذا فعندما اصطحبها والتر تالبا بورني عبرَ الممر المُظلم من محل ابرا باي خلال الغابة، حين ضاعَ ضوءِ القمر في ظِلال الأشجارِ الداكنة ـ كانت تتميزُ غضباً ولم يكُن السبب لأنه آذاها بدخولهِ فيها، ولا تبريراته بأنّها هي من كانت جافةً وغير مُهيأة أو غير جميلةٍ كفاية كي تستحقَ أن يدفع لها أو هراءه حول ضرورةِ أن تقوم هي بالدفعِ له مُقابل تلك المُتعة، لقد كان الأمر ببساطةٍ لأنه رفض أن يُعطيها نصفَ قنينةِ الرام التي وعدها بها بالمقابل، ولهذا السبب فقد تجادَلت معه، ولهذا السبب فعندما صرخ عليها بصَقت عليه، ولهذا السبب عندما ضربَها فقد ضربتهُ بالمقابل، ولكن عندما ضغط على رأسِها في بركةِ الوحلِ وهو يصرُخ أنَّ عليها أن تشربَ هذا، لم يكُن هنالكَ ما تفعلُه أو تُحاول فِعله.

كلُ ما حولها كان أشجاراً أكثر قِدماً من المعرفة، لو وضعتَ وجهكَ على لحائها المُبقع بالطحالب فسوف تستَمِعُ إلى كل شيء، إنه أمرٌ يتعدى الإدراك، إنه يتحدى الكلمات ويتحدثُ بالأحلام، كانت تُحلق خلال أعشاب ولابي لكن لم يعُد جسدها محضَ شقاءٍ، ولكن مسرّة، خيوطٌ رقيقةٌ من الأعشابِ الناعمة كانت تنثرُ حُبيبات الماء على قدميها، كانت الأرضُ هي قدماها الحافيتان، رطبةٌ وموحلةٌ في الشتاء، جافةٌ ومُتربة في الصيف.

تدبّرت ماثينا أن ترفعَ رأسَها خارجَ البُركة لفترةٍ، قام والتر تالبا بورني بانتزاعِ الوِشاح الأحمر الرّث من شعرها، ثم لفَّه حول حنجرتها وشدَّ

أطرافه القذِرة إلى ما يُشبه الأنشوطة، كان الطريقُ أمامها يُصبح مرتعشاً، لم يعُد الزمن أو العالم أزلياً، كلُ الأمور ستنتهي إلى الوحلِ والطين، أخيراً رأت وجهَ والدها، طويلاً وذا أنفٍ معقوفٍ قليلاً، وفمٍ عطوف، لقد كان، وكما أدركَت بذعرٍ متزايدٍ عندما شعرت بأنّها تُعادُ بقوةٍ إلى ذلك الفراغ اللزِج، لقد كانَ وجهَ الموت.

مشى «والتر تالبا بورني» فيما تبقى من الليلةِ وهو عائدٌ نحو عالمِ النور، عالم الأطفالِ الضاحكة، الخيولُ التي تلتهِم الأعشاب بسكينةٍ، الأشخاص الذين يمتلكون شيئاً لفِعله وحياةً كي تُعاش، وعندما بزَغ الفجر مرّ بجوارِ سائق عربةٍ يجرُها ثورٌ، وهو يرتاحُ مع وحشِه وعندما اقترب منزله أكثر، فقد رأى مشهداً ذكّره بالإنجيلِ المُحبب لديه وجعلهُ يبتسم: حمَلٌ تائهٌ على الطريقِ.

وقف «كارني والش» لدقيقةٍ إضافيةٍ أمام ثوره، وهو يقوم بتدفئةِ يديهِ على البخارِ المُتصاعد من أنفِ الحيوان ذي الحلقة، ثم تحرّك هو والثور وعربته، لقد اتّخذ طريقه عبر المُنحدر الصخري الذي يُطل على القنال وقوارب الصيد فيها، وينتهي نحو وادٍ صغير، حيثُ كان من المُفترض أن يقوم بمساعدةِ أحدِ المزارعين برفقة مُدانٍ لبناءِ حظيرة.

ابتدأوا صباحَهم باختيارِ الأشجار الميتةِ ذات الجذوعِ المستقيمة والملائمة كي تُصبح أوتاداً ثم ابتدأوا بالعمل وبعد أن أسقطوا الأشجار، ثم نَزعوا عنها أغصانَها ولُحاءها، قام كارني والش وثوره بسحبِ تلك الأوتاد نحو مَرجٍ يتألقُ بكثير من شِباكِ العنكبوت اللامعة، والذي بدا مغلفاً بلُعابِ الشمس. كان الصقيعُ المُتجمد على الحشائشِ الطويلة يذوبُ إلى ندىً لامع، وكل شيءٍ ومن ضِمنه الرجال والثور كان يُطهى بشمسِ الشتاء، وهم يعملون وقد بدا أن كل شيءٍ كان في محله.

على بُعد ميلٍ كان عجوز كسولٌ يجتاز سلسلة صخورٍ بصعوبة، وهو

يرتجفُ ويلعنُ ويشعر بالسعادة في سَعيه ذاك، لقد أخرج كثيراً من أرجلِ الكلاب من حقيبةِ الخيش إلى وعاءٍ من القش، وهو يختارُ بعناية النقطة التي سيُلقي فيها بالوعاءِ حيث توجدُ الكمية الكبرى من أعشابِ البحر، أنزل الوعاء بواسطةِ حبلٍ طويلٍ من القُنّب. عندما ارتفعت الشمس، غردت الطيورُ، عمل الرجالُ وأبحرت القواربُ واستمرت الحياة.

سطعَ بريقٌ قويٌ من الضياء، بلونٍ ذهبي ياقوتي، دافئ على البشرة، اندفع خلال أشجار اليوكالبتوس ونحو الرجالِ الثلاثة: كان المُزارع قلقاً بخصوصِ زوجته الحُبلى بطفلهِ الرابع، كان المُدان يأمل في أن يجِد زوجةً بعد أن يتحرر، وكارني والش والذي كان يحمل حُزنه على ابنته التي خطفتها حُمى التايفوس قبل عشرين عاماً كحجارةٍ في معِدته، كان الرجال يعملون مع كلماتٍ قليلة، حول الأشجارِ المتساقطة وهم يُدحرجون ويُثبتون، يقيسون ويقطعون حتى حصلوا في آخرِ الأمر على تسعة أوتادٍ جيدة.

حمّلوا العربة، ثلاثة أوتادٍ في كل مرة، في رحلةٍ من الحقلِ نحو المسكن وقبل كل رحلة كان كارني والش يربّت على خطمِ الثور ولكأنه يشترك معه في مزحة ما، لقد كان شفوقاً بشكلٍ غير متوقعٍ مع ذلك الحيوان، وكأنّ عِبء تلك الجذوع كان يتوزعُ بشكل متساوٍ على كليهما.

استدارت الشمس حول مدارها الشِتائي المنخفض، خلعَ الرجال ببطءٍ معاطِفهم وكنزاتهم الصوفية، حتى كانوا يعملون أخيراً بسراويل وقمصان داخليةٍ قذرة، وعندما ارتفعت الشمس إلى أعلى مستوىً لها لم يعُد الرجال يشعرون بالوَهن أو الانحلالِ ولكن بالنشاطِ والصحة، ثم توقفوا بينما أوقد المُدان ناراً من أغصانِ الحشائشِ المُزيتة، أخرج كارني

والش بعضاً من رقبةِ الخروف الباردة من حقيبته، كان لدى المزارع الخُبز والملح، قاما بتحريكِ وَتذَينِ لعمل مقاعد حول النار، وأكلا طعامهما المكوّن من رقبةِ الخروف الباردة والخُبز والتوابل ثم شربا شاياً أسود مُحلى بمربى الخوخِ العائد للمُزارع، وتحدثا بحبورٍ كيف أنهما كانا يعيشان في رخاء.

بعد الغداء عادوا إلى عملهم وعندما انتصبَ كل وتدٍ في الحفرة المُخصصة له ثم طُمرت الأرض حوله، فقد شعرَ الرجال بالبهجة، كانت الأوتادُ تحمل لونَ العِظام المتآكلة وهي بيضاءُ شاحبة ومخططة باللونِ الأصفر، وقد انتصبت بطريقةٍ غريبةٍ كجزءٍ مُتصل ومُنفصلٍ عن العالم حولها فأسبَغت على الرجالِ سعادةً غامرة، والتي لم يجدوا رغبةً لوصفِها بالكلمات.

كي يصل إلى منزله قبل حلولِ الليل البارد فقد غادر «كارني والش» قُبيل الغسق بساعةٍ، لأنه وثوره كانا مُنهكي القِوى فقد سلك الطريق الطويل نحو المنزل خلال الغابةِ لتجنُب المرور عبر تِلال الصباح، وبعد ربع ميل نزولاً خلال الطريق المُوحل الأيمن الذي يمرُّ بالقربِ من محل ايرا باي للخمور، توقفَ الثور فجأةً ورفض التقدم.

رفع رأسه بعيداً عن ذِكرياته وعن العربة التي كان يتبعها وكأنه هو من كان الحيوان الخنوع الأعجم، كان انطباعُ كارني والش الأولي هو مدى دقة تينك القدمين المُمتدّتين من أجمةِ السرخس.

ألتفَّ حول الثور والعربة كي يُصبح أقرب، كانت تتوزع على ظهرِ الجسد الذي تمزقت ملابسهُ الرثة، والذي كانت الحشرات تزحفُ عليه حتى بدا وكأنه وكرُ حشراتٍ وليس إنساناً، كثير من الحُفر الدامية بسبب نهشِه من قِبل غِربان الغابة، حيث كانت آثار أقدامِها غير القابلة للقراءة

تنتشر في الوحلِ المجاور، غرز مُقدمة جزمته تحت كتِف الجُثة ثم حرّكها خارجَ بركة الوحل وأدارها نحوَه، شعر مباشرةً بالخزي لأنه عامل إنساناً آخر بتلك الطريقة.

توقف هناك صامتاً، كان الضبابُ يملأ الغابة وقد ضاعَ كل شيءٍ في ذلك الكَفن الأبيض، كانت حُبيبات الماء تنحدِر على الجذوعِ البيضاء اللامعة التي تنتصبُ مثل دِعامات مِلحية، ترتفعُ وتهبطُ وتتداعى، عندما أضحى شعرهُ الفِضي مبللاً، وعندما بدأ الندى يتجمعُ على وجههِ، شعر بأنه تائهٌ بشكلٍ متزايدٍ داخل حُلمٍ ما.

لقد تعرّفَ عليها «كارني والش»، كان قد رآها قبلَ أسابيع عدة وهي تندفِع في رقصةٍ مخمورةٍ وسط شوارع هوبارت قُبيل الظهيرة - كانت مزيجاً من الاهتزازِ المحلي ورقصةٍ أنيقةٍ أخرى - نصفُ ذئبةٍ وأميرةٌ متكاملة، مُتساءلةٌ تائهةٌ، تنتمي ولا تنتمي، سخَر منها بعضهم ورشقَها بعضٌ ببقايا الطعام، وقد طاردها الصِبية كأنها طيرٌ مكسور الجَناح.

لم يكن صعباً عليه أن يُخمّن كيفيةِ موتِها - تلك الخِرقة المُلتفة، الرقبة ذات الكدمات، الثوب المُمزق - لكنه شكَّ في احتماليةِ حصولِ أية مشاكل أو حتى أي استجواب.

تتبعت نظراته عيني الفتاةِ المفتوحتين نحو الأعلى، وما عدا ذلك فقد استمرت الحياةُ كما تفعل دائماً، غافلةً عن الشقاءِ أو المسرات، وعلى القمةِ المجاورة في كوخٍ مُنعزل من أغصانِ الأشجار كانت هنالك امرأةٌ تنوحُ من آلام المَخاض، بينما على الصخورِ في الأسفل كان الصيادُ يلعن بعد أن سحب وعائه ليكتشفَ أرجل وقشورَ جرادِ البحر المُتبقية من أخطبوطٍ لِص.

«هكذا تجري الأمور» قال كارني والش وهو يقومُ بإغلاقِ عينيها.

لم يتبقَ منها شيءٌ سوى العمل، التقطَ جسدها الرطِب بيديهِ اللتين كانتا ضخمتين وحنونتين ذات مرة، وضعها على العربةِ بعد أن قام بتنظيفِ قصاصات اللُحاء من قعرها قبل أن يُسجيها هناك، كان قد ثبَّت رأسَها بين فأسِه ومِنشاره.

كانت تبلغُ السابعة من العمر عندما أرجحها في الهواءِ لأول مرةٍ، ثمَّ أجلسها في عربته ونَقر على إصبعِ قدمها، لقد ذكَّرته عندها بابنته المتوفاة، لقد كانت جميلة، حاول أن يُحصي الأعوام، كان العالمُ يزداد ظلاماً، كانت الليلةُ الطويلة قد بدأت للتو، أسقطت إحدى الأشجار غصناً بينما التهمت بومةٌ طيراً ما، وحلّقت بجعةٌ سوداء في عَنانِ السماء، أحنى رأسه، لقد انتهى من حِساباته، كانت تبلغُ السابعةَ عشرة من العمر.

«كيفَ تجري الأمور» غمغم «وتستَمِر».

وبظهر يدهِ المفتولة العضلات مسحَ النجارُ على العينينِ الميتتين المبيضتينِ، ثم داعبَ الثور على خطمِه وسأله أن يُساعده في حملِ جُثة تلك الطفلة إلى المنزل، تدلّت قدماها القذرتانِ من مؤخرةِ العربة، وبينما كان الثورُ ينوءُ بحملهِ الثقيل كان باطِن قدميْها شديدِ البياض يختفي في الليلِ الطويلِ.

هذا الكتاب

إنَ أيَّ تلخيصٍ لن يكونَ عادلاً لشدةِ التعقيدِ والتّناقضاتِ في هذه الرّوايةِ العميقةِ المذهلة، لقد كانت هنالك لحظاتٌ من القوّةِ العُظمى والموسيقى في «الرّغبة»، إن الرّوايةَ توضِح مرّةً أخرى ـ من خلالِ أحداثٍ وتصورّاتٍ مريعة ـ كيف أنّ التّاريخَ المزوّرَ والنّاسَ الحقيقيّين من الممكنِ أن يدفعوا ضريبةً عظيمةً، على عكسِ الرّسامِ والمؤرّخِ فإن الكاتبَ غير مُلزمٍ بالحقائقِ المثبتةِ أو بغيابِها المحبِط وهو يتجولُ بحريّةٍ، مع الأخذِ بعينِ الاعتبار المصداقيّة والتقبّل خلال الشخصيةِ والدوافعِ، الاحتمالات والافتراضات، وبيدينِ واثقتينِ وخبيرتين فإنَّ الخيالَ يمكنُ أن يحرّرَ الماضي ونظرتنا إلى كثير من الشخصيّات التّاريخية الرئيسيّة أو الثانويّة بطريقةٍ يحسدُه عليها الصحافيُّ، إن ريتشارد فلاناغان كان تجسيداً حياً على هذهِ النّقطة من خلالِ خياله فإن الصّورَ الشّاحبةَ المُسطّحةَ للأشخاصِ قد استحالت إلى مفاهيمَ ثريّةٍ وثلاثيّةِ الأبعادِ، شهودٌ جُددٌ قدّموا شهادةً معاصرةً عن الماضي وقد ضجَّ الصّمتُ التّاسمانيُّ بالأصواتِ.

نيويورك تايمز بوك ريفيو


ISBN 978-9933354077

